"حياة صعبة أفضل من ميتة هينة"

الموت والبطريق

أندري كوركوف

ترجمة: محمد عثمان خليفة

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع
مكتبة
Telegram Network

الموت والبطريق

أندري كوركوف

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

الموت والبِطريق

1. الموت والبِطريق
2. 1
3. 2
4. 3
5. 4
6. 5
7. 6
8. 7
9. 8
10. 9
11. 10
12. 11
13. 12
14. 13
15. 14
16. 15
17. 16
18. 17
19. 18
20. 19
21. 20
22. 21
23. 22
24. 23
25. 24
26. 25
27. 26
28. 27
29. 28

30. 29
31. 30
32. 31
33. 32
34. 33
35. 34
36. 35
37. 36
38. 37
39. 38
40. 39
41. 40
42. 41
43. 42
44. 43
45. 44
46. 45
47. 46
48. 47
49. 48
50. 49
51. 50
52. 51
53. 52
54. 53
55. 54
56. 55
57. 56
58. 57
59. 58
60. 59
61. 60
62. 61

63. 62
64. 63
65. 64
66. 65
67. 66
68. 67
69. 68
70. 69
71. 70
72. 71
73. 72
74. 73
75. 74
76. 75
77. النهاية

Guide

1. toc
2. الموت والبِطريق

«مكتبة ♔ النخبة»

أندريَ كوركوف
رواية من أوكرانيا

ترجمة: محمد عثمان خليفة

الطبعة الأولى: نوفمبر 2017

رقم الإيداع: 11273/ 2017

الترقيم الدولي: 9789773193539

الغلاف: عصام أمين

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: خالد رجب عواد

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصر العيني 11451 - - القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

First published as *Смерть постороннего* in 1996
Copyright © 1996 by Andrej Kurkow

Copyright © 1999 by Diogenes Verlag AG Zürich

All rights reserved

1

حجر...
حطَّ على بعد متر من قدم "فيكتور". التفت ينظر خلفه. وجد مغفلين، واقفين يبتسمان، انحنى أحدهما، والتقط حجرًا آخر من جزء مهشم من الرصيف، وألقى به نحوه في استهتار. تسارعت خطوات "فيكتور" في توتر قبل أن يختفي عند الناصية، وهو ينبه نفسه أن المهم ألا يركض. التقط أنفاسه خارج العمارة التي يسكن فيها، ورمق الساعة المعلقة على الجدار: التاسعة. ليس هناك أي صوت. ولا أي أحد. بمجرد أن دخل تبدَّد عنه الخوف. لا بأس، إنهم مجرد أناس عاديين، أصابهم الملل من الحياة، ووجدوا وسائل التسلية والترفيه فوق مستوى أحلامهم. لذلك قرروا أن يتسلوا برمي الحجارة على الناس.
ما إن أنار المطبخ، حتى انطفأ النور مجددًا. لقد قطعوا النور، هكذا وحسب.
وانتبه وسط الظلام إلى وقع خطوات رتيبة مألوفة؛ إنه "ميشا"... البِطريق.

ظهر "ميشا" في شقة "فيكتور" منذ عام، وقت أن كانت حديقة الحيوان تُوزِّع حيواناتها الجائعة على كل شخص يتطوع برعايته. ذهب "فيكتور" إلى هناك، وكان من نصيبه بِطريق. كان يشعر بالوحدة بعد أن هجرته رفيقته في الأسبوع السابق. ولكن "ميشا" دخل حياته، ليعرفه إلى نوع جديد من الوحدة، فصار في الشقة كائنان وحيدان، وساد شعور أقرب إلى التواكل المُتبادَل منه إلى الألفة والصداقة.

عثر على شمعة، وأشعلها وثبَّتها فوق الترابيزة داخل برطمان مايونيز فارغ. دفعه جو اللامبالاة الشاعري الذي أحدثه الضوء الضعيف إلى أن يبحث، في العتمة، عن ورقة وقلم. جلس إلى الترابيزة واضعًا الورقة بينه وبين الشمعة؛ شعر أنها تستجديه أن يكتب عليها. لو كان شاعرًا، لتلاحقت الأبيات والقوافي فوق بياض الصفحة. ولكنه ليس كذلك. هو أسير منطقة وسط بين الصحافة ومستوى متواضع من السرد. القصة القصيرة أفضل ما يمكن أن يكتبه. وكانت قصيرة جدًّا؛ أقصر من أن يكسب بها لقمة عيش، هذا إن وجد من يقبل أن يدفع مقابلها أي مال من الأصل.

سمع دوي رصاصة في الخارج.

حدَّق عبر زجاج النافذة، وقد التصق وجهه بها. لم يجد شيئًا. عاد إلى ورقته، وقد خطرت في عقله قصة تدور فكرتها حول صوت تلك الرصاصة. لم يتمكن من أن يكتب سوى جانب منها؛ لا أكثر ولا أقل. ووصلت قصته القصيرة جدًّا جدًّا إلى مصيرها المحتوم، قبل أن تعود الكهرباء، وتنير مصباح السقف. نفخ في الشمعة، ثم أخرج سمكة من الفريزر ووضعها في طبق "ميشا".

2

...الصباح التالي
انتهى "فيكتور" من كتابة قصته القصيرة جدًّا على الآلة الكاتبة، وترك "ميشا"، قاصدًا مبنى جريدة جديدة، تتكرم بنشر أي شيء وكل شيء، بدايةً من وصفات أكلة جديدة، وحتى المقالات النقدية لمسرحية في الحقبة ما بعد السوفييتية. كان يعرف رئيس التحرير، وكثيرًا ما جمعتهما جلسات الشرب، وفي كل مرة، كان رئيس التحرير يأمر سائقه أن يعيده إلى منزله.
استقبله رئيس التحرير بابتسامة، وربت على كتفه في حرارة، وطلب من السكرتيرة قهوة، ثم سمح لـ"فيكتور" بأن يقرأ له بعضًا مما كتبه، قبل أن يقول في النهاية:

- لا يا صديقي العزيز. لم يكن ينبغي أن يفلت الخيط من بين يديك. كانت تحتاج إلى إثارة دم أو قصة حب غريبة. عليك أن تعلم أن الأحاسيس هي أساس القصص التي تنشرها الصحف.

غادر "فيكتور"، دون أن ينتظر القهوة.

على مقربة يوجد مقر جريدة "الكابيتال نيوز"، ورغم أنه لا يعرف فيها أحد من أسرة التحرير، فقد توجَّه إلى القسم الأدبي.

قال له مساعد المحرر العجوز في أدب:

- نحن لا ننشر الأدب. ولكن اتركها معي. كل شيء جائز. ربما يكون من نصيبها أن تُنشر في يوم جمعة. تعلم أننا نرغب دائمًا في تقديم مادة متوازنة. القارئ يهرب أحيانًا من الأخبار السيئة باحثًا عن شيء لطيف. سوف أقرؤها.

تهرَّب المساعد من "فيكتور" بأن ناوله الكارت الخاص به، قبل أن يعود بجسده الضئيل المنهك إلى مكتبه الذي تكوَّمت الأوراق فوق سطحه. انتبه "فيكتور" إلى أن الرجل لم يُكلِّف نفسه حتى أن يدعوه إلى الجلوس. تحدَّث الرجل معه وطيَّب خاطره ومنحه بعض الأمل... كل هذا وهو واقف عند باب المكتب، دون أن يُدخله.

3

رن جرس التليفون.
كان ذلك عقب يومين من تلك المحاولة. سمع صوتًا أنثويًّا واضحًا رقيقًا:

- صحيفة "كابيتال نيوز". أعتذر على الإزعاج يا فندم. رئيس التحرير معي الآن ويود أن يتحدث إليك.

انتقلت السماعة من يد إلى يد أخرى. سمع صوتًا خشنًا يقول:

- أستاذ "فيكتور أليكسيفيتش"؟ هل يمكنك الحضور اليوم؟ أم أنك مشغول؟

- لا، أبدًا.

- سوف أرسل لك سيارة. زرقاء موديل "زيجولي". أعطني العنوان.

أعطاه "فيكتور" العنوان، وأنهى رئيس التحرير المكالمة دون أن يعرفه باسمه. ثم راح "فيكتور" يختار قميصًا من الدولاب، وهو يتساءل عما إذا كان الأمر له علاقة بالقصة. صعب بالتأكيد... ما أهمية قصته بالنسبة لهم؟ ولكنه سيذهب أيًّا كان الأمر!

ركن السائق السيارة "الزيجولي" الزرقاء عند المدخل، كان شخصًا محترمًا هو من سيوصل "فيكتور" إلى رئيس التحرير.

صافحه رئيس التحرير وهو يبادره:

- "إيجور ليفوفيتش"... يسعدني لقاؤك.

بدا له رياضيًا معتزلًا أكثر منه شخصًا يعمل في الصحافة. وربما كان كذلك بالفعل، غير أن في عينيه نوعًا من السخرية الذي تجده في المثقفين والمتعلمين أكثر مِمَّن أفنى عمره في الجيم.

قال له رئيس التحرير وهو يشير بيده بنوعٍ من الغطرسة:

- تفضل. كونياك؟

- قهوة أفضل إن أمكن.

استراح "فيكتور" في مقعد جلدي وثيرٍ، قبالة مكتب عريض. بينما التقط رئيس التحرير سماعة التليفون الداخلي قائلًا:

- فنجاني قهوة.

والتفت إليه قائلًا:

- أتدري... كنا نتحدث عنك منذ أيام، وبالأمس حينما أتاني المحرر الثقافي، "بوريس ليوناردوفيتش"، ومعه قصتك الصغيرة. أوصاني أن أقرأها بعناية. وهو ما فعلته، ووجدتها جيدة. وعندئذ قلت في نفسي لماذا نتحدث عنك فقط، فرأيت أن نلتقي.

أومأ "فيكتور" بأدب. بينما سكت "إيجور ليفوفيتش" وهو يبتسم. ثم سأله:

- "فيكتور أليكسيفيتش". ما رأيك أن تعمل معنا؟

تساءل "فيكتور" بحذر، وهو يجد نفسه على أعتاب الصحافة:

- وفيم سأكتب؟

همّ "إيجور ليفوفيتش" بأن يجيبه، عندما دخلت السكرتيرة وهي تحمل القهوة، والسكرية فوق صينية، فسكت إلى أن خرجت. قال:

- هذا أمر في غاية السرية. نحن نبحث عن كاتب لصفحة الوفيات لديه موهبة في الكتابة، ويجيد كتابة ما قلَّ ودل. لمَّاح ومبدع في صياغة الأفكار الجديدة. هل فهمتني؟

كان ينظر في أمل إلى "فيكتور". سأله الأخير في دهاء، وكأنه يخشى أن تكون الإجابة بالإيجاب:

- تقصد أن أجلس في مكتب، في انتظار أخبار الوفيات؟

- كلا، بالطبع لا! الأمر أكثر تشويقًا وجدية من ذلك! كل ما عليك هو أن تضع من الصفر فهرسًا للوفيات - كما نسميه – وأن تكتب النعي للمسؤولين الكبار، ورجال الشرطة والعصابات، ورموز المشهد الثقافي، وأمثالهم، وهم لا يزالون على قيد الحياة. ولكن ما أريده أيضًا هو أن تكتب عنهم بطريقةٍ غير مسبوقة، ولم يستخدمها أحد من قبل. وأنا وجدتُ في قصتك أنك الرجل المناسب.

- والراتب؟

- سندفع لك في البداية 300 دولار. وعدد ساعات العمل أنت الذي تحددها. ولكن عليك أن تبلغني بالطبع عن الشخصيات التي تكتب عنها. وذلك حتى نكون جاهزين مسبقًا، تحسبًا لأي احتمال! آه، وهناك شرط أخير: سوف تكتب باسم مستعار. وهذا لمصلحتك قبل أي شيء.

- ماذا؟

كان "فيكتور" كمن يُحدِّث نفسه.

- اختر الاسم الذي يريحك. ولكني أقترح عليك أن تستخدم عبارة "مجموعة الأصدقاء" في الوقت الحالي إن لم تستطع إيجاد اسم.

أومأ "فيكتور" برأسه في شرود.

4

شَرِبَ الشاي،
كان ذلك قبل أن يدخل في الفراش، وقبل أن يطرد عنه أي أفكار تتعلق بالموت. مزاجه كان جيدًا؛ مزاج فودكا وليس شايًا. ولكنه لم يكن لديه أي فودكا.

يا له من عرض! ورغم أنه لم يفهم بعد تفاصيل عمله، فإنه يشعر أنه مُقبِل على شيء جديد غير عادي. سمع "ميشا" البِطريق يجوب الردهة المعتمة، ويرتطم كل مرة بباب المطبخ المغلق. غالب "فيكتور" إحساس بالذنب في النهاية، فسمح له بالدخول. توقف "ميشا" عند الترابيزة، ووقف على أطراف قدميه التي لا يتعدى طولها مترًا في فضول لأن يعرف ما هو فوقها. نظر إلى كوب الشاي، ثم نظر إلى "فيكتور" في عشم. رأى "فيكتور" أن يكافئه، فراح إلى الحمام وفتح حنفية الماء البارد في البانيو. أسرع "ميشا" إلى حيث يأتيه صوت الماء المتدفق، ولم ينتظر حتى امتلاء البانيو، بل انقلب في داخله على الفور.

في الصباح التالي، ذهب "فيكتور" إلى جريدة "كابيتال نيوز" كي يأخذ بنصائح رئيس التحرير العملية.

سأله:

- كيف نختار الشخصيات التي نكتب عنها؟

- هذا أسهل شيء! انظر عمن تتحدث الجرائد واختر من بينهم. وكما تعلم، ليس كل مشاهير بلدنا تتحدث عنهم الجرائد. الكثير منهم يفضل أن يبقى وراء الستار..

في ذلك المساء، اشترى "فيكتور" كل الجرائد، وذهب إلى المنزل، وجلس إلى ترابيزة المطبخ. بمجرد أن فتح الجرائد، أخذ يبحث بتمعن عن أسماء المشاهير وكبار الشخصيات، ودوّنها في مفكرته من أجل وظيفته. يبدو أنه سيكتب الكثير والكثير، فلقد استخرج أكثر من ستين اسمًا بعد مطالعة بعض الجرائد فقط!

نشَّط ذهنه بكوب من الشاي، وركز هذه المرة على من سيكتب عنه أول نعي. وعزم على أن تكون القطعة مفعمة بالحيوية والأحاسيس في الوقت نفسه لدرجة أن تدمع لقراءتها عين أي قارئ، حتى ولو كان شخصًا بسيطًا لم يسمع بذلك الرجل من قبل. وفي الصباح التالي، كان "فيكتور" قد اختار شخصيته الأولى لينعيها. تتبقى فقط موافقة رئيس التحرير.

5

التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي،
كان قد نال موافقة رئيس التحرير، وشرب القهوة، وتسلَّم بطاقته الصحفية، وراح يشتري زجاجة فودكا "فينلانديا" من كشك قريب، قبل أن يقصد مكتب شخصٍ كان في السابق مؤلفًا، قبل أن يصبح نائب مجلس "الدوما"؛ إنه "ألكسندر ياكورنيتسكي".

كان نائب مجلس "الدوما" سعيدًا بما أخبرته السكرتيرة أن هناك مراسلًا من جريدة "كابيتال نيوز" يرغب في رؤيته، وبادرها بطلب إلغاء كل ما تبقى لديه من مواعيد، وأكد لها ألا تُدخِل عليهما أحدًا.

كان "فيكتور" موضع ترحيب، فبعد أن جلسا بمفردهما، قام بوضع زجاجة الفودكا الفنلندية فوق الترابيزة إلى جوار جهاز التسجيل، بينما أحضر نائب مجلس "الدوما" كأسين، ووضعهما بعناية فوق الترابيزة بجانب زجاجة الفودكا.

تحدَّث على راحته، حتى دون انتظار الأسئلة – عن عمله، وطفولته، ودراسته الجامعية ووقت أن كان مسؤولًا بمنظمة "الكومسومول" في الجامعة. وعندما فرغت الزجاجة، بدأ يحكي عن رحلاته إلى "تشيرنوبل"، وكيف أن لتلك الرحلات فضلًا في زيادة فحولته – ويمكن لزوجته المعلمة في مدرسة خاصة، أو عشيقته مغنية الأوبرا الوطنية، أن تشهدا له بذلك إن كان هناك أي شك فيم يقول.

وفي نهاية اللقاء، ودَّعه الرجل بالأحضان. وغادره "فيكتور" وقد تولد لديه يقين أنه سيكتب نعيًا مهمًّا – وربما متكلفًا - عن رجل دولة عظيم، نائب برلمان ومؤلف. ولكن هذا هو كل شيء! فما دام "الفقيد" على قيد الحياة، فلا بد أن يبقى النعي في الحفظ، إلى حين، ولا نقدر البلاء قبل وقوعه!

عاد "فيكتور" إلى شقته، وكتب النعي، وأخذ ينعى نائب البرلمان بكلمات صادقة دافئة ملأت صفحتين. لم يحتج إلى الرجوع إلى التسجيل، لأنه كان لا يزال يتذكر ما قاله.

علّق "إيجور ليفوفيتش" في الصباح التالي، بعد أن قرأ النعي:

- رائع! بشرط أن يغلق زوج المغنية هذا فمه ولا يثرثر...

قرأ النعي:

"ربما ترثيه العديد من النساء اليوم، ولكننا نتقدم بأحر التعازي إلى زوجته؛ وإلى سيدة أخرى طالما رددت قبة الأوبرا الوطنية أصداء صوتها العذب...".

ثم علق قائلًا:

- جميل! استمر على ذلك! واستمر في هذا العمل الجيد!

بادره "فيكتور"، وقد ازداد جرأة:

- "إيجور ليفوفيتش"... أنا بحاجة إلى مزيد من المعلومات، ومقابلة الكثير من الشخصيات أمر يستلزم وقتًا. أليس لدينا أرشيف لهم؟

ابتسم رئيس التحرير، وهو يقول:

- طبعًا. كنت سأقترح عليك ذلك – هناك في قسم الحوادث. سوف أخبر "فيودور" بأن يعطيك الإذن لتصفُّح الأرشيف.

6

هيَّأ نفسه للمهمة.
انتظمت حياة "فيكتور" بذلك الوضع الجديد بالتدريج. وتحلَّى بالجرأة... كما أنه وجد أن "فيودور" مسؤول قسم الحوادث نجدة من السماء، فقد أتاح له الأرشيف كاملًا، وتطوع بتعريفه بالكثير من قصص الفضائح وحكايات الغرام في مجتمعات الكبار. ومن خلالها، تمكن "فيكتور" من الوصول إلى تلك البيانات والمعلومات الإضافية التي يبحث عنها؛ فهي عنده مثلها مثل البهارات الهندية الأصيلة، التي تُحوِّل أي نعي حزين تعس إلى قصة خبرية جذابة يسيل لها لعاب القارئ. وصار يمد رئيس التحرير بقطع جديدة على نحو منتظم.

صارت الحياة حلوة. وعرفت جيوبه دفء المال - لم يكن بالكثير - ولكنه كان يكفي متطلباته البسيطة ويزيد. ولكنه تضايق من كونه يكتب باسم مستعار، حتى ولو كان ما يكتبه هو نعي لمشاهير. لقد كتب حتى الآن أكثر من مئة نعي لمئة شخص من علية القوم، ولكن لم يمت منهم أحد، ولم يمرض منهم أحد. على أن تلك الأفكار التي تعمل في عقله لم تكن لتؤثر على إيقاع عمله.
واستمر في تصفح الجرائد، واختيار الأسماء، والاحتيال للتعرف إلى كل شيء يتعلق بها. كان يريح عقله بفكرة أنه يبذل كل هذا الجهد حتى يعرف أهل بلده حقيقة كبارهم.

وذات أمسية ممطرة من أمسيات نوفمبر، بينما كان "ميشا" البِطريق يأخذ حمَّامه المُثلَّج، و"فيكتور" يفكر في كلمات نعيه الجديد، رن جرس التليفون. أتاه صوت رجل كالفحيح:

- طلب مني "إيجور إلفوفيتش" الاتصال بك. هناك أمر أود أن أعرفه منك.

عندما سمع اسم رئيس التحرير، بادر "فيكتور" بإبداء سعادته لتقديم أي مساعدة، وبعد نصف الساعة كان يستقبل رجلًا أنيقًا، عمره في حدود الخامسة والأربعين. أحضر الرجل معه زجاجة ويسكي، وجلسا إلى ترابيزة المطبخ.

- اسمي "ميشا".

بدا حرج بالغ على وجه "فيكتور"، وبادر بالشرح:

- معذرة... ولكن هذا هو اسم بِطريقي أيضًا. - لدي صديق قديم يعاني مرضًا خطيرًا. عمره في عمري نفسه. صديق لي منذ الطفولة. اسمه "سيرجي شيكالين". وأود منك أن تكتب له نعيًا... فهلَّا فعلت؟ - بالطبع. ولكني بحاجة إلى بعض المعلومات، ويُفضَّل أن تكون شخصية. - لا مشكلة. أنا أعرف عنه كل شيء، ويمكنني أن أحكي لك ما تشاء. - تفضل. - هو ابن لميكانيكي ومديرة حضانة. حلم وهو صغير بامتلاك موتوسيكل، وعندما ترك المدرسة، اشترى لنفسه واحدة موديل "مينسك"، بعد أن سرق جزءًا من ثمنها... وهو يخجل كثيرًا من ماضيه الآن. وكذلك والداه. نحن زميلان. سري هو سره. وأنا أجيدُ كتمان السر، ولكنه لا يجيد ذلك. انفصلت زوجته عنه مؤخرًا. وهو وحيد من يومها. لم يفكر حتى في أن تكون له عشيقة. - ما اسم زوجته؟ - "لينا"... الحقيقة إنه يمر بمرحلة صعبة وبالأخص صحته التي هي في وضع بائس للغاية. - من ناحية؟ - يبدو أنه يعاني سرطان المعدة، وبروستاتا مزمنة. - ماذا كانت أقصى أمانيه في الحياة؟ - شيء لم يعد بمقدوره امتلاكه الآن: "لينكولن" فضية.

بتأثير هذا الكوكتيل من الكلمات المتدفقة والويسكي، بدا وكأن "سيرجي شيكالين" – الفاشل، الذي هجرته زوجته، المريض، الوحيد، الحالم بالمستحيل في صورة سيارة "لينكولن" فضية - حاضرًا بشحمه ولحمه معهما، عند ترابيزة المطبخ.

سأله "ميشا":

- متى أحضرُ لاستلامها؟ - في الغد، لو أحببت.

غادر الرجل المنزل. وعندما سمع "فيكتور" صوت محرك السيارة، ألقى نظرة من النافذة، فرأى سيارة فاخرة تبتعد... كانت فضية اللون... موديل "لينكولن".

أطعم "فيكتور" "ميشا" بعض السمك الطازج المجمد، وملأ البانيو ثانيةً، قبل أن يعود إلى المطبخ ليشتغل على كتابة ذلك النعي. يسمع عبر النافذة الصغيرة الواصلة بين الحمام والمطبخ أصوات مرح البِطريق في الماء، فابتسم وهو يكتب النعي، وهو يفكر في عِشق بِطريقِه للماء النظيف البارد.

7

إنه الخريف.
الفصل الذي تحتضر فيه الطبيعة، وموسم الكآبة، والحنين إلى الماضي، وأنسب أيام الكتابة عن الأموات. هو يعرف أن الشتاء أشد بهجة له؛ الجليد اللامع، ورقائق الثلج التي تتألق تحت أشعة الشمس. ولكن لا تزال هناك بضعة أسابيع قبل أن يحلَّ الشتاء، وسوف يستغلها في كتابة مخزون من النعي يكفيه طوال العام المقبل. أمامه الكثير ليقوم به.

عندما عاد إليه "ميشا" – الإنسان وليس البِطريق - كانت السماء تمطر مجددًا. قرأ نعيه، وبدت على الرجل السعادة به، وأخرج محفظته:

- كم تريد؟

تحيَّر "فيكتور"، فهو قد اعتاد تلقي الراتب الشهري.

- اسمع... العمل الجيد يستحق أجرًا جيدًا.

أومأ "فيكتور" برأسه موافقًا.

فكر "ميشا" لثوانٍ:

- لنفرض أنك تستحق ما تتلقاه أغلى عاهرة... ما رأيك في 500 دولار؟

أعجبه المبلغ، ولم تعجبه المقارنة، ولكنه أومأ برأسه في قبول. وتسلم خمس ورقات فئة مئة دولار.

- بوسعي أن أرسل إليك المزيد من الزبائن، إذا أحببت.

بدت اللهفة على "فيكتور".

غادره "ميشا" – الإنسان وليس البِطريق - وكان الصباح التالي ضبابيًّا، ممطرًا. انفتح الباب، ووجد أمامه "ميشا" البِطريق. وقف البِطريق لحظات، قبل أن يقترب ويداعب ركبة سيده. شعر "فيكتور" بحنان تجاه حيوانه الأليف، وهو يداعبه في رضا.

8

نوم خفيف.
تخللته فترات أرق، سمع خلالها "ميشا" - الذي لا ينام - وهو يجوب أرجاء الشقة، فيفتح الأبواب، ويتوقف بين دقيقة وأخرى ليتنهد تنهيدة عميقة، مثل إنسان عجوز تَعِبَ من نفسه ومن الحياة.

في الصباح التالي، اتصل به "إيجور إلفوفيتش" وطلب منه الحضور.

ناقشا أثناء شرب القهوة فهرس صفحة الوفيات. كان رئيس التحرير سعيدًا في المجمل.

- نقطة الضعف الوحيدة هي أن جميع الوفيات المحتملة التي كتبنا عنها من مدينة "كييف" فقط. طبيعي أن العاصمة هي التي تحتوي على كل المشاهير، ولكن لا تنسَ أن للمدن الأخرى نصيبًا منها.

أنصت "فيكتور" إليه، وهو يومئ برأسه بين حين وآخر.

- مراسلونا منتشرون في كل مكان، يجمعون المعلومات الضرورية. المسألة مسألة تجميع معلومات. ولا يمكننا أن نعتمد في إرسالها على البريد أو الفاكس. لذلك أود منك أن تقوم بهذه المهمة بنفسك.

- أي مهمة؟

- أن تسافر إلى مدينة أو مدينتين لتجمع المعلومات. يمكنك أن تبدأ في مدينة "خاركيف"، ثم تنتقل منها إلى "أوديسا". ونحن من نتحمل التكاليف طبعًا...

- يسعدني ذلك.

عندما خرج إلى الشارع كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا. فجلس في مقهى في الطريق إلى منزله طلبًا لبعض الدفء، وشرب كأس "كونياك"، أتبعه بكوب قهوة كبيرة.

كان المقهى خاويًا هادئًا، جو مناسب لأحلام اليقظة واسترجاع الماضي.

أخذ رشفة "كونياك"، وانتعش أنفه برائحتها، خاصة وأنها من نوع جيد.

استغرق في جو رومانسي، زادته أجواء المقهى رومانسية، وأحلام الماضي والمستقبل، وكأس "الكونياك" وكوب القهوة. لم يعد يشعر بالوحدة أو التعاسة. استشعر سلام النفس الداخلي لأول مرة. كأس "الكونياك" كانت كافية لأن يتسلل الدفء إليه في اتجاهين متعاكسين؛ أعلى إلى رأسه، وأسفل إلى ساقيه، مع تباطؤ إيقاع أفكاره المتدفقة.

حلم ذات يوم بأن يكتب الرواية، ولكنه لم ينجح حتى في كتابة الرواية القصيرة، على الرغم من العديد من المشروعات التي شرع فيها ولكنه لم ينتهِ منها، وبقيت حبيسة الأدراج. مصيرها أن تبقى غير مكتملة، كما أن بنات أفكاره تستعصي عليه، ولا تثبت في رأسه سوى فترة تكفي بصعوبة لكتابة قصة قصيرة. هذا هو سبب فشله الأدبي. إن بنات أفكاره هشة، قصيرة الأجل. أو أنه عقم عن إنجاب بنات أفكار قوية بوسعه أن يعتمد عليها في كتابة عمل أدبي كبير. وها هو ذا الآن، وحيد مع البِطريق، لا يكتب سوى قطعًا شبه أدبية قصيرة، ولكنه ينال عنها أموالًا محترمة.

شعر بالدفء، فغادر المقهى. الرذاذ مستمر. واليوم لا يزال كما هو... ضبابيًّا، مبللًا.

قبل أن يعود إلى شقته، مر على محل ليشتري كيلو من السلمون المجمد... لأجل "ميشا".

9

مشكلة.
أين سيُترك "ميشا" قبل السفر إلى "خاركيف". من الممكن أن يتركه "فيكتور" بمفرده لثلاثة أيام، ولن يحدث له مكروه، لكنه لم يرتح إلى ذلك. ليس لديه أصدقاء إلى الدرجة التي تدفعه إلى أن يطلب من أحدهم رعاية البِطريق إلى حين عودته. اقترب من النافذة وعقله مستغرق في البحث عن حَلٍّ.

رذاذ المطر مستمر. وعند مدخل العمارة، رأى أحد رجال الميليشيات وهو يثرثر مع سيدة عجوز من السكان. تذكر تلك النكتة عن البِطريق والعسكري، فابتسم، ثم اتجه إلى التليفون الموجود بجوار الفراش، وبحث عن رقم رجل الميليشيات المسؤول عن الحي. أتاه صوت صارم من الطرف الآخر:

- ملازم "فيشبين".

قال "فيكتور" بنبرة تردد:

- آسف على إزعاجك. هناك طلب لي... بصفتي من سكان الحي...

- هل هناك مشكلة؟

- كلا. وأرجوك ألا تظن أنني أمزح. الحقيقة أنني مضطر للسفر لثلاثة أيام لداعي العمل، وليس لدي من أحد أترك لديه البِطريق الذي أرعاه.

أجابه الضابط بصوت ثابت، هادئ:

- معذرة، ولكني أعيش مع أمي في أحد الفنادق، وليس لدي مكان لكي...

- لقد فهمتني خطأ. طلبي هو أن تتكرم بالمرور على شقتي مرة أو مرتين لإطعامه... يمكنني أن أترك لك المفاتيح.

- يمكنني ذلك. اترك لي الاسم والعنوان، وسوف أمر على الشقة. هل ستكون موجودًا عند حوالي الثالثة؟

- أكيد.

شعر بارتياح كبير بعد هذه المكالمة.

منذ عام فحسب، كانت "أوليا"، الشقراء ضئيلة الجسد، تجلس إلى جواره، بتقاسيم وجهها المنمنمة الجميلة، وتعبيرات وجهها المتحفزة. أحيانًا ما كانت تريح رأسها على كتفه وتنام، وتستغرق في أحلام ليس له فيها مكان. هي تسمح له بالوجود في واقعها فحسب. وحتى في ذلك الواقع، لم يكن يشعر بأهميته لديها. كانت دومًا صامتة، مستغرقة في التفكير. فما الذي تغير منذ أن رحلت عنه؟ ها هو "ميشا" البِطريق يقف إلى جواره. صامتًا، ولكن هل هو مستغرق في التفكير؟ وما الذي يعنيه الاستغراق في التفكير أصلًا؟ ربما هي مجرد عبارة مجازية لوصف تعبيرات وجه إنسان؟

مال نحو البِطريق، محاولًا أن يجد في عينيه أي استغراق في التفكير، ولكنه لم يجد فيهما سوى الحزن. وصل الضابط عند الساعة الثالثة إلا الربع، وخلع حذاءه الثقيل في الداخل. لا علاقة لمظهره بمعنى اسمه. فقد كان عريض المنكبين، ناعم الشعر، أزرق العينين، وأطول من "فيكتور" بوضوح. لو لم يكن من رجال الميليشيات، لصار نجمًا بالتأكيد في أي فريق للكرة الطائرة.

- حسنًا، أين هو؟

نادى "فيكتور" البِطريق، الذي خرج من مكانه وراء الأريكة زيتونية اللون، وأخَذَ يحدق إلى الضابط.

- هذا هو "ميشا"... معذرة هل يمكنني أن أعرف اسمك؟

- "سيرجي".

- غريب. أنت لا تبدو لي يهوديًّا على الإطلاق.

ابتسم الضابط قائلًا:

- أنا لست يهوديًّا. اسمي الحقيقي هو "ستيبانينكو".

هز "فيكتور" كتفاه في استغراب، وهو يعود لينظر إلى البِطريق.

- "ميشا"... أعرفك بـ"سيرجي". سيتولى إطعامك في فترة غيابي.

عرَّف "سيرجي" بما تحتوي عليه الشقة، وأعطاه المفتاح الاحتياطي. قال له الضابط وهو يغادر:

- سيكون كل شيء على ما يرام. لا تقلق.

10

صقيع "خاركيف".
ما إن خرج "فيكتور" من القطار، حتى أدرك أنه لم يستعد بملابس ثقيلة كافية لكي يتجوَّل في أنحاء المدينة. وعندما ذهب إلى الفندق، "ذا خاركيف"، اتصل بمراسل "كابيتال نيوز"، واتفقا على اللقاء مساءً في مقهى خلف الأوبرا.

عندما حَلَّ المساء، خرج وتمشَّى على قدميه عبر شارع "سومي"، وصولًا إلى الأوبرا، وقد غطى الثلج الخفيف ما هو ظاهر من وجهه، بينما لم يعد يشعر بيديه في جيبي معطف الفراء القصير الذي يرتديه.

العمارات تبدو رمادية مظلمة على الجانبين. الكل في عجلة من أمره، كما لو أنهم يخشون أن يتأخروا فيجدوا مساكنهم تنهار أو شرفاتها تتساقط. وهي على العموم احتمالات لم تعد بعيدة في هذه الأيام.

أمامه خمس دقائق قبل أن يصل إلى حيث البارات والمحال والمقاهي خلف الأوبرا. وهناك عليه أن يبحث عن المقهى ذي الطابقين، وأن يجلس في الطابق العلوي، في المكان الذي يطل على الخارج. وأن يطلب عصير برتقال وعلبة بيرة، وألا يفتح علبة البيرة.

وعلى الرغم من أن الموعد الذي اتفقا عليه لم يحن بعد، فهو ما بين السادسة والنصف والسابعة، فقد كان يسير بخطوات سريعة، ربما بسبب وطأة الصقيع.

قرر أن يأكل شيئًا ما إن يصل... طبق لحم ساخنٍ.

عند الأوبرا، ارتاح لرؤية تلك المنطقة المفعمة بالحياة نسبيًّا، في هذه المدينة.

وجد عند السلالم التي تقوده لأعلى شحاذين؛ امرأة عجوزًا، وشابًّا سكيرًا ليس لوجهه معالم واضحة.

مشى في الممرات المضاءة إلى المقهى. يجلس من وراء الباب الزجاجي رجل يرتدي زي ميليشيات المهمات الخاصة، رفع رأسه عن كتاب يقرؤه لحظة دخول "فيكتور". بادره بنبرة شبه عسكرية:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لآكل.

سمح له الرجل بالعبور.

مشى عبر بارٍ على وجوه رواده أمارات الإجرام. ابتسم له "البارمان" الأصلع في خبث، وكأنه يقول له... لا تتوقف، ولا تنظر خلفك!

سار في اتجاه الأضواء القوية. تسارعت خطواته، ليصل إلى مقهى له طابقان، وتتخذ ترابيزاته عند المدخل شكل نصف الدائرة؛ ولا يعلو الطابق عن الطابق أسفله إلا نصف المتر.

عند البار، طلب عصير برتقال وعلبة بيرة. فسألته الشقراء البدينة الواقفة إلى البار:

- أهذا كل شيء؟

- هل تقدمون وجبات لحوم؟

أجابته بصوت رتيب:

- لدينا فيليه السمك، والبيض المقلي.. و...

- لا أريد إذًا.

دفع ثمن ما طلب، وقصد ترابيزة في الطابق العلوي تُواجِه المدخل. أخذ رشفة من عصير البرتقال، فازداد جوعه. رأى أن الأفضل أن يتناول الطعام في الفندق، حيث إن به مطعمًا. رمق ساعته... 6:20.

الأجواء هادئة، ويجلس إلى الترابيزة المجاورة اثنان من "أذربيجان" يشربان البيرة في صمت. أخذ ينظر حوله، ولكن ومضة فلاش كاميرا أعمت عينيه لحظاتٍ، وعندما عاد إليه بصره، رأى رجلًا يحمل كاميرا وفي طريقه للخروج من المكان. وعندما التفت ليرى من كان يصوره لم يجد أي أحد. لم يكن هناك سواه والأذريان. هكذا قال لنفسه وهو يشرب البرتقال إنه كان يصور الأذريين.

مر الوقت. وانتهى من العصير. وبدأ يحدق في علبة البيرة المغلقة، وفكر أن يطلب علبة غيرها ليشربها.

اقتربت فتاة من ترابيزته؛ ترتدي الجينز وجاكت جلديًّا. تربط رأسها بوشاح شبابي، ومن ورائه يتدلى شعرها الكستنائي على هيئة ذيل حصان.

وجدها تجلس إلى الترابيزة، وتغمز له مبتسمة:

- تنتظرني؟

شعر بالحرج. أول ما خطر بباله هو أن المراسل الذي ينتظره رجل، ولكنه ربما يكون قد أرسلها بدلًا منه...

نظر ليرى إن كانت معها حقيبة من النوع الذي اعتاد المراسلون حمله، ولكنه لم يجد سوى حقيبة يد نسائية صغيرة، لا تكاد تكفي لاحتواء زجاجة بيرة.

بادرته، وكأنها تذكِّره بوجودها:

- أنت، يا حلو، ما رأيك؟ أم أن لا وقت لديك؟

آه... هكذا إذًا.

- آسف، ولكن يبدو أن هناك سوء تفاهم.

قالت له في دلال، وهي تنهض عن الترابيزة:

- أنا في الغالب لا أسيء الفهم. ولكن دائمًا ما تكون هناك أول مرة.

تنهد في ارتياح عندما صار وحده من جديد، رمق علبة البيرة المغلقة، ثم رمق ساعته... 7:15. كان من اللازم أن يصل الآن.

لكن المراسل لم يظهر. وعند السابعة والنصف، شرب "فيكتور" علبة البيرة، وانصرف. تناول الطعام في الفندق، وعاد إلى غرفته، واتصل بالمراسل، ولكنه

لم يجد ردًّا. أغلق الخط.

كان دفء الغرفة يُشجِّع على الاسترخاء والنوم. غلبه النعاس. استسلم للنوم، على أمل أن يحاول مجددًا في الغد. وسرعان ما راح في نوم عميق.

11

رذاذ المطر.
نعود مجددًا إلى "كييف". حيث دخل ضابط الحي "سيرجي فيشبين ستيبانينكو" إلى شقة "فيكتور". خلع حذاءه الثقيل، وأكمل طريقه إلى المطبخ بجوربيه الميري، وأخرج سمكة سلمون كبيرة مجمدة من الفريزر، وقسمها نصفين على ركبته، ليضع نصفها في طبق "ميشا"، الموضوع أسفل الترابيزة. وناداه:

- "ميشا"!

لم ينتظر ردًّا، وبحث عنه في غرفة المعيشة، ثم في غرفة النوم، وهناك وجده واقفًا بجوار الحائط. ملامحه تنمُّ على أنه إمَّا نعسان أو أنه حزين. شجعه على أن يقترب:

- هيا! تعالَ!

ولكن "ميشا" بقي يحدق فيه.

- تعالَ! سيعود سيدك عما قريب! أنت تفتقده بالطبع، لقد اشتقت إليه! ولكن، تعال!

ببطء وحذر، قرر البِطريق أن يتبع "سيرجي" إلى المطبخ. قاده "سيرجي" إلى حيث الطبق، وراقبه وهو يبدأ في الأكل، قبل أن ينسحب، وقد أرضى ضميره،

إلى الردهة، حيث ارتدى الحذاء والمعطف، وخرج إلى مطر "كييف" الخفيف.
قال لنفسه إن السماء أرادت أن يكون هذا اليوم الضبابي دون أحداث طارئة.

12

طلقات رصاص.
استيقظ "فيكتور" على صوتها في الصباح التالي. تثاءب، وخرج من الفراش، وهو ينظر إلى ساعته: الثامنة صباحًا. راح إلى الشباك. وجد سيارة جيب تابعة لإحدى الميليشيات في الأسفل، وكذلك سيارة إسعاف.

نظر إلى السماء، فوجدها زرقاء، ومن خلف عمارة رمادية مبنية على الطراز الستاليني، لمح الشمس، صفراء شاحبة، ولكنها تبشر بطقس صافٍ.

جلس إلى جوار التليفون، واتصل برقم المراسل. أتاه صوت أنثوي:

- من تريد؟

- "نيكولاي ألكسندروفيتش" موجود؟

- من المتصل؟

استشعر توترًا في صوتها.

- أنا من صحيفته... "كابيتال نيوز"...

- أهذا أنت؟

شعر بأن شيئًا ليس على ما يرام. وضع السماعة بسرعة، بيد ترتجف.

قهوة... يجب أن يتناول القهوة. هكذا ارتدى ملابسه، وغسل وجهه سريعًا بالماء البارد، وهبط إلى بار الفندق، حيث طلب قهوة دوبل. أجابه "البارمان":

- تفضل اجلس، وسوف أحضرها لك.

جلس إلى أريكة عريضة ناعمة أمامها ترابيزة قهوة زجاجية السطح، عند ركن البار. انشغل بمداعبة مطفأة السجائر الزجاجية وهو شارد الذهن. كان البار هادئًا. أتاه "البارمان" بالقهوة.

- أتأمرني بأي شيء آخر؟

هز رأسه نافيًا، ثم عاد ينظر للـ"بارمان" قائلًا:

- ما حكاية طلقات الرصاص في هذا الصباح؟

هز "البارمان" كتفيه في لا مبالاة:

- أحدهم قتلَ عاهرة من عاهرات الدولار... لا بد أنها داست له على طرف.

كانت القهوة مرة، ولكن مفعولها قوي. لم تعد أصابعه ترتجف، وصار الصداع في رأسه أخف. استعاد رباطة جأشه.

إنها ليست نهاية العالم، هكذا طمأن نفسه، وحاول أن يبعد عنها كل الشكوك. تلك هي الحياة. وكالمعتاد، كل ما عليه هو أن يتصل برئيس التحرير ويستشيره عمَّا يجب عليه فعله.

انتهى من قهوته، ودفع ثمنها، ثم صعد إلى غرفته، واتصل بـ"كييف". أتاه صوت رئيس التحرير، هادئًا:

- تذكرة العودة محجوزة لليوم. لذلك عليك أن تعود. استمر في عملك في العاصمة. أما الأقاليم فلا تلقِ لها بالًا لبعض الوقت.

هكذا استقلَّ قطار الليل، وانشغل بمطالعة جريدة "إيفننج كاراكوف" التي اشتراها في المحطة. وصل إلى صفحة الحوادث، وتحت عنوان فرعي عن جرائم القتل التي وقعت، قرأ:

"لقي "نيكولاي أجنيفستيف"، مراسل جريدة "كابيتال نيوز"، مصرعه بعد أن أطلق أحدهم النار عليه ظهيرة الأمس وهو في شقته".

شعر بالغثيان، وهو يضع الجريدة على ركبتيه. ارتجَّ القطار فجأة، فانزلقت الجريدة إلى الأرض.

13

التقى الضابط.
على سُلَّم العمارة، وهو في طريقه إلى شقته في الصباح التالي. بادَره "سيرجي فيشبين ستيبانينكو" بابتهاج:

- يومك سعيد! مع أنك تبدو شاحبًا بعض الشيء.

سأله "فيكتور" في قلق:

- كيف حاله؟

- ممتاز! ولكنه اشتاق إليك بالطبع. كما أن السمك نفد من الفريزر.

- جزيل الشكر لك.

حاول أن يرسم على وجهه ابتسامة شكرٍ، ولكنها ظهرت عابسة مريضة. فقال للضابط:

- أنا مدين لك. ما رأيك أن نشرب معًا في أي وقت يناسبك؟

- لن أرفض طلبًا كهذا. كل ما عليك هو أن تتصل بي، ومعك رقمي. لو احتجتني ثانيةً، فلا تتردد! أنا أحب الحيوانات. أقصد الحيوانات الحقيقية، وليست تلك التي أضطر للتعامل معها كل يوم...

ابتهج "ميشا"، الذي كان يقف في الردهة، عندما رأى "فيكتور" يدخل ويضيء النور. جلس "فيكتور" القرفصاء أمامه وهو ينظر إليه:

- أهلًا... صديقي العزيز.

بدا له أن البِطريق يبتسم.

رأى، وهو يقترب منه، السعادة في عينيه. على الأقل هناك مخلوق في هذا العالم يسعد لرؤيته، هكذا فكَّر "فيكتور" في نفسه.

وقَفَ، وخلع الجاكيت، وتوجَّه إلى غرفة المعيشة، يتبعه "ميشا" بخطواته المعتادة.

14

صداع.
ظَلَّ "فيكتور" في سريره صباح اليوم التالي، دون رغبة في مفارقة السرير.

الساعة التاسعة والنصف.

عندما غيَّر وضعيته في السرير إلى الناحية الأخرى، انتبه إلى وقوف "ميشا" إلى جوار السرير. تمتم وهو ينهض سريعًا:

- يا إلهي! لقد نسيت أن أطعمه بالأمس!

وعلى الرغم من صداع رأسه، والألم الذي يشعر به في عظام وجهه، فقد اغتسل وارتدى ملابسه.

صدمه الهواء شديد البرودة. يبدو أن شتاء "خاركيف" قد تبعه حتى هنا.

عليه أن يتصل برئيس التحرير، ويخبره أنه متعب.. ويشتري الصحف، وربما القيام ببعض العمل..

وقف عند كاونتر السمك في متجر البقالة، واشترى كيلوجرامين من السمك المجمد، ثم تردد لحظات قبل أن يشتري كيلوجرامًا من السمك الطازج.

عاد إلى الشقة، وملأ البانيو بالماء البارد، ورمى فيه ثلاث سمكات، ونادى "ميشا". نظر البِطريق إلى الأسماك في الماء، قبل أن يستدير، ويعود إلى غرفته. هز "فيكتور" كتفيه في حيرة.

رن جرس الباب.

نظر عبر العين السحرية، فوجد أمامه "ميشا" الإنسان. فتح الباب، فبادره "ميشا":

- أهلًا.. لديَّ طلبان اليوم. نعيان. هل أنت بخير؟

أشار "فيكتور" بيده إشارة مبهمة.

دخلا المطبخ، في اللحظة نفسها التي اقترب فيها البِطريق. ابتسم له الضيف:

- أهلًا.. أتعرف أن اسمك هو اسمي؟

ثم التفت إلى "فيكتور"، قائلًا:

- لماذا أنت شاحب الوجه؟

- أجل. كل شيء يـ..

شعر برغبة في البكاء، ولكن شيئًا ما في داخله منعه عن ذلك بقوة. فقال بنبرة غضب:

- هأنذا، أكتب وأكتب، ولكن لا أحد يرى ما أكتبه.

ثم أردف بنبرة تستجدي العطف:

- كتبت حتى الآن مئتي صفحة. بلا هدف.

- ما الذي تعنيه بـ"لا هدف"؟ أنت مثلك مثل كثيرين في أيام السوفييت، تكتب لأجل المال، كما يقولون. الفارق هو أنك، عاجلًا أم آجلًا، ستعرف طريق النشر.. أضمن لك هذا.

أطرق "فيكتور" برأسه، من دون ابتسامة أو ارتياح. سأله "ميشا" الإنسان:

- في رأيك، ما أفضل قطعة كتبتها؟

- "ياكورنيتسكي".

تذكر "فيكتور" حديثهما المستفيض ليلتها، وهما يشربان زجاجة الويسكي الفنلندي.

- النائب والمؤلف؟

- هو بعينه.

- معك حق. ها هي المعلومات عن الشخصين اللذين ستكتب عنهما. انظر.

ألقى "فيكتور" نظرة على الأوراق. أسماء لا يعرفها، وبيانات سيرة ذاتية، وتواريخ. نحاها جانبًا، وهو يشكر الرجل. دون أن يجد في نفسه رغبة في قراءة تلك الأوراق حينها.

ناوله "ميشا" الإنسان بطاقته:

- اتصل بي عندما تكون جاهزًا.

15

أثلجت السماء.
كانت هذه هي أول مرة هذا الشتاء. كان "فيكتور" يقرأ، مع فنجان القهوة، تلك الأوراق التي أحضرها له "ميشا" الإنسان منذ يومين. تتعلق بنائب رئيس الخدمات الضريبية ومديرة مؤسسة "كاربيثيانز". وجد أن حياتهما صاخبة لدرجة تكفي لصياغة نعي استثنائي. بل إنه أمام شخصيتين تصلحان بكل تأكيد لتكونا أساسًا لرواية كلها إثارة وتشويق! ولكن كتابة الرواية تتطلب وقت فراغ كبير، وهو ما لم يعد "فيكتور" يمتلكه. صحيح أنه صار يمتلك الآن مالًا، والبِطريق "ميشا"، وثلاث سمكات في البانيو، ولكن هل يمكنه أن يعتبر ذلك تعويضًا كافيًا عن عدم كتابة رواية.

تذكَّر السمكات، فأخذ كسرة خبز، وراح للبانيو ليُغذِّيَها بالفتات.

كان يلقي بالفتات، حينما سمع أنفاسًا إلى جواره. التفت فوجد "ميشا" يحدق بكآبة شديدة في سمك البانيو. سأله:

- أنتم كائنات القطب الشمالي والمحيطات لا تلقون بالًا لأسماك المياه العذبة، أليس كذلك؟

ذهب إلى التليفون، واتصل بالضابط ليدعوه إلى عشاء من السمك.

الثلوج تنهمر في الخارج.

وضع الآلة الكاتبة فوق ترابيزة المطبخ، وانهمك في كتابة نعي المستقبل لكلتي الشخصيتين، بينما ما تزال المعلومات طازجة في ذهنه.

كان يكتب ببطء، ولكن بثقة، وكأن كل كلمة يطبعها ركيزة قوية كأحجار الهرم الأكبر.

وعلى غير إرادته، تقبَّل الفقيد حقيقة مقتل أخيه الأصغر، الذي كان على علاقة بمجموعة من المساهمين في مصنع غسالات لم يكن قد تم تأميمه بعد.

على أن النُّصب التذكاري الذي وضعه الفقيد المرتقب تكريمًا لذكرى أخيه صار من معالم المدافن. أحيانًا ما تفرض الحياة مسألة القتل، في حين أن وفاة أخ أو قريب تفرض على المرء أن يستمر في حياته مهما تكن المرارة.. إن رابط الدم يُوحِّد بين كل شيء في هذا العالم. وحياة الجميع هي كل واحد، ولهذا السبب، فإن وفاة جزء صغير من هذا الكل لا تؤثر على استمرار الحياة، حيث إن عدد أجزاء الحياة يفوق دومًا عدد الميتات..

حضر ضابط الحي "فيشبين ستيبانينكو" إلى العشاء مرتديًا الجينز وسويتر أسود أسفله قميص مقلم، ويحمل زجاجة كونياك وكيس أسماك مجمدة للبطريق.

لم يكن العشاء قد جهَّز بعد، لذلك تشاركا في قلي السمك الذي كان منذ ساعات حيًّا في البانيو.

كان "ميشا" في الحمام، يلهو ويمرح في الماء البارد. يسمع "فيكتور" و"سيرجي" صخبه أعلى من صخب المقلاة على النار، وينظر أحدهما إلى الآخر مع ابتسامة.

صارت الوجبة جاهزة أخيرًا.

شربا كأسي كونياك قبل تناول السمك. وقال "فيكتور"، وكأنه يعتذر لضيفه بالنيابة عن السمك:

- نحيفة نوعًا ما.

هز الضابط رأسه في اعتيادية:

- لا بأس. لكل شيء ثمنه.. فكلما كانت السمكة أنحف، كان طعمها أحلى. أتذكر أنني جربتُ ذات مرة لحم الحوت. كما تعلم هو من الأسماك أيضًا. على أي حال، لا طعم له على الإطلاق..

شربا الكونياك مع السمك، وهما يراقبان رقائق الثلج المتساقطة في الخارج على خلفية من ضوء خافت يصدر عن شبابيك الجيران. شعرا وكأنهما يتناولان عشاء ليلة بداية عام جديد. سأله "سيرجي"، وهو يستشعر بدايات صداقة جديدة، تنمو مع كل كأس كونياك.

- لماذا تعيش وحدك؟

- هكذا جرت الأمور. لا حظ لي مع النساء. ما إن أتعرف إلى امرأة، حتى تهجرني في اليوم التالي.. لا أمان معهن. ولكن حالي تغير للأفضل نوعًا ما، منذ أن تكفلت بـ"ميشا". ولكنني أجده منطويًا على نفسه أغلب الوقت لسبب ما.. ربما اقتناء كلب أفضل للإنسان.. الكلاب عاطفية أكثر، تنبح مرحبة بك، وتلعقك في ود، وتهز ذيلها..

- أتظن ذلك؟ ولكنك تحتاج إلى أن تخرج بها للتمشية مرتين في اليوم حتى تقضي حاجتها.. وتجعل رائحة المكان مزعجة.. أنا أجد البِطريق أفضل. ما مهنتك؟

- كاتب.

- تكتب للأطفال؟

- لماذا تصورت ذلك؟ كلا.. في جريدة.

- آه.. لا أهتم بالصحف أبدًا. هي من مسببات الإحباط.

- أنا معك في ذلك. أخبرني، واعذرني لتطفلي، من أين أتى لقب "فيشبين"؟

هنا، تنهد "سيرجي" بعمق:

- هذا بسبب مللي، ولأن لي خالة في مصلحة الوثائق. فكرت ذات يوم في اعتناق اليهودية؛ لأخرج من هنا. لذلك فعلت ما طلبته مني خالتي، قمت بمحضر سرقة بطاقة هويتي، وتمكنت هي من استخراج بطاقة جديدة باسم جديد. وعندما اكتشفت الوضع البائس في الخارج لمن هاجر من هنا، قررت أن أبقى، وحصلت على سلاح، والتحقت بميليشيا. إنها مهنة آمنة، في الحقيقة.

أعتني بالمشكلات في الحي، وأستمع إلى كل صاحب شكوى أحمق. وهي لم تكن مهنة الأحلام لي، طبعًا.

- وما المهنة التي كنت تحلم بها إذًا؟

في تلك اللحظة، انفتح الباب، وظهر "ميشا" البِطريق، والماء يتساقط عن جسده. وقف لحظاتٍ، قبل أن يتجه متجاوزًا الترابيزة إلى حيث طبقه، وهو ينظر في استفسار إلى سيده. فقد كان الطبق فارغًا.

نهض "فيكتور"، واتجه إلى الفريزر، وكسر إحدى السمكات المجمدة إلى ثلاث قطع، ووضعها في الطبق.

اقترب "ميشا" برأسه من السمك المجمد. صاح "سيرجي" بابتهاج:

- إنه يدفئها ليذيب الجليد! إنه يقوم بذلك فعلًا!

عاد "فيكتور" إلى كرسيه، وأخذ يراقبه بدوره. قال له "سيرجي" وهو يتناول كأسه:

- ها نحن ذا. كلنا نستحق سمكًا جيدًا، ولكننا نقنع بتناول الموجود.. في صحة الصداقة!

لامسا الكأسين، وشربا النخب. وشعر "فيكتور" براحة مفاجئة. تبدد كل السخط الذي كان يشعر به تجاه نفسه وتجاه الآخرين، نسيه، ونسي معه أمر نصوص النعي. شعر وكأنه لم يعمل من قبل في أي مكان، ولكنه حي، وكأنه يخطط لكتابة رواية يومًا ما. نظر إلى "سيرجي"، فوجد نفسه يبتسم. إنها الصداقة. إحساس لم يشعر به من قبل. مثله مثل البدلة ذات القطع الثلاث، أو العاطفة الحقيقية. حياته كانت مملة، لا معنى لها، ولا متعة فيها. حتى "ميشا"، اتضح أنه انطوائي، وكأنه هو الآخر يعيش حياة بلا ألوان، ولا أحاسيس، أو متعة، أو بهجة. فاجأه "سيرجي" قائلًا:

- ما رأيك في أن نتناول كأسًا أخرى، ثم نخرج لنتمشى.. ثلاثتنا.

كان الوقت متأخرًا، والأجواء هادئة. نام أطفال الحي منذ زمن، ومصابيح الشوارع مطفأة، وليس هناك سوى بصيص من الضوء من شبابيك منازل الحي، والثلج الذي ينهمر لأول مرة هذا العام.

هكذا تمشَّوا ببطء، حتى منطقة خالية فيها ثلاثة أبراج حراسة، وقد صارت وجنتا الرجلين محمرتين بسبب الجو المتجمد، والثلج يذوب أسفل أحذيتهم الثقيلة. صاح "سيرجي":

- انظرا!

وجدا أمامهما جسدًا يرتدي معطفًا رثًّا قابعًا في الثلج أسفل أحد الأبراج.

- إنه جارك "بوليكاربوف"، من الشقة رقم 30. وإذا لم يكن قد مات بالفعل وسط هذا الجليد، فعلينا أن نأخذه إلى أقرب مكان به مدفأة.

قبضا على ياقة معطفه، وسحبا "بوليكاربوف" السكران فوق الثلج إلى مبنى من خمسة طوابق، وتبعهم "ميشا".

عندما خرجا، وجدا "ميشا" يقف وجهًا لوجه أمام كلب ضال. أخذا يتشممان بعضهما البعض، قبل أن يفر الكلب خوفًا من صاحبي البِطريق.

16

جرس التليفون.
أيقظ "فيكتور" في الصباح التالي. رد بصوت مبحوح نعسان:

- آلو؟

- مُبارك، "فيكتور ألكسيفيتش"! حقيقي مُبارك! هل أيقظتك؟

ميَّز "فيكتور" صوت رئيس التحرير، فأجابه:

- إنه وقت استيقاظي على كل حال.. هل هناك مشكلة؟

- تم النشر لك اليوم! كيف حالك بالمناسبة؟

- أفضل.

- تعالَ إذًا، نريد أن نتحدث.

استفاق "فيكتور"، وتناول إفطاره، وشرب الشاي، وبحث عن "ميشا"، فوجده نائمًا واقفًا في مكانه المفضل وراء الكنبة الخضراء.

عاد إلى المطبخ ووضع قطعة كبيرة من السمك المجمد في وعاء "ميشا"، ثم ارتدى ملابسه، وخرج.

وجدها تثلج في الخارج. شعر أن السماء الدكناء تكاد تنطبق على أسطح العمائر ذات الطوابق الخمسة. ولكن لم تكن هناك رياح، ومن ثم لم يكن الجو شديد البرودة.

قبل أن يستقل الأوتوبيس، اشترى الطبعة الجديدة من "كابيتال نيوز"، واختار كرسيًّا مريحًا، قبل أن يفتح الجريدة ويبحث في العناوين، حتى وجدت عيناه نصًا في الركن العلوي من الصفحة داخل إطار أسود بارز:

"لم يعد الكاتب والنائب "ألكسندر ياكورنيتسكي" يعيش في دنيانا. يبقى مقعدًا جلديًّا فارغًا في الصف الثالث داخل قاعة مجلس النواب. سوف يشغله آخر خلال وقت قصير. ولكن في قلوب العديد ممن يعرفون "ألكسندر ياكورنيتسكي"، سيبقى إحساس عميق بالفراغ، والخسارة..".

ها هو يرى أول نص، مطبوع أمام عينيه.

لكنه لم يكن يشعر بسعادة، برغم إحساسه برضا شخصي عن نفسه كان قد نسيه منذ أمد بعيد. قرأ حتى النهاية. لم يحذفوا أي كلمة كتبها.

وقعت عيناه على تذييل النص.. "جماعة الأصدقاء".. إنها أقرب إلى وصفٍ منها إلى اسم مستعار، وكأنها مظلة تغطي عددًا غير معروف من البشر. وما لفت نظره هو أنهم طبعوا العبارة كما كتبها.. بأحرف كبيرة. شعر أن رئيس التحرير يعامله مثل كاتب محترم وليس مجرد صحفي.

نحَّى الجريدة جانبًا، وتطلع إلى المدينة التي تقترب. سمع السيدة الجالسة أمامه وهي تنبه صغيرها إلى وجود طائر صغير. نظر تلقائيًّا إلى الناحية التي تشير إليها، فرأى عصفورًا يرفرف داخل الأوتوبيس.

17

يا له من احتفال!
رحَّب رئيس التحرير بـ"فيكتور" بكل ودٍّ، وكأنه لم يره منذ عام. وقدَّم له القهوة، ثم الكونياك، ثم 100 دولار داخل ظرف أنيق. وقال له وهو يرفع كأس الكونياك:

- حسنًا. هذه هي البداية. لنأمل ألا تبقى بقية النصوص حبيسة الدرج فترةً طويلة.

- كيف مات؟

- سقط من نافذة في الطابق السادس.. لا أدري لماذا قرر أن ينظفها، مع أنها ليست في شقته. كما أن الوقت كان ليلًا.

تلامس الكأسان.

- أتدري؟ لقد هاتفني زملاء من صحف أخرى.. كانت الغيرة تفوح من كلماتهم، الأوغاد! قالوا إنني اخترعت نوعًا جديدًا من صفحات الوفيات! تعلم بالطبع أن الفضل كله لك. ولكنك تكتب تحت اسم مستعار، وأنا أتلقى الثناء، وأتحمل الضربات أيضًا! مفهوم؟

أطرق "فيكتور" متفهمًا، على الرغم من أنه يتألم من حقيقة ابتعاده عن دائرة الضوء. الشهرة هي الشهرة، حتى ولو كانت شهرة صحفية. ويبدو أن رئيس التحرير قد لاحظ ما يفكر فيه "فيكتور" من خلال تعبيرات وجهه.

- لا تبتئس. سوف يعرف الكل اسمك يومًا ما – هذا إذا أردت - ولكن ليس الآن. الأفضل أن تبقى "مجموعة الأصدقاء". وستفهم قصدي خلال يوم أو يومين. ولا تنسَ، عليك أن تستخدم كل معلومة يضع تحتها "فيودور" خطًّا. أنا لا أحذف أي كلمة تكتبها، أليس كذلك؟ حتى ولو كانت فجة في صراحتها في حق الفقيد.

أومأ "فيكتور" برأسه بنعم. شرب القهوة، وذكَّره مذاقها المُرُّ ببار الفندق في "خاركيف"، وذاك الصباح الذي استيقظ فيه على صوت رصاصة.

- ما الذي حدث في "خاركيف"، "إيجور"؟

تنهد رئيس التحرير، وهو يصب المزيد من الكونياك، بينما يحدق "فيكتور" بنظرة ذات مغزى، قبل أن يدندن بصوت رقيق خفيض:

- أحنى رأسه جندينا الشاب الشجاع.. أطلقوا عليه النار بوحشية في قلب "الكومزومول"..

ثم قال بجدية:

- نحن كجريدة لنا خسائرنا. وهذه هي خسارتنا السابعة. ويبدو أننا على وشك أن نقيم لهم مدفنًا خاصًّا. ولكن نصيحتي لك أن تتجاهل ما جرى! كلما عرفت أقل، عشت أطول!

ثم حدق فيه بنظرة جامدة، وهو يردف بنبرة بها كل دهاء الدنيا:

- كما أنك لم يعد لك دخل بهذا الأمر بعد الآن. صحيح أنك تعرف أكثر ممَّا يعرفه غيرك، لكن لا بأس لهذا، فـ... أوكيه..

شعر "فيكتور" بالندم على فضوله. لقد تبددت أجواء الاحتفال البسيط.. تمامًا.

18

نهاية نوفمبر.
حيث التحول الكبير من الخريف العميق إلى الشتاء القارس. وحيث يلهو الصغار بكرات الثلج. وتتسلل إليك البرودة الجليدية من خلال تلك الفجوة عند ياقة المعطف. تسير فيه السيارات ببطء، وكأن كل سيارة تخشى الأخرى، في طرق صارت أضيق. البرودة القارسة قلصت واختصرت وأخافت كل شيء. وحده الثلج ينمو فوق الأرصفة، ويصير أعلى وأعلى، وذلك بفضل العمل الشاق الذي يبذله عمال النظافة في رفعه من وسط الطريق.

كان قد انتهى من ثاني نعي لـ"ميشا" الإنسان، عندما تطلع "فيكتور" عَبْرَ الشباك. اليوم هو يوم ليست لديه فيه رغبة ولا حاجة إلى الخروج. وحتى يهرب من أسر الصمت، شغَّل الراديو الموضوع فوق الثلاجة. سرعان ما ساد المكان صخب وجعجعة جلسة مجلس النواب المنقولة على الهواء. خفض الصوت، ووضع البراد على النار ليصنع كوب شاي، ورمق ساعته: الخامسة والنصف. لا يزال الوقت مبكرًا على اختتام اليوم. اتصل بـ"ميشا" الإنسان:

- أنا جاهز.. تعال استلم.

حضر "ميشا"، ولم يكن وحده. كانت بصحبته فتاة صغيرة. عيناها كلها تساؤل.

- ابنتي. ليس هناك من أتركها معه.. أخبري العم "فيكتور" باسمكِ.

ساعدها على خلع معطف الفراء الأحمر الذي ترتديه. بينما قالت هي، وهي تحدق فيه:

- "سونيا".. عندي أربع سنين. يعيش بطريقٌ معك؟

- أرأيت؟ ولم يمر عليها دقيقة في المكان بعد..

ساعدها على خلع حذائها الصغير.

اتجهوا إلى غرفة المعيشة. وتساءلت وهي تنظر في أرجائها:

- أين هو؟

- سأذهب لأحضره.

أجابها "فيكتور"، ولكنه أحضر لـ"ميشا" الإنسان النعيين من المطبخ أولًا. ونادى "ميشا" البِطريق، ونظر وراء الكنبة الخضراء. كان "ميشا" واقفًا في مكانه فوق بطانية سميكة للغاية مصنوعة من وبر الجمال. كان يحدق في الجدار. مال "فيكتور" نحوه، وهو يسأله:

- أنت بخير؟

كان البِطريق ساكنًا، ويحدق بعينين متسعتين. خشي "فيكتور" أن يكون مريضًا. كانت "سونيا" قد اقتربت منهما:

- ماذا به؟

- "ميشا"! لدينا ضيفة هنا!

اقتربت "سونيا" وربتت على البِطريق.

- هل أنت متعب؟

التفت "ميشا" إليها. فصاحت بابتهاج:

- بابا! إنه يتحرك!

تركهما "فيكتور" معًا، وعاد إلى غرفة المعيشة. كان "ميشا" الإنسان على وشك الانتهاء من قراءة النعي الثاني. وبدا على وجهه الرضا، وهو يقول:

- جميل! عاطفي أيضًا! مع أنهما لا يستحقان، ولكنني عندما قرأت هذا شعرت بالأسى لأجلهما.. لديك شاي؟

انتقلا إلى المطبخ، وجلسا يدردشان حول الطقس وتوافه أخرى، في انتظار أن يغلي البراد. وبينما كان "فيكتور" يقدم الشاي لـ"ميشا"، ناوله الأخير ظرفًا.

- أتعابك.. هناك عميل آخر قريبًا.. أوه.. أتذكر النعي الذي كتبته عن "سيرجي شيكالين"؟

أومأ "فيكتور" برأسه بنعم.

- لقد تعافى.. أرسلت له بالفاكس ما كتبته عنه. وأظنُّ أنه أعجب به..

أتاهما صوت الصغيرة:

- بابا.. بابا.. إنه جائع!

ابتسم "ميشا" الإنسان، وهو يداعبها:

- هو يتكلم إذًا؟

أخرج "فيكتور" سمكة من الفريزر ووضعها في الوعاء. وناداها:

- "سونيا".. أخبريه أن الطعام جاهز.

سمعا صوتها بصعوبة، وهي تخاطب البِطريق في فرح:

- سمعت؟ الأكل في انتظارك.

ظَهَرَ البِطريق، ومن خلفه الصغيرة. راقبته وهو يتناول طعامه. سألت فجأة:

- لماذا هو وحده؟

- أوه، لا أدري. الحقيقة أنه ليس كذلك. نحن نعيش معًا.

- مثلي أنا وبابا.

تنهد "ميشا" الإنسان، وشرب من كوب الشاي، قبل أن يتأمل ابنته:

- يا لها من ثرثارة! هيا بنا.. حان وقت العودة إلى المنزل.

غادرت الصغيرة المطبخ وهي تود لو أمكنها أن تبقى. علَّق "ميشا" الإنسان:

- عليَّ أن أحضر لها جروًا أو قطة.

- يمكنك أن تحضرها مرة أخرى لتلهو معه.

ليل الشتاء حالك السواد في الخارج. كان الراديو يذيع فقرة من نشرة الأخبار تتحدث عن الوضع في الشيشان. جلس "فيكتور" إلى الآلة الكاتبة، وهو يشعر بالوحدة. كم ودَّ لو كتب قصة قصيرة - أو قصة خيالية - حتى لو لم يقرأها أحد سوى "سونيا". ولكن عقله مشغول الآن بالعبارات الحزينة العاطفية ذات الشجن، التي تكفي لنعي لم يكتب بعد. تساءل وهو يحدق في الورقة البيضاء التي تحبسها الآلة الكاتبة بين أسنانها:

- هل أنا مريض؟ كلا.. لكن عليَّ.. يجب عليَّ.. أن أجبر نفسي على كتابة قصة قصيرة، وإلا جننت.

وجد نفسه يفكر في وجه "سونيا" المنمش الصغير المرح، وذيل حصان شعرها الأحمر. إنها طفلة تعيش في زمن غريب، وبلد أغرب، حياةً لا يجد في نفسه رغبة أن يفهمها.. كم يتوق إلى نقطة النهاية.

19

حذَّره رئيس التحرير.
من خلال اتصال تليفوني بعد ذلك اللقاء بعدة أيام، وطلب منه أن يحترس لما حوله، وألا يحضر إلى مكتبه في الجريدة أو يخرج من منزله إلا إذا كان مضطرًّا لذلك.

تملكت الدهشة والحيرة "فيكتور"، حتى أنه نسي أنه لا يزال يضع السماعة على أذنه حتى بعد انتهاء المكالمة. تساءل عما قد يكون حدث، ولا تزال نبرة صوت رئيس التحرير الواثقة الهادئة تتردد في أذنيه. ولكنه قرَّر ألا يأخذ تلك المكالمة على مأخذ الجد. ليس لديه ما يقوم به هذا الصباح على أي حال. أمضى وقتًا طويلًا في حلاقة ذقنه، وقام دون سبب بكي قميص لا ينوي أن يرتديه.

خرج من منزله عند الظهر، واشترى الصحف، ثم السمك لأجل "ميشا" ولأجله، وكذلك كيلوجرامًا من الموز.

عاد إلى الشقة، وفتش في الصحف عن إجابة على سر مكالمة رئيس التحرير. ولم يجد.

ولكنه انتبه إلى أسماء جديدة، ودوَّنها في مفكرته، تمهيدًا للعمل عليها فيما بعد، ولكن ليس الآن. تهيمن عليه الآن حالة من الوهن. كان جالسًا إلى ترابيزة

المطبخ، التي يضع عليها أكياس البقالة، والتي أخرج منها موزة.

انفتح باب المطبخ ببطء. ظهر "ميشا" البِطريق، ووقف أمام سيده، وهو ينظر إليه في توسل.

عرض عليه "فيكتور" الموزة التي كان يأكلها.

مالَ رأس "ميشا" إلى الأمام، وقضم قطعة.

- تظن أنك قرد؟ انتبه لحالك! لو أنك تناولت طعامًا مُضِرًّا لك فلن أجد لك أي طبيب. ما يوجد من أطباء لا يكاد يكفينا نحن البشر! الأفضل أن أحضر لك السمك.

خيَّم الصمت على المطبخ، إلا من صوت تناول "ميشا" لطعامه، وأنفاس "فيكتور" المتوترة. وفي النهاية، تنهد وهو ينهض ليشغل الراديو. أتاه صوت سرينة عسكرية لإحدى الميليشيات. لا بد أنها مسرحية إذاعية. ولكن لا. كان تقريرًا من ساحة قتال، وهذه المرة عند تقاطع شارعي "الجيش الأحمر" و"ساكساجانسكي"، أي في قلب المدينة. رفع صوت الراديو. يتحدث المراسل عن كثير من الضحايا في الشارع، وعن أن سيارات الإسعاف استغرقت نصف ساعة قبل أن تصل؛ لترفع سبع جثث، وخمسة أجساد مصابة. تشير الأنباء إلى وجود نائب وزير الرياضة "ستويانوف" بين الضحايا. أسرع تلقائيًّا إلى مفكرته، فوجد فيها اسم الفقيد. عندئذ عاد يستمع وقد بدت على مُحيَّاه علامات الرضا، تاركًا مفكرته مفتوحة. ولكن المراسل عاد ليكرر الكلام نفسه الذي أذاعه منذ قليل، ويبدو أن هذا هو كل ما يعرفه حتى الآن. ووعد المستمعين أن يعود إليهم بمعلومات جديدة بعد نصف ساعة، قبل أن يتعالى الصوت الأنثوي لمذيعة أخبار الطقس خلال عطلة نهاية الأسبوع.

فكر "فيكتور" وهو ينظر إلى "ميشا" أن الغد هو السبت.

لأنه يعمل من منزله، فلم يعد ينتبه إلى الفارق بين أيام العمل والإجازات، فهو يعمل في الوقت الذي يحلو له. ولكنه يهوى العمل في أغلب الأوقات. الحقيقة هي أنه لا يجد الآن ما يعمل عليه. كما أنه لا يزال عاجزًا عن الشروع في كتابة القصص أو الروايات. وكأنه وجد النوع الأدبي الذي يليق به، وصار مرتبطًا به ولا يجد فكاكًا منه، النعي. صار لا يفكر إلا في الطريقة الأمثل لكتابة نص النعي، أي نعي، فتحولت كل فكرة أدبية تخطر بباله إلى فكرة تليق بنعي.

اتصل بضابط الحي، فأتاه صوته الواضح المألوف:

- ملازم "فيشبين".

- أهلًا "سيرجي، هذا "فيكتور".

- "فيكتور"؟

- صاحب "ميشا".

- آه! ما الأخبار؟ كيف حاله؟

- هو بخير. هل أنت في إجازة اليوم؟

- أجل.

- لديَّ فكرة جيدة، وأتساءل عما إذا كنت ستشاركني فيها. كل ما نحتاجه هو سيارة. تكفي سيارة جيب عسكرية و...

قاطعه "سيرجي" ضاحكًا:

- ما دمنا لن نشن هجومًا عسكريًّا فلا بأس.. ولكن لماذا الجيب، ما دام لديَّ سيارتي "الزابوروشيتس".

20

صباح سبت مُثلِج.
ترجَّل فيه "فيكتور" و"سيرجي" و"ميشا" من السيارة "الزابوروشيتس" الحمراء، التي توقفت بهم عند حافة نهر "الدنيبر" بالقرب من حدائق الكنيسة. أخرج "سيرجي" حقيبة ظهر منتفخة من شنطة السيارة، وعلقها على كتفه، وهبطوا العتبات الحجرية المؤدية إلى النهر المتجمد.

تغطي سطح نهر "الدنيبر" طبقة جليد سميكة، وقد تفرق الصيادون على مسافات كافية لاحترام خصوصية كل منهم، جلسوا دون حراك يصطادون عبر فتحات صغيرة، فبدوا أشبه بغربان جامدة لا حياة فيها.

مشى "فيكتور" و"سيرجي" و"ميشا" بعيدًا عنهم، في طريقهم عبر مجرى "الدنيبر" الجليدي.

كانوا يتوقفون عند كل حفرة ليس عندها صياد، ولكنهم كانوا يجدون فتحتها إما متجمدة أو صغيرة للغاية. فقال "سيرجي":

- لنجرب الخليج. حيثما يذهب سباحو الشتاء.

هكذا اتجهوا إلى لسان ضيق، أشبه بذيل جزيرة، وعبروه. أشار "سيرجي" قائلًا:

- هناك، انظر! أترى تلك الرقعة الزرقاء؟

عندما وصلوا إلى هناك، وجدوا حفرة واسعة، حولها العديد من آثار أقدام الحيوانات. ومن دون انتظار الإشارة، تقدَّم "ميشا" وغاص بسلاسة فيها، وبكل هدوء.

حدق "فيكتور" و"سيرجي" في امتزاج الثلج بالماء، وقد احتبست أنفاسهما. تساءل "سيرجي":

- أيمكنه أن يرى تحت الماء؟

- أظنُّ ذلك. هذا إذا كان هناك ما يمكن رؤيته أصلًا.

أنزل "سيرجي" الشنطة عن ظهره، قبل أن يخرج منها لحافًا قديمًا، بسطه فوق الجليد على مسافة مترين تقريبًا من الحفرة. ونادى رفيقه:

- تعالَ، اجلس. ليستمتع كل منا بالإجازة على طريقته.

اقترب "فيكتور" وجلس، وأخرج "سيرجي" من الحقيبة ترْمُس القهوة وكوبين بلاستيكيين.

- لنبدأ بالقهوة.

كانت حلوة، وما زاد حلاوتها هو دِفْؤُها وسط ذلك البرد.

- وأنا الذي لم يخطر ببالي أن أحضر أي شيء.

هكذا علَّق "فيكتور" في أسى، وهو يطلب الدفء من الكوب.

- لا يهمك، في المرة القادمة. كونياك؟

هكذا صَبَّ "سيرجي" الكونياك في كلا الكوبين، قبل أن يعيد الزجاجة إلى جرابها القماش. واقترح نخبًا:

- في صحة الحياة الحلوة!

شربا النخب، وتوغل الدفء في الجسدين والعقلين. وتساءل "سيرجي" وهو يرمق الفتحة:

- أيمكن أن يغرق؟

- ليس منطقيًّا أن يغرق. ولكنني لا أعرف الكثير عن البطاريق. بحثت عن كتب عنها ولكنني لم أجد.

- لو صادفت أي كتاب يتحدث عنها سأحضره لك.

نظر "فيكتور" حوله في قلق. أقرب صياد وحفرة على بعد ثلاثين مترًا منهما. كان ذاك الصياد جالسًا فوق صندوقه، ويرفع من حين لآخر زجاجة في حجم اللتر إلى فمه. قال "فيكتور" وهو لا يرفع عينيه عن الصياد:

- أظنُّ أنني سأتمشى قليلًا.

- لا أُفضِّل ذلك. دعنا نجلس لبعض الوقت ونتناول المزيد من الكونياك. سوف يعود. ولن يغرق، وهذا أكيد!

سمعا صوت بقبقة يصدر عن الحفرة. التفت "فيكتور" في لهفة، ولكنه اكتشف أن الصوت ناتج عن انزلاق الثلج في الماء لا أكثر. رفع "سيرجي" كوب الكونياك:

- هيا، لنشرب نخبه. البشر كثيرون، ولكن البطاريق قليلة، وعلينا أن نحتفي بذلك!

وبينما كانا يشربان، دوَّت صيحة وسط الصمت. التفت "سيرجي" في لحظة، ليشاهد صيادًا على بعد خمسين مترًا منهما يتراجع جزعًا في سرعة بعيدًا عن حفرته، بينما يشير تجاهها بيديه. بينما أسرع صيادان آخران نحوه، وقد ترك كل منهما صنارته في حفرته. تساءل "سيرجي" وكأنه يحدث نفسه:

- ماذا جرى له؟

كان "فيكتور" شاردًا عمَّا يجري على بعد خمسين مترًا منه، وهو يشرب من كأس الكونياك، ويفكر في أن كل يوم جديد في حياة المرء يجلب معه شيئًا جديدًا لم يكن في الحسبان. وسوف يأتي حين تظهر فيه مشكلة من نوع ما، حتى لو تمثلت في موته. صاح به "سيرجي" يُنبِّهُه:

- انظر!

عاد عقل "فيكتور" إلى واقعه، ونظر إلى "سيرجي" أولًا، ثم تتبع نظرات الأخير إلى حيث رأى "ميشا" وهو يقترب قادمًا من اتجاه الفتحة. تساءل "سيرجي" في عجب:

- من أين خرج؟

توقف "ميشا" عند طرف اللحاف. صاح "سيرجي" بابتهاج:

- ربما يحتاج بعض الكونياك.

بينما ربت "فيكتور" على اللحاف، وهو ينادي البِطريق:

- تعالَ يا "ميشا".

وقف "ميشا" فوق اللحاف، وتنقلت نظراته بين الرجلين. فأخرج "سيرجي" من حقيبته فوطة ولفها حول جسده.

- حتى لا يصاب بالبرد.

بقي "ميشا" في الفوطة لخمس دقائق تقريبًا، قبل أن يلقي بها بعيدًا عن جسده. بينما التفت "فيكتور" عندما سمع وقع أقدام. كان صاحب الحفرة الأقرب إليهم. بادره "سيرجي":

- عضتك سمكة؟

هز الصياد رأسه، وعيناه على البِطريق. وقال:

- أهذا بِطريق أم أنني أهلوس؟

أجابه "سيرجي" بجدية:

- أنت بالتأكيد تهلوس.

فهمس الرجل مشدوهًا:

- يا ربي!

أشاح بذراعيه غير مصدق، وهو يتراجع عائدًا إلى حيث حفرته. علَّق "سيرجي"، وهما يتبعان الرجل بعيونهما:

- سيحرص الآن على تقليل كمية الخمر التي يشربها.

ولكن "فيكتور" بادره في استغراب:

- أنت لست في نوبة عملك الآن. فلماذا تخيف السكارى هكذا؟

أجابه "سيرجي" بابتسامة:

- هذا ما يسمونه الغريزة البوليسية. أتريد أن تأكل شيئًا؟ أم نشرب قبلها؟

- بل نشرب قبلها.

بدا التذمر وفروغ الصبر على "ميشا" فجأة، وهو يضرب بزعنفتيه. فابتسم "سيرجي" وهو يفتح زجاجة الكونياك:

- أترى أنه يريد المزيد؟

ولكن "ميشا"، انطلق فوق الجليد بمشيته المضحكة قبل أن يغوص سريعًا داخل الحفرة الواسعة من جديد.

21

رنين متصل لجرس التليفون.
أيقظ "فيكتور" قبيل فجر الإثنين. لم يجد في نفسه رغبة في مفارقة السرير، وفضَّل أن يتمهل حتى ينفد صبر المتصل. ولكن بدا أن المتصل طويل البال للغاية، فحتى البِطريق انتبه وأتى إلى مصدر الصوت.

وفي النهاية، نهض "فيكتور" من السرير وراح بخطوات متثاقلة إلى حيث التليفون.

رفع السماعة، وهو يتوقع ألا يكون الأمر سوى خفة دم شخص يظن نفسه ظريفًا. ولكنه سمع صوت رئيس التحرير المتلهف:

- "فيكتور"؟ آسف أنني أيقظتك. عمل عاجل! هل أنت منتبه لي؟

- نعم.

- هناك مراسل في الطريق إليك ومعه ظرف. سوف ينتظر في سيارته إلى أن تكتب النعي. هذا للطبعة الصباحية.

رمق "فيكتور" المنبه الموجود بجوار السرير. إنها الواحدة والنصف.

- حسنًا.

ارتدى الروب الأزرق، وغسل وجهه بالماء البارد، ثم ذهب إلى المطبخ. وضع البراد فوق البوتاجاز، والآلة الكاتبة على الترابيزة، وجلس يستمع إلى صمت الليل. نظر تجاه العمارة المقابلة. ليس هناك سوى مصباحين مضيئين فقط في كل شقق العمارة.

هناك من يستعصي عليه النوم، وهذه ليست مشكلته. أما هو فقد صار في كامل وعيه، عدا إحساسه بثقل دماغه. تناول ورقة، ودسها في الآلة الكاتبة، ثم عاد لينصت إلى صمت الليل مجددًا.

سمع صوت اقتراب سيارة في الخارج.

انتظر حتى يرن جرس الباب. ولكن أتاه بعد دقيقة صوت طرقات حَذِرَة.

وجد أمامه رجلًا نعسان، محمر العينين، في العقد الخامس من عمره. ناوله ظرفًا كبيرًا، وهو يقول له، دون أن يفكر في الدخول:

- سأكون في السيارة. أطرق على الباب بقوة إذا وجدتني نائمًا.

جلس إلى الآلة الكاتبة، ثم أخرج من الظرف ورقة ومعها كتيب خاص ببرنامج عرض مسرحية.

"يوليا أندرييفنا بارخومينكو.. مولودة في 1955. مغنية في دار الأوبرا الوطنية منذ عام 1988. متزوجة، ولديها طفلان".

استمرَّ في القراءة..

"عام 1991، أجريت لها عملية استئصال ثدي، وكانت شاهدة في قضية اختفاء مغنية الأوبرا الشهيرة "إيرينا فيودوروفنا سانوتشينكو"، التي اختُطفت تحت تهديد السلاح خلال رحلة فنية إلى إيطاليا عام 1995".

وجد إضافة بخط اليد:

"تأثرت بشدة لوفاة "نيكولاي ألكسندروفيتش ياكورنيتسكي"، المؤلف، والنائب البرلماني، وصديقها المقرب (منذ عام 1994 وظهورها في احتفال خاص بعيد استقلال أوكرانيا في قصر "ماريينسكي")".

كلام تحته خطٌّ أحمر، ذكَّره على الفور بمحادثته الأخيرة مع "إيجور إلفوفيتش".

قرأه أكثر من مرة. ليس هناك الكثير مما يمكن أن يساعده، ولكن أفكاره صارت متماهية بالفعل مع درجة إثارة الشفقة المطلوبة.

في الصفحة الثانية من كتيب برنامج المسرحية، وجد صورة ملونة للمغنية. سيدة أنيقة واعدة، وجنتاها حمراوان، وعيناها عسليتان، وشعرها كستنائي يصل طوله إلى كتفيها، وترتدي فستان سهرة كاشفًا.

عاد إلى الصفحة البيضاء في الآلة الكاتبة.

الأبيض هو لون العزاء لدى العرب، هكذا فكَّر وأصابعه تتنقل بسلاسة فوق مفاتيح الآلة.

"لكل شيء في هذه الحياة صوته الخاص. والصوت نبض الحياة. قد يزداد قوة، أو ينكسر، أو يضيع، أو يتبدد، أو يخفت حتى يتحول إلى مجرد همس. ربما لا يميز المرء صوتًا فرديًّا وسط كورس أصوات الحياة من حوله، ولكنه ينتبه إلى ذاك الصوت، وإلى تلك الحياة، ما إن يستكين إلى الصمت. هناك صوت لن نسمعه بعد الآن، وهو صوت طالما أحبه كثيرون.. خمد فجأة وقبل أوانه. صار العالم أشد صمتًا، ولكن ليس على النحو الذي يهواه عشاق السكينة. أضحى الصمت أشد حدة، مثل ثقب أسود ظهر في الكون الواسع فجأة، وكأنه يؤكد على حقيقة أن لكل صوت نهاية، وألَّا نهاية لكل ما فقدناه من أصوات.. في الماضي وفي المستقبل".

نهض "فيكتور"، وذهب ليحضِّر الشاي، قبل أن يعود بقدح كبير منه.

".. أحدثكم عن صوت "يوليا أندرييفنا بارخومينكو"، الذي صمت اليوم. ولكن روحها ستبقى معلقة بأجواء دار الأوبرا الوطنية، داخل جدران قصر "ماريينسكي" البهي، تحتضنها تلك القبة المذهبة ذات الرونق الخاص. وهناك سيبقى صوتها؛ ليصبغ الصمت والسكون من بعدها بلون الذهب".

توقف. فكَّر أنه استخدم الكثير من الذهب في هذه الفقرة. عاد إلى ملاحظاته، وقرأ الكلام المميز بخط أحمر للمرة العاشرة. كيف يمكنه أن يأتي على ذكر "ياكورنيتسكي"؟ الحب؟ العشق..

أخذ جرعة من الشاي، وهو يداعب الفكرة في عقله. قرأ ما كتب، قبل أن يعود ليكتب:

"سبق لها أن عانت، منذ أمد ليس ببعيد، فِقدان صوت عزيز عليها. ذاك الصوت الذي سكت بغتة، وضاع محتضرًا في غور الهاوية، سواء كان أسير قوانين جاذبية الموت، بعد أن ناضل كما ينبغي أن يكون النضال، أو تبدد فحسب، لمجرد أنه يومه الموعود".

هنا، عاد ليمعن النظر في برنامج المسرحية، وارتسم على وجهه شبح ابتسامة.

"قامت مؤخرًا بأداء دور "توسكا" في أوبرا "بوتشيني"، وأبدعت في تجسيد مأساتها حتى النهاية، مع قفزتها الأخيرة من الأبراج المُحصَّنة. لا يهمنا كيف ماتت. فمهما كانت الطريقة التي رحلت عنا بها، سنبقى نحن الذين أنصتنا إلى حياتها أمام مهمة اعتياد ذلك الصمت، ومحاولة تلمُّس ما قد يكون قد بقي من أثرها الذهبي. لذلك علينا أن نلتزم الصمت، فربما كانت هذه هي أفضل وسيلة لتمييز صوتها – نميزه، ونسترجعه، ونسعد بذكراه، إلى أن يحين الأوان، وتذهب أصواتنا بدورها إلى حيث مستقر الصمت والأبدية..".

اعتدل في جلسته، وهو يكاد يلهث، وكأنه خاض للتوِّ سباق المئة متر، رغم أنه كان لا يكادُ يُحرِّك أنامله فوق الآلة. أخذ يدلك أصابعه، كما لو كان يحررها من قيد هذه المهمة الليلية العاجلة. لقد أنجز المهمة.

سحب الورقة، وقرأ ما كتبه، بينما انتابه شعور عجيب بالأسى على مغنية الأوبرا التي ماتت، أو لقيت حتفها؛ فهو لا يعلم بعد.

نظر من الشباك. السيارة بالأسفل، في انتظاره.

نهض، والتفت ليفاجئه وجود "ميشا"، الذي وقف يتأمله عند مدخل المطبخ، ساكنًا تمامًا، وفي عينيه الصغيرتين ما يشبه اللهيب، وغموض، وهما تنظران إليه بمشاعر محايدة، ومن دون سبب.

تنهد بعمق، ومر عبر المسافة بين البِطريق والباب نحو الردهة، وارتدى الجاكت الفرو الثقيل فوق الروب، وخرج من الشقة، في يده النص.

وجد المراسل نائمًا، وقد أسند رأسه إلى الدركسيون. طرق "فيكتور" في هدوء على الشباك. فاستيقظ الرجل، وفرك عينيه. ومن دون كلمة، فتح الباب، وأخذ من "فيكتور" الورقة، وأدار المحرك، وانطلق.

عاد "فيكتور" إلى شقته. وهو يشعر أن الليل ليس مظلمًا إلى ذلك الحد. فلم يجد في نفسه رغبة في النوم، خاصة وأنه مفعم الآن بنشاط عارم، أو هكذا خُيِّلَ إليه.

عثر على أقراص منومة في دولاب الأدوية الصغير، فابتلع قرصين ببعض الماء الدافئ من البراد، وعاد إلى سريره.

22

اتصل به رئيس التحرير مرة أخرى.
في العاشرة من صباح اليوم التالي. كان سعيدًا بالنعي واعتذر مرة أخرى عن إقلاقه في نومه. أخبره أن بوسعه أن يحضر إلى مقر الجريدة بعد يومين، وأن أهم شيء أن يعلق بطاقته الصحفية، وذلك لأن ضباط ميليشيا المهام الخاصة صاروا مرابطين الآن عند كل طابق من طوابق المبنى.

في الخارج، كانت السماء تمطر ثلجًا. الجو هادئ للغاية.

وقف عند كنكة القهوة التركية التي وضعها فوق البوتاجاز، وهو يتساءل عن الطريقة التي سوف يستغل بها ساعات هذا اليوم.

مال إلى أن يرتاح اليوم، خاصة بعد عمله ليلًا. ولكن يوم الإجازة يحتاج إلى ما يملأ ساعاته بما يسلي بدرجة تفوق ما يحتاجه يوم العمل. لذلك رأى أن يخرج بعد تناول القهوة؛ ليشتري الصحف، ومن ثم يقرر بعدها ما سيقوم به.

تناول فنجان القهوة الثاني مع الصحف. في البداية، قرأ ما كان قد كتبه ليلًا، بعد أن نُشر الآن في حوالي نصف مليون نسخة، في الصفحة قبل الأخيرة من الجريدة. النص كاملًا، ولم يمسسه قلم رئيس التحرير. استمتع بنومه ليلًا بينما كانوا يجهزون النص للطباعة. عاد إلى الصفحة الأولى، وقرأ العنوان الرئيسي: "ليست نهاية الحرب ولكنها هدنة". هناك صورة كبيرة للهجوم على "جروزني".

استغرق في القراءة. وتبين له أنه بينما يعيش حياة طبيعية في "كييف"، كانت هناك معركة مستعرة بين عصابتين من عصابات المافيا. أو هكذا فهم من التقرير الصحفي. لقي سبعة عشر مصرعهم، وأصيب تسعة، وانفجرت خمس قنابل. كان سائق رئيس التحرير من بين القتلى، وثلاثة من رجال الميليشيات، ورجل أعمال عربي، وأشخاص مجهولو الهُوِيَّة، ومغنية أوبرا.

لاحظ أن بقية الصحف خصصت مساحة أقل بكثير لتلك الحرب، مقارنة بمساحة "كابيتال نيوز". ولكنها خصصت مساحة أكبر لمصرع مغنية الأوبرا، التي اكتشفوا جثتها في الساعات الأولى عند محطة الترام. هناك من خنقها بحزام جلدي. كما لم يجدوا أي أثر لزوجها المهندس المعماري، وكانت الشقة مقلوبة رأسًا على عقب، ومن الواضح أنهم كانوا يبحثون عن شيء ما.

اندهش "فيكتور" للغاية. من الواضح أن لا علاقة لمصرع المغنية بتلك الحرب التي دارت. هي في الحقيقة جريمة منفصلة تمامًا. ربما يكون للزوج المفقود يد فيها. وربما يكون له هو نفسه يد فيما جرى للمغنية، بعد أن ألمح إليها في النعي الذي كتبه عن "ياكورنيتسكي". في تلك اللحظة ارتعد رعبًا من الفكرة. هو لم يذكرها بالاسم طبعًا، ولكنها كانت إشارة تكفي كثيرين ليعرفوا من كان يقصد، وكأنها القشة التي تكفي لتقصم ظهر زوجها..

تنهد في قلق، واستغرق في التفكير والافتراض حتى شعر بالإنهاك. قال لنفسه:

- ما هذا الجنون؟! ما الذي يدعو زوجها لأن يفتش شقته على ذلك النحو؟

23

انتهى اليوم.
والغريب أنه انتهى بشكل بنَّاء. أمامه ثلاثة نصوص نعي جاهزة على الترابيزة. في الخارج، يتخافت ضوء المساء الشتوي. والبخار يتصاعد من كوب شاي صنعه للتو.

اطَّلعَ على أحدث كتاباته. وجدها مختصرة نوعًا ما، ولكن هذا بسبب أنه لم يذهب إلى مقر الجريدة منذ فترة حتى يحصل على المعلومات الإضافية عن هؤلاء الأشخاص من "فيودور". ولكن لا مشكلة. لا يزال أمامه متسع من الوقت لمزيد من العمل عليها. فهي لن تذهب إلى المطبعة الآن.

شرب الشاي، وأطفأ نور المطبخ، وذهب إلى السرير، لحظة أن سمع طرقًا على الباب.

وقف "فيكتور" مأخوذًا وسط الردهة، في صمت. خلع الشبشب من قدميه، واتجه حافي القدمين إلى الباب، ونظر عبر العين السحرية. إنه "ميشا".. الإنسان. فتح له "فيكتور" الباب.

كان "ميشا" يحمل "سونيا"، نائمة على ذراعيه. دخل دون كلام، وهو يومئ بالتحية.

- أين أرقِدُها؟

- هناك.

همس "فيكتور" وهو يشير ناحية غرفة المعيشة.

وضعها "ميشا" فوق الكنبة، وعاد بكل حذر إلى الردهة، هامسًا لـ"فيكتور":

- تعالَ، نجلس في المطبخ.

هكذا أنار "فيكتور" مصباح المطبخ من جديد.

- ضع البراد على النار.

- فيه ماء مغلي للتو.

- سوف أبقى حتى الصباح. ويمكن لـ"سونيا" أن تبقى معك فترةً.. أوكيه؟ إلى أن تستقر الأمور.

- أي أمور؟

لم يجبه الرجل. كانا يجلسان قُبالة بعضهما البعض إلى ترابيزة المطبخ، فيما عدا أن "ميشا" جلس إلى مكان "فيكتور" المعتاد، وجلس "فيكتور" وظهره للبوتاجاز. شعر أنه لمح نظرة عدائية خاطفة في عيني "ميشا". سأله، وكأنه يحاول تبديد سحابة التوتر السوداء التي تحوم فوقهما:

- كونياك؟

- بالتأكيد.

صب "فيكتور" كأسين، تناولاها في صمت.

شرد "ميشا" وراء أفكاره، بينما يربت بيده على سطح الترابيزة. وأخذ يتطلع فيما حوله، ولمح كومة الجرائد عند الشباك، فنهض واتجه نحوها. التقط بعضها، قبل أن يتجهم وجهه، ويعيد الجرائد إلى مكانها. تنهد، وقال:

- يا لسخرية القدر! تحاول أن تُسعِد الناس ويكون مصيرك في النهاية أن تغرق مثل غواصة دمرت.

سمعه "فيكتور"، ولكنه لم يفهم المغزى من الكلام، وشعر أنه يلعب بالمعنى، كريشة رقيقة تتلاعب بها الرياح. أردف "ميشا":

- صُبَّ لي كأسًا آخر.

شرب كأسه الثانية، ثم ذهب ليلقي نظرة على "سونيا" التي لا تزال نائمة في سلام في غرفة المعيشة، فعاد. قال بنبرة ضعيفة، وهو يحدق في "فيكتور" بنظراته:

- أدرك أنك تريد أن تعرف ما حدث.

ولكن "فيكتور" لم يتفوه بأي كلمة. هو لم يعد يرغب في أن يعرف أي شيء. كل ما يريده هو النوم، وسلوك "ميشا" الغريب بدأ يحبطه. أشار "ميشا" نحو الصحف، وهو يقول:

- الرصاص.. القنابل.. أنت تعرف كل ذلك، صح؟

- أجل؟

- أتدري من هو المُلام على كل ما جرى؟

- من؟

سكت "ميشا"، وعلى وجهه ابتسامة خبيثة غير ودودة.

- أنت.

- أنا؟ كيف.. كيف أكون أنا؟

- ليس كل اللوم، بالطبع.. ولكن من دونك ما كان لكل ما حدث أن يحدث.

سكت لحظات، وهو يسدد إلى "فيكتور" نظرات هيمنت عليه واخترقته، قبل أن يكمل:

- أنا موقن من أنك تشعر بالذنب. وقد سألتك عن السبب. وأنت أخبرتني. وكنا صريحين. ما أحبه فيك هي تلك الصراحة البريئة. كنت تتمنى أن ترى كتاباتك النور، وأن تنشرها الصحيفة. ولم لا؟ لذلك سألتك عن أول فقيد تود أن تكتب عنه.. بدافع من الرغبة في إسعادك ليس إلا.. أعطني كأسًا أخرى.

نهض "فيكتور"، وصَبَّ كأسي كونياك أخريين، ويده ترتجف بشدة. كان مشدوهًا:

- تقصد أنك أنت من قتل "ياكورنيتسكي"؟

- ليس أنا.. بل نحن. ولكن لا تقلق، هو من اختار مصيره.. كما أن موته خسارة كبيرة للمتعصبين للخصخصة الذين كان يبتزهم حتى الثمالة. وبخلاف ذلك، فقد كان يحتفظ بمستندات تدين زملاء برلمانيين له، كنوع من التأمين على حياته. كم هي قاسية تلك الحياة التي يعيشها أهل القمة! أقرب إلى حرب مستمرة.

خيَّم الصمت فترةً. وتطلع "ميشا" الإنسان عبر الشباك، وترك "فيكتور" غارقًا فيما سمعه من كلام. حتى قال في النهاية:

- اسمع. هل أنا متورط في مصرع عشيقته أيضًا؟

أجابه "ميشا" بهدوء، وبنبرة معلم صبور:

- أنت لم تفهم. ما قمت به أنت وأنا هو سحب ورقة كوتشينة من قاعدة هرم الكوتشينة. فالنتيجة الحتمية هي الانهيار التام. وكل ما عليَّ الآن هو أن أنتظر حتى تهدأ الأوضاع..

- وأنا أيضًا؟

قال له "ميشا"، وهو يمسح نظارته:

- هي مسألة شخصية. ولكنك ستكون بخير. يبدو لي أنك تتمتع بحماية جيدة.. لذلك أتيتك لأنبهك.

- ممن؟

- لا أدعي أنني أعرف. مجرد إحساس. ما كنت ستبقى على قيد الحياة لو لم تكن تحت حماية.

سكت لحظات، قبل أن يسأله:

- هل يمكن أن أطلب منك معروفًا؟

أومأ "فيكتور" برأسه بنعم.

- عُدْ إلى سريرك، وسأبقى أنا مستيقظًا لبعض الوقت.

هكذا ذهب "فيكتور" إلى غرفته، ورقد في السرير، ولكنه لم يجد في نفسه رغبة للنوم. أنصت، ولكن الصمت كان مُطبِقًا على أرجاء الشقة. يبدو أن الكل نائم. سمع صوتًا خافتًا يأتيه من غرفة المعيشة. صوت الطفلة. تتمتم:

.ماما.. ماما

تساءل عن مكان أمها. وفي النهاية ذهب في سُباتٍ عميق.

بعد وقت قصير، ظهر البِطريق من وراء الكنبة الخضراء، واتجه نحو باب غرفة المعيشة الموارب. توقف عند البنت النائمة، وأخذ ينظر إليها، قبل أن يستمر في طريقه عبر الردهة. دفع الباب، واتجه إلى المطبخ. وجده جالسًا نائمًا في كرسي سيده، وقد أسند رأسه إلى سطح الترابيزة. الرجل الغريب. وقف البِطريق ينظر إليه بضع دقائق، بلا حراك عند الباب، قبل أن يعود إلى مكانه.

24

الساعة السابعة.
هكذا أشار المنبه المجاور للسرير. لا يزال الجو في الخارج مظلمًا هادئًا.
استيقظ "فيكتور" وهو يعاني صداعًا، وبقي راقدًا على ظهره، ينظر إلى السقف ويفكر في حواره مع "ميشا" الإنسان. بصداع أو دون صداع، صارت لديه الآن أسئلة عليه أن يطرحها عليه.

نهض ببطء، وهو يحاول ألا يحدث صوتًا، وارتدى الروب، وذهب إلى غرفة النوم.

لا تزال "سونيا" نائمة، يغطي جسدها معطف "فيكتور" الرمادي.

مشى بخفة عبر الردهة، قبل أن يتوقف عند الأبواب التي بقيت مفتوحة في الطريق إلى المطبخ.

وجد المطبخ فارغًا. ووجد رسالة فوق الترابيزة:

لقد غادرت، تاركًا "سونيا" معك. هي مسؤوليتك، احْمِها بحياتك. سأعود عندما تهدأ الأوضاع... "ميشا".

جلس "فيكتور" محتارًا إلى الترابيزة، وهو يحدق في الرسالة، بينما يحاول أن يطرد عن عقله الأسئلة التي كان يريد أن يطرحها على "ميشا" الإنسان.

خارج الشباك، بدأ فجر الشتاء الرمادي يمتزج بالنور.

قطع حبل أفكاره صوت طقطقة كنبة غرفة المعيشة. نهض، وذهب ليلقي نظرة. وجد "سونيا" جالسة، وهي تفرك عينيها. سألته عندما انتبهت إلى وجوده:

- أين بابا؟

- لقد ذهب. ستبقي هنا معي فترةً.

سألته متهللة:

- مع "ميشا" البِطريق؟

أجابها بنبرة جافة:

- أجل.

- بالأمس تهشمت شبابيكنا، وكان الجو شديد البرودة.

- شبابيككم في المنزل؟

- أجل. انفجرت! خفت بشدة.

- أتريدين أن تأكلي شيئًا؟

- أي شيء ما عدا العصيدة.

- هي ليست لديَّ على أي حال. أنا لست مُحبًّا للأكل.

- ولا أنا. أين سنذهب اليوم؟

- أين؟ أنا لا أعرف.. إلى أين ترغبين أن تذهبي؟

- حديقة الحيوانات.

- أوكيه.. ولكن عليَّ أن أعمل أولًا ساعتين.

25

موعد الغداء.
وضع "فيكتور" لـ"ميشا" السمك، وقدم لـ"سونيا" بطاطس مقلية. قال لها:

- سوف أشتري المزيد من الطعام في الغد.

- هذا يكفي.

أجابته، وهي تختار لنفسها الطبق الأكبر.

ابتسم "فيكتور". ها هو يتعامل لأول مرة مع طفل آخر، هكذا فكَّر، بحذر وفضول، وكأنه هو نفسه لا يزال طفلًا. عفوية "سونيا"، وردودها - التي لا تتناسب مع عمرها - تدفعه إلى أن يبتسم. تناول طعامه، وهو يراقبها بطرف عينه، تأكل بدافع الاهتمام أكثر من دافع الجوع، وهي تتأمل كل لقمة قبل أن تأكلها، وبينها وبين البوتاجاز، انشغل "ميشا" بوعائه.

التفتت، وألقت بقطعة بطاطس مقلية إلى وعاء "ميشا". نظر إليها "ميشا" مندهشًا، وقد أمال رأسه بطريقةٍ كوميدية للغاية. انفجرت "سونيا" ضاحكة. وقف "ميشا" لحظاتٍ، قبل أن يعود إلى وعائه ويتناول قطعة البطاطس.
علقت في فرحة:

- أعجبته!

شرب "فيكتور" الشاي، وألبس "سونيا" معطفها، وخرجا إلى الحديقة.

كانت السماء تسقط ثلجًا خفيفًا، والرياح تهبُّ في وجهيهما، وعندما خرجا من المترو، قام بلفها بكوفيتها.

وجدا خلف البوابات إعلانًا ينبه إلى أنه نظرًا لظروف الشتاء، فإن إدارة الحديقة قررت ألا تفتح سوى قسمٍ صغيرٍ من الحديقة.

لم يكن هناك كثير من الناس. وتتبعا الاتجاه الذي حددته لافتة النمور، عبر ممشى مغطى بالثلوج، ومرورًا بسياج عليه رسم كبير لحمار مخطط مصحوبًا بتعريف بحياته وعاداته. سألته "سونيا":

- أين الحيوانات؟

أجابها مشجعًا:

- سنراها بعد قليل.

مرَّا على كثير من الأقفاص الخاوية عليها لوحات تعريفية بمن كان فيها من حيوانات، حتى وصلا إلى منطقة مسقوفة. إنه بيت النمور.

هناك، خلف القضبان الحديدية السميكة، يجلس نمران، وأسد، وذئب، وحيوانان مفترسان آخران. وعند المدخل لافتة تحذيرية:

"الإطعام باللحم والخبز الطازج فقط"

هما لا يحملان لا هذا ولا ذاك.

تمشيا أمام الأقفاص، وتوقفا عند كل منها لحظاتٍ. سألته "سونيا":

- أين البطاريق؟

- ربما هي ليست في هذا القسم.. وربما نعثر عليها في مكان آخر.

حاول أن يتذكر أين وجد "ميشا" أول مرة. كان ذلك في المنطقة الواقعة خلف منطقة الزواحف والبرمائيات وكذلك بيت الدببة البنية.

استمرا في المشي، حتى وصلا إلى مساحة منخفضة حولها سور حديدي، وفي منتصفها بحيرة متجمدة. فوق السور لوحة تصور البطاريق. قال "فيكتور":

- كما ترين، لا يوجد أيٌّ منها هنا.

- خسارة.. كان من الممكن أن نحضر "ميشا" ليتعرف إلى أصدقاء جدد.

- ولكن لا يوجد هنا أي بِطريق، كما ترين.

- ما الذي بقي يعيش هنا إذًا؟

رأى "فيكتور" لافتة أمامه، قرأها:

"مركز المعلومات العلمية"

- تعالي ندخل هنا. ربما تعلمنا أشياء عن البطاريق.

- هيا بنا.

طرق باب المبنى المكون من طابق وحيد، ثم دخلا. وجد سيدة شابة انتشر الشيب في شعرها على الرغم من عمرها الصغير، تجلس إلى مكتب، ومنشغلة بقراءة مجلة علمية:

- معذرة.

- أي خدمة؟

- كنت قد أخذت أحد البطاريق منذ عام. هل لديكم أي معلومات مفيدة عن البطاريق؟

- كلا. كان هناك رجل مسؤول عن البطاريق. فصلوه لما وزعوها. فأخذ كل الكتب والمجلات معه. "بيدبلاي". عجوز خبيث.

- قلتي إن اسمه "بيدبلاي"؟ أين يمكن أن أعثر عليه؟

- جرب الذهاب إلى شؤون العاملين.

ثم نظرت في اهتمام إلى "سونيا"، وسألتهما:

- أعتقد أنكما غير مهتمين بالثعابين؟ لا يتم عرض الزواحف والبرمائيات إلا بدايةً من يناير.

- شكرًا، لا نهتم لذلك. أين شؤون العاملين؟

- وراء الحمامات، ثم إلى اليسار من المدخل الرئيسي.

ترك "سونيا" تنتظر عند المدخل، وذهب ليحصل على عنوان "بيدبلاي". طوى الورقة التي دوَّن فيها العنوان، ووضعها في محفظته، وأمسك بيدها، واتجها إلى محطة المترو.

26

سيذهب إلى رئيس التحرير.
هكذا قرر في الصباح التالي؛ لأن لديه الكثير مما كتبه، هذا أولًا، أما ثانيًا، فرغبة منه في أن يعترف - أو بالأحرى يوضح - حقيقة ما جرى لـ"ياكورنيتسكي"، وسبب ما جرى. سأل "سونيا" على الإفطار:

- هل يمكنكِ أن تبقي هنا وحدكِ؟

- بابا قال لي: لا تُدخلي أحدًا من الباب. لا تردي على التليفون. ابتعدي عن الشبابيك. أليس كذلك؟

- صحيح. ولكن اليوم يمكنكِ أن تنظري من الشباك.

- هل يمكنني؟

صاحت في سعادة، وهي تركض نحو باب البلكون، وتلصق وجهها بزجاجه.

- ماذا ترين؟

- الشتاء.

- سأعود سريعًا.

اضطر إلى أن يبرز بطاقته الصحفية ثلاث مرات، قبل أن يصل إلى مكتب رئيس التحرير، الذي بادره:

- كيف حالنا؟

أجابه "فيكتور" دون اقتناع:

- بخير. أحضرت لك نصوص النعي هذه.

مَدَّ رئيس التحرير يده بدوره وأمسك بملف ضخم:

- وهذا من "فيودور".

استجمع "فيكتور" شجاعته، وقال:

- "إيجور". يبدو لي أنني أنا السبب في مصرع "ياكورنيتسكي".

- لا تقل ذلك! أتظنُّ أنك على ذلك القدر من الأهمية؟

نظر "فيكتور" إليه في حيرة. فقال رئيس التحرير بنبرة ودودٍ:

- لا تخف. أنا أعرف كل شيء.

- كل شيء؟

- بل أكثر من كل شيء. حياة "ياكورنيتسكي" كانت محفوفة بالمخاطر على كل حال.. فلا تقلق! ولكن من الأفضل أن تبوح بما يقلقك، بالطبع.

حدق "فيكتور" إليه قلقًا، وهو عاجز عن الاستيعاب.

- هي ليست نهاية العالم إذًا.

- ولماذا تكون نهاية العالم؟ لمجرد أننا جماعة صغيرة لها صلات حكومية؟ أرِح بالك. لا علاقة لك بالموضوع، وحتى لو كانت هناك أي صلة فإنها صلة غير مباشرة. لنتناول القهوة.

طلب رئيس التحرير القهوة من السكرتيرة، ثم حدَّق إلى "فيكتور"، وهو يعض على شفته.

- لا زوجة؟ ولا صديقة؟

- حاليًا.. لا.

علَّق رئيس التحرير في أسف، وهو يهز رأسه:

- أُشفِقُ على حالك. المرأة هي مصدر القوة في الجهاز العصبي للرجل. أظن أن الوقت قد حان لتقوية جهازك العصبي.. هذه دعابة.

أحضرت السكرتيرة القهوة.

وضع "فيكتور" نصف ملعقة سكر، ولكن القهوة كانت مركزة ولا تزال مُرَّة، وذكرته برحلته إلى "خاركيف". سأل فجأة، وقد تذكر حوارهما السابق على تلك الرحلة:

- هل عليَّ أن أذهب إلى "أوديسا"؟

- كلا. هناك من يعارض بشدة أن نتورط في الأقاليم.. ولدينا ما يكفينا هنا. فلا داعي للقلق. انظر إليَّ، أنا هادئ ورابط الجأش، برغم أنهم قتلوا سائقي! صدقني.. الحياة أتفه من أن نهتم بها.

نظر إلى رئيس التحرير، في بدلته الفخمة، ورابطة عنقه الفرنسية، ودبوسها الذهبي، وذلك الكرسي الذي يجلس عليه، فانتابه الشك في كلام رئيسه.

- لا بد أن نتقاسم زجاجة شراب معًا قبل العام الجديد، ما رأيك؟ هذا إن كنت ترغب، هاه؟

- بالطبع.

نهض رئيس التحرير، وقال بما يعني انتهاء المقابلة:

- جيد. سوف نكون على اتصال.

27

"ستيبان ياكوفليفيتش بيدبلاي"..
يعيش في الطابق الأرضي في عمارة رمادية شاحبة مبنية على الطراز الستاليني، قرب محطة مترو "سفياتوشينو". نفض "فيكتور" الثلج عن حذائه، وهو يرن جرس الباب.

أتاه صوت عجوز مرتجف، بعد لحظات أدرك "فيكتور" أن الرجل كان ينظر عبر العين السحرية:

- من تريد؟

- "ستيبان ياكوفليفيتش".

- ومن أنت؟

- حصلت على عنوانك من حديقة الحيوان. وأتيت لأستفسر عن البطاريق.

كان هذا الرد الأبله كافيًا فيما يبدو لأن ينفتح الباب، ليظهر عجوز غير حليق، يرتدي زيًّا رياضيًّا أزرق من الصوف. سمح له العجوز بالدخول.

دخل إلى غرفة معيشة واسعة، في وسطها ترابيزة مستديرة عتيقة الطراز، حولها كراسي. قال له صاحب الشقة، من دون أن ينظر إليه:

- اجلس.. مهتم أنت بالبطاريق، هاه؟

الآن ينظر إلى "فيكتور" مباشرة، وفي الوقت نفسه أخذ يتحسس بأصابعه إلى أن عثر على عقب سيجارة فوق مفرش الترابيزة. مَدَّ يده التي تحمل عُقب السيجارة إلى أسفل الترابيزة، قبل أن يرفعها مرة أخرى وليس فيها العقب. بادره "فيكتور":

- آسف على إزعاجك، ولكنني رغبتُ في أن أسألك عمَّا إذا كانت لديك أي كتب عن البطاريق.

- كتب؟

بدا الانزعاج على وجه "بيدبلاي"، وهو يردف:

- لماذا تكون لديَّ؟ لديَّ أعمالي الخاصة التي لم تنشر.. لقد درست البطاريق على مدار أكثر من عشرين عامًا.

- أنت عَالِم حيوان إذًا؟

تعمد أن تحمل نبرة السؤال الكثير من التبجيل للرجل. وهكذا صارت نبرة العجوز أكثر هدوءًا:

- بل عَالِم بطاريق، على الرغم من أنه ليس بالتخصص الشائع بالطبع. ما الذي يهمك في البطاريق تحديدًا؟

- لديَّ بِطريق، ولكنني لا أعرف أي شيء عنه. وأخشى ألا أكون قد عاملته على النحو السليم.

- لديك واحد؟ رائع! من أين حصلت عليه؟

- من حديقة الحيوان، منذ عام. عندما كانوا يوزعون الحيوانات الصغيرة.

- من أي نوع؟

- الملكي. أظنُّ هذا. أسميته "ميشا". كامل النمو، ولكن طوله لا يتجاوز ارتفاع هذه الترابيزة.

عض "بيدبلاي" على شفتيه، وهرش لحيته الخفيفة، وهو يقول:

- "ميشا"! من حديقتنا؟

- أجل.

- لم أكن لأفعل ذلك لو كنت مكانك! لماذا تأخذ حيوانًا مريضًا؟ أتذكر أنهم كانوا سبعة. وكان أصغرها وأصَّحها "أديلا" و"زايتشيك".

- مريض بماذا؟

- متلازمة الاكتئاب. وعلة في القلب. وهو عيب خلقي في رأيي. تلك هي حالته.

تنهد في أسى عميق.

- وما الذي يمكننا القيام به؟ هل له علاج؟

ضحك "بيدبلاي"، قائلًا:

- هذه نكتة جيدة! إنهم لا يعالجون البشر، ناهيك عن البطاريق! عليك أن تدرك أن مناخنا قاتل لتلك المخلوقات القطبية. أفضل شيء له أن يعيش في بيئته الطبيعية. افهم كلامي، حتى لو ظهر لك أنني أبالغ، وتخيل أن تكون بِطريقًا وتجد نفسك في مكان تصل فيه درجة الحرارة صيفًا إلى أربعين مئوية، وتنخفض إلى عشر درجات تحت الصفر في الشتاء. هذا عذاب! في جسده طبقتان من الدهون لتحميه من البرد الشديد، علاوة على مئات الأوعية الدموية التي تقوم بالدور نفسه. فهمت كلامي؟ إنه يعاني حرارة داخلية مفرطة. يحترق داخليًّا. جميع البطاريق التي كانت في الحديقة عانت متلازمة الاكتئاب.. وهم حاولوا أن يقنعوني أن لا علاقة للبطاريق بهذا المرض النفسي. ولكنني أثبتُّ لهم صحة كلامي! وسوف أثبته لك أنت! أما عن مرض قلبه، فهل يمكن للقلب أن يحتمل حرارة داخلية فائقة إلى ذلك الحدِّ؟

أنصت "فيكتور"، وتحمس "بيدبلاي"، وصار يشيح بيده بكل قوة وفي كل اتجاه. وكان يتحول من وقت لآخر إلى طرح أسئلة بشكل خطابي، قبل أن يسكت لحظاتٍ يلتقط فيها أنفاسه ثم يواصل. لم يسبق لـ"فيكتور" أن استمع في جلسة واحدة إلى كل هذا الكم من المعلومات؛ فترة الحضانة.. السيكولوجيا.. خصائص التزاوج.. ولكنه قرَّر في النهاية أن يوقف ذلك الفيض المعلوماتي، قبل أن يصيبه الصداع.

هكذا قاطع واحدة من أسئلة "بيدبلاي" البلاغية، قائلًا:

- معذرة، ولكن هل يمكنني أن أقرأ ما كتبته؟ عن البطاريق؟

- طبعًا. سأحضره.

ذهب العجوز إلى الغرفة المجاورة - وكان ما يظهر منها عبر الباب الموارب يدلُّ على أنها غرفة المكتب - ومالَ بجسده فوق مكتب كبير، وأخذ يبحث في الأدراج. وفي النهاية، اعتدل وعاد وهو يحمل ملفًا ممتلئًا. قال وهو يضعه فوق الترابيزة:

- ها هو ذا. لن تهتم بكل ما فيه، طبعًا، ولكن يسعدني أن تجد ما يهمك فيه.

سأله "فيكتور"، وهو متلهف لأن يبدي شُكره:

- هل يمكنني أن أقوم لك بشيء في المقابل؟

قال عَالِم البطاريق في لا مبالاة هادئة:

- نعم. أحضر لي كيلوجرامين من البطاطس عندما تعيد إليَّ هذه المخطوطات.

28

مَرَّ أسبوعان.
اعتادت "سونيا" أجواء الشقة الجديدة، ولم تعد تسأل كثيرًا عن أبيها. واعتاد "فيكتور" وجود "سونيا"، كما اعتاد وجود "ميشا" من قبل. ولكنه ظَلَّ يفكر في أبيها، وهو لا يدري ما الذي جرى له، أو ما إذا كان على قيد الحياة من الأصل.

النافذة تطل على الشتاء المسيطر في الخارج. وفي بعض الأمسيات، حينما يكون الظلام قد حل ولم يعد هناك الكثير من الناس، كان يصطحب "سونيا" و"ميشا" للتمشية. وكانوا يتمشون في المساحة الواسعة بين أبراج الحمام الثلاثة، والثلج يذوب تحت أقدامهم. وأحيانًا ما كان يقترب منهم أحد الكلاب الضالة ركضًا، ولكنه كان بدلًا من العواء يتشمم الحيوان الغريب الصامت الذي لا يتفاعل معه. وكانت "سونيا" تسارع بإبعاد الكلاب بحركات من ذراعيها؛ وتسعد عندما ترى الكلب يركض مبتعدًا.

قرأ "فيكتور" كل ما كتبه "بيدبلاي". وعلى الرغم من أنه لم يفهم الكثير مما قرأه، إلا أنه وجد معلومات مفيدة. دون ملاحظات عن أهم الصفحات، ثم صوَّرها لدى أقرب مكتبة، ثم احتفظ بالمخطوطة في مكان آمن بالمطبخ، لأجل أن يعيدها إلى صاحبها في أقرب فرصة.

كما كان يحقق تقدمًا في العمل. فقد حوَّل المعلومات التي وجدها في الملف الذي أعطاه إياه رئيس التحرير إلى اثني عشر نصًّا جديدًا، واحتفظ بها عند

النافذة حتى تحين الساعة الموعودة. رغم أنه وجد صعوبة في التوفيق بين استخدام المعلومات التي أكدها رئيس التحرير وبين أسلوب كتابته الخاص. وكان هذا يعني تغيير إيقاع السرد، وإدراج المعلومات بطريقة موجزة، أقرب إلى أن تكون مقولات مأخوذة عن الفقيد نفسه.

عندما أكمل تلك المجموعة، خطر له لأول مرة أن نصًّا واحدًا فقط منها - وبطريقة لم يخطط لها - كانت صاحبته ضحية لا تشوبها شائبة، ولا يوجد في ماضيها أي مما يستدعي الشك. "يوليا بارخومينكو"، المغنية، تلك التي خطرت بباله. والتي تنتابه الآن شكوك حولها. وأرجع ذلك إلى التورط في اختفاء فنانة أخرى.. وحبها للراحل "ياكورنيتسكي".. كلا. لا وجود لما هو طاهر وبريء، وإلا مات من دون أن ينتبه إليه أحد، ومن دون نعي. بدت له الفكرة مقنعة. أولئك الذين يستحقون نعيًا يكونون من بين من حققوا شيئًا في حياتهم، ودافعوا عن أفكارهم، وعندما يجدون أنفسهم في خِضم معركة، فلن يكون من السهل أن يلتزموا بالأمانة والصدق. واليوم، تندلع جميع المعارك بسبب المكاسب المادية على كل حال. والمجنون صاحب الأفكار يندثر، ليبقى المجنون البرجماتي.

اتصل به "سيرجي"، ضابط الحي، عدة مرات، وقد خرجا يوم الأحد السابق في نزهة أخرى إلى جليد "الدنيبر"، كانت "سونيا" الوجه الجديد هذه المرة. أمضوا وقتًا رائعًا. سبح "ميشا" داخل الحفرة الجليدية من دون ملل. وتناول "فيكتور" و"سيرجي" كوكتيل القهوة والكونياك، جالسين على اللحاف. وتناولت "سونيا" بيبسي وحلويات. وراقب ثلاثتهم حفرة الجليد التي كان "ميشا" يتقافز منها وكأنما عضه حيوان، فيطير في الهواء مسافة متر قبل أن يهوي إلى الجليد من جديد بطريقة كوميدية، ويركض عائدًا نحو اللحاف. فتقوم "سونيا" بتجفيفه بعناية شديدة، وبعدها يعود مسرعًا بمشيته الكوميدية إلى الحفرة من جديد.

بقوا هناك حتى قرب الغروب، ثم كان عليهم أن يسرعوا عائدين عبر جليد مجرى "الدنيبر" إلى حيث تقع السيارة "الزابوروزيتس"، عند حدائق الكنيسة.

وبدأ الأسبوع الجديد كالمعتاد، فيما عدا أن "فيكتور" صار واعيًا لشغل إضافي، أهمه أنه مسؤول عن "سونيا"، وأنهم أصبحوا يأكلون طعامًا أفضل نتيجة لذلك. واعتاد شراء علب زبادي الفواكه الألمانية، والخضراوات الطازجة، والجمبري المجمد للبطريق، الذي كان يسعد به كثيرًا. سألته "سونيا" ذات يوم:

- لماذا ليس لديك تليفزيون؟ ألا تحب الكرتون؟

- نعم، لا أحبه.

أجابته الصغيرة في حزن:

- ولكنني أحبه.

اقترب العام الجديد. وتزينت الأشجار بالأنوار، وظهرت الألعاب الجديدة في المحلات. كانوا يجهزون في شارع "كريشاتيك" الشجرة الوطنية الكبرى من أشجار التنوب الصغيرة. ساد الرضا وجوه الناس، وقللت الصحف من نشر أخبار المعارك والقنابل. وبدا الأمر كما لو أن "كييف" بأكملها في إجازة.

كان "فيكتور" قد اشترى بالفعل هدية العام الجديد لـ"سونيا"، ولكنه أخفاها في الدولاب. عروسة باربي. اختارا معًا شجرة التنوب الصغيرة، وعادا بها إلى الشقة وقاما بتزيينها بالأشرطة الملونة والدمى القديمة التي وجداها في الصندرة. سألها:

- هل تؤمنين بوجود الجد "فروست"؟

أجابته مندهشة:

- طبعًا.. ألا تؤمن به؟

- بلى، أؤمن.

- انتظر بداية العام الجديد إذًا.. سوف يهديك هدية.

29

سونيا" وحدها في الشقة".
تركها "فيكتور" وذهب ليشتري البقالة، ثم ذهب إلى "بيدبلاي".

وجده يرتدي البدلة الرياضية الزرقاء نفسها، وحافي القدمين. سأله العجوز، وهو يتفقد سعيدًا ما اشتراه له:

- هذا كله لي؟ لم يكن عليك أن تكلف نفسك.

كان ملف مخطوطاته موضوعًا في قاع حقيبة المشتريات، وأخرجه "فيكتور" وأعطاه إياه شاكرًا.

- هل استفدت منه؟

- كثيرًا.

- اجلس. سوف أعد لك الشاي.

اتضح له أنه كان يعد الشاي الأخضر. ناوله "بيدبلاي" الكوب، ثم وضع علبة صغيرة بها سكر قوالب، لا يعرف "فيكتور" من أين أتى به، فهو لم يعد يراه إلا في الأفلام القديمة. وضع قالب سكر في الشاي، ورمق العلبة الصغيرة. وأدرك العجوز ما يفكر فيه، فقال:

- إنه لا يفسد، كما ترى. اشتريت ثلاث علب منذ زمن بعيد، ولا يزال لدي البعض منه.. في ذاك الزمان كان هناك طعم لكل شيء. أتذكر مطعم ساندويتش "لحوم العاصمة"؟

هز "فيكتور" رأسه بمعنى أنه لا يعرفه. فقال العجوز في أسى:

- فاتك زمن الرخاء بالتأكيد. يشهد كل قرن من قرون الزمان خمسة أعوام رخاء، بعدها ينهار كل شيء، لكنك لن تشهد الخمسة المقبلة - أو هكذا ظني - أما أنا فبالتأكيد لا. ولكنني أخذت نصيبي من الحياة الحلوة. كيف حال البِطريق؟

- بخير. تذكر أنك حكيت لي عن سيكولوجية البِطريق.

- بالفعل.

- إلى أي حد يفهم ما حوله؟

- إنه لماح في تمييز الحالة المزاجية العامة لدى الإنسان والحيوان بالطبع. وخلاف ذلك، فإنه غير متسامح على الإطلاق. ويتذكر الذكريات السعيدة بشكل قوي. ولكن سيكولوجيته، كما تعلم، أشد تعقيدًا من ذاكرة القط أو الكلب. إنها حيوانات أذكى بكثير، وانطوائية أكثر، وقادرة على إخفاء المشاعر والأحاسيس.

تناول "فيكتور" الشاي، وكتب رقم تليفونه على قصاصة. ناولَ عَالِمَ البطاريق إياه، وهو يقول:

- اتصل بي، في حال رغبت في أي شيء.

- أشكرك جزيل الشكر. وأنت، اتصل بي وتعالَ لتزورني.

نهض العجوز، فلاحظ "فيكتور" أنه لا يزال حافي القدمين. فسأله:

- ألا تخشى أن تصاب بالبرد؟

- كلا. هذه هي اليوجا. لدي كتاب مصور عنها، وجميع الهنود من ممارسي اليوجا حفاة.

أجابه "فيكتور"، وهو في طريقه إلى الخارج:

- هذا لأن لا شتاء في الهند، كما أنهم لا يمتلكون ثمن الأحذية. مع السلامة.

صاح العجوز مودعًا إياه:

- سنة جديدة سعيدة.

30

ثلاث علب هدايا كبيرة.
انتبه "فيكتور" إليها، قبل رأس السنة بعدة أيام، ذات صباح عندما استيقظ مبكرًا، وجدها أسفل الشجرة في غرفة المعيشة. نظر إلى "سونيا"، فوجدها لا تزال نائمة.

من وضعها هنا؟ "سونيا" أم الجد "فروست"؟

اغتسل، ثم ذهب إلى المطبخ، فوجد فوق الترابيزة ظرفًا. كان هذا، لرجل لم ينل كفايته من النوم أصلًا، فوق الاحتمال.

تذكَّر الحلم الذي راوده تلك الليلة، كان يختبئ من شخص ما، وسط ظلام الليل في شقة غريبة، وينصت إلى صمت يتخلله وقع أقدام، وصرير أبواب تنفتح. وجد الظرف مغلقًا. فتحه بمقص، وقرأ النص المكتوب بخط اليد بأحرف كبيرة:

"عامًا جديدًا سعيدًا! سلامي إلى "سونيا". هناك تحت الشجرة هدية لها وهدية لك. وهناك هدية أخرى لقريني البِطريق، ستجدها في الفريزر. أتمنى أن تجدوا الراحة في العام الجديد. آسف لعدم تمكني من الحضور.. إلى اللقاء – ميشا".

تطلّع "فيكتور" حوله، في حيرة، وكأنه يتوقع أن يجد أمامه صاحب ذلك الظرف.

راح ليتفقد باب الشقة، ولكنه وجده، كالمعتاد، مغلقًا بكل إحكام من الداخل.

هز كتفيه في استغراب، وهو يعود إلى المطبخ. ما يجرى غريب وغامض، أصابته حيرة شديدة. لم تعد أقفال الباب كافية لحمايته، نائمًا كان أو مستيقظًا، ولن تكون لها أي جدوى حال الخطر.

بدا مندهشًا أكثر منه خائفًا. في الخارج، سقط الثلج من السماء إلى الأرض كالقطن، بينما تلاعبت به الرياح الخفيفة.

31

فرحت "سونيا".
عندما استيقظت، ووجدت هدايا أسفل الشجرة.

- أرأيت؟! الجد "فروست"! لقد حضر.

اكتفى "فيكتور" بابتسامة كبيرة.

وبعد الإفطار، رغبت "سونيا" في أن تفتح الهدايا، ولكنه منعها. وقال لها وهو يجلس أمامها:

- لي هدية أنا أيضًا، ولكننا لا نزال في يوم 29! تبقى يومان!

هكذا وافقت على مضض على أن تنتظر.

وبينما انشغلت "سونيا" في سرد حكاية خيالية على مسامع "ميشا" في غرفة النوم، أعدَّ "فيكتور" القهوة، ثم جلس والفنجان في يده إلى الترابيزة، مواجهًا الشباك.

لقد شهد في هذا العام الذي أوشك على نهايته الكثير من الغرائب. كما أن نهايته غريبة، بها الكثير من الأحاسيس والمشاعر المتضاربة. لم يعد يشعر بالوحدة، ولكنه لا يزال في شبه وحدة. هي شبه حياة. حملته أمواج حياته

الخاملة إلى جزيرة غريبة، حيث صار يتحمل مسؤوليات جديدة، ومنحته مالًا لينهض بتلك المسؤوليات. ولأنه بقي خلال كل هذا بعيدًا عن الأحداث بل وعن الحياة ذاتها، فإنه لم يبذل جهدًا في فهم كل ما يجري من حوله. ولكن هذا تغيَّر، مع ظهور "سونيا" في حياته. ومع ذلك، تبقى الحياة من حوله مبهمة، وكأنه لم يكن حاضرًا بالفعل في تلك اللحظات التي شهدت الأحداث المبهمة.

أضحى عالمه الآن قائمًا عليه و"ميشا" البِطريق و"سونيا"، لكنه عالم صغير وهشّ، عُرضة لكل شيء. لن يمكنه حمايته في حال وقع أي حادث. لا يتعلق الأمر بافتقاره إلى أسلحة أو مهارات قتالية، ولكن يتعلق بأن عالمًا يفتقد إلى ترابط قوي بين عناصره، وإلى الوحدة، وإلى المرأة، يعني أن انهياره احتمال أكيد. "سونيا" ابنة شخص آخر، وهي في رعايته مؤقتًا، أما بِطريقه فهو مريض حزين، وليس لديه ما يدفعه إلى إظهار امتنانه له، كما قد يفعل كلب لسيده، فيظهر سعادته كل مرة يطعمه فيها سمكة مجمدة.

قطع جرس التليفون حبل أفكاره، فذهب إلى غرفة المعيشة ليرد على المتصل. كان رئيس التحرير.

- سأزورك لنصف ساعة. أوكيه؟

- حسنًا.

اتجه إلى غرفة النوم، حيث وجد "سونيا" والبِطريق يقفان أمام بعضهما البعض. كانت تسأل البِطريق بنبرة ملحة:

- فهمت ما قلته لك؟

الاثنان في الطول نفسه. أكملت البنت كلامها:

- جميل.. سأصنع لك الآن بدلة جديدة بلون مختلف..

ابتسم، وابتعد عن الغرفة على أطراف أصابعه. وحضر رئيس التحرير بعد مرور ساعة، وأمضى وقتًا طويلًا في نفض الثلج عن معطفه الطويل، قبل أن يدخل الشقة. وصاح بابتهاج، وهو يضع حقيبة ثقيلة على الأرض:

- سنة جديدة سعيدة!

توجَّها إلى المطبخ، وهناك أخرج "إيجور" من حقيبته زجاجة شامبانيا، وليمونة، وعلبتين، وعدة أكياس.

طلب لوح التقطيع وسكاكين، وقاما معًا بإعداد السوسيس، والجبن، وخبز الباجيت. ثم أحضر "فيكتور" كأسين. سأله رئيس التحرير، وهو يرمق رأس السمكة في الوعاء الموضوع عند الترابيزة الصغيرة قرب البوتاجاز.

- ألديك قطة؟

- لا. بِطريق.

- بالتأكيد تمزح.

- كلا. تعالَ وانظر بنفسك.

سبقه "فيكتور" إلى غرفة النوم. فسأله رئيس التحرير عندما رأى البنت:

- ومَن هذه؟ ألم تخبرني أنك غير متزوج؟

بادرته البنت، وهي تحدق بالغريب:

- أنا "سونيا"! وهذا "ميشا".

تمتم "فيكتور" بصوت خافت، حتى لا تسمعه "سونيا":

- هي ابنة صديق.

اندهش رئيس التحرير، وقال له بعد أن عادا إلى المطبخ:

- خسارة أنني لم أعرف مسبقًا بوجود البِطريق. ابني الصغير لم يره إلا في الكتب.

- أحضره في المرة القادمة.

- المرة القادمة؟ آه.. بالطبع. كان هذا العام بصحبة زوجتي في إيطاليا. الأجواء أهدأ هناك.

رجع رئيس التحرير برأسه إلى الوراء، ونظر إلى السقف. كان حريصًا على ألا تطير السدادة بقوة وهو يفتح زجاجة الشامبانيا. صبَّ الكأسين، وهو يكرر التهنئة:

- سنة جديدة سعيدة!

- سنة جديدة سعيدة!

رفعا الكأسين ليتلامسا، ثم سأله رئيس التحرير بعد أن شرب كأسه:

- أين تحتفظ به؟

- هنا.

أومأ رئيس التحرير برأسه متفهمًا، وهو يتعامل بشوكته مع محتويات طبقه، ثم نظر إلى "فيكتور" بشيء من القلق:

- اسمع.. أتيتك بأخبار لا تتلاءم مع أجواء العيد.. ولكن هكذا الأمور.

نظر إليه "فيكتور" باهتمام.

- إنهم يسعون وراءك. يرسلون من يسأل داخل الجريدة عن كاتب النعي. ومن الجيد أن أحدًا لا يعرف، سواي و"فيودور".

- ولماذا يسعون ورائي؟

سأله "فيكتور"، وهو يضع كأسه التي لم تفرغ بعد.

أجابه رئيس التحرير، بنبرة مترددة، وهو يتأنى في اختيار كلماته:

- الحقيقة.. أنك يا "فيكتور" أنجزت لنا عملًا كبيرًا. أقصد أنك نفذت كل ما هو مطلوب منك بالضبط. ولكن الحقيقة أيضًا أن كل نعي كتبته احتوى، بخلاف استعراضه لآثام الفقيد الراحل، على تلميحات تشير إلى الأشخاص المستفيدين من وفاته. وأعتقد أن هناك من انتبه إلى ذلك وأدرك أن هناك مصائر مرتبطة ببعضها البعض. ولكننا أنجزنا الكثير. وسوف ننجز ما هو أفضل. ولكن علينا أن نغير التكتيك.

سأله "فيكتور"، بنبرة بدت خيبة الأمل واضحة فيها، بينما انشغل عقله بتذكر أين سمع بموضوع المصائر ذلك من قبل:

- تتحدث بصيغة الجمع. هل تقصد الجريدة؟

- كلا. نحن الاثنان فحسب. كما أننا لا أتحدث عن الجريدة هنا، بقدر ما أتحدث عن جماعة من الناس تسعى إلى تنظيف هذه البلاد قليلًا.. لا تقلق، فنحن سنعمل على حمايتك من أولئك الساعين خلفك. يبقى عليك أن تتوارى عن الأنظار لبعض الوقت، حتى يُرتِّب رجالنا أوراقهم.

- ومتى هذا؟

أجابه بنبرة هادئة:

- كلما كان أسرع، كان أفضل.

جلس "فيكتور" مغمومًا إلى الترابيزة. فبادره رئيس التحرير:

- لا تخف. فالخوف خطر. الأفضل أن تفكر في مكان مناسب تلجأ إليه.. ولا تخبرني به. وهذا في مصلحتك. أوكيه؟

أومأ "فيكتور" برأسه بطريقة آلية.

عندئذ، رفع رئيس التحرير كأسه، قائلًا:

- والآن، لنشرب نخبًا على أمل أن تسير الأمور في مصلحتي. فلو حدث ذلك، أعدك بأنك لن تندم أبدًا.

رفع "فيكتور" كأسه مترددًا. وشجعه رئيسه، صائحًا:

- اشرب! المكتوب مكتوب. اشرب ما دامت الشامبانيا قد وُجِدت!

شرب "فيكتور" كأسه، وكاد يختنق من الشراب بسبب توتره. بينما نهض "إيجور إلفوفيتش"، وتناول معطفه استعدادًا للرحيل، وهو يقول له:

- ما كنت لأحضر إليك لو أنني لا أقدر لك حق قدرك. اتصل بي في غضون أسبوع. ليس مطلوبًا منك أي عمل حاليًا، وكل ما عليك هو أن تسافر إلى مكان لطيف، وتتوارى عن الأنظار.

أغلق باب الشقة خلفه، وابتعدت خطواته، لتترك "فيكتور" لصمت غير مريح، وأفكار تكاثرت في رأسه الغائمة بفعل الكَمِّ الكبير الذي شربه من الشامبانيا. وقف يحدق بالباب المغلق، وهو يحاول مجددًا أن يحل لغز دخول الرسالة والهدايا التي أرسلها "ميشا" الإنسان إلى داخل الشقة هذا الصباح. نادته "سونيا" من غرفة المعيشة:

- أنكل "فيك"! أنكل "فيك"! لقد ضربني!

عاد إلى واقعه، وهرع إليها. سألها، وهو يراها راقدة على الأرض:

- ما الذي حدث؟

أجابته بابتسامة ماكرة:

- لا شيء.

إلى جوارها، يقف "ميشا"، وقد التفت إليه. اعترفت له:

- كنت أحاول أن أعرف ما في علبة الهدية، فأوقعني. لم أكن أنظر في علبتي أنا. بل علبتك.

مَدَّ لها يده، وهو يقول:

- انهضي.

- هل يمكن أن أخرج؟

- كلا.

- تمشية بسيطة.

ما المانع؟ هناك الكثير من الأطفال في الخارج.

- حسنًا، ولكن لا تغيبي طويلًا، ولا تبتعدي عن العمارة.

ألبسها المعطف الفرو، ولفَّها بالكوفية جيدًا، وتركها تخرج، ثم جلس إلى ترابيزة المطبخ، غارقًا في أفكاره. يحمل له كل يوم جديد مفاجآت غير سارة، ولا يفارقه اليوم إلا بعد أن يكون قد شحن عقله بالهواجس والمخاوف.

32

فزع مفاجئ.
انتابه، وهو لا يزال يجلس إلى الترابيزة، وقد فرغت زجاجة الشامبانيا، وكذلك طبق السوسيس. تبدَّدت عن عقله غمامة الثمل، وصار أكثر سيطرة على ساقيه.

نظر من الشباك. كانت الرؤية واضحة، بعد أن تناقَصَ كَمُّ الثلج الذي يهطل من السماء، وهناك في الأسفل، رأى بضعة أطفال من سكان العمارة يلهون في الثلج.

استند إلى الترابيزة الصغيرة، وبرز رأسُه من الشباك، وهو يصيح:

- "سونيا"! عودي! بسرعة!

التفت إليه الأطفال المنشغلون ببناء قلعة ثلجية في الأسفل، ولكنهم بقوا واقفين في أماكنهم.

أخذ يبحث بعينيه عن "سونيا"، ولكنه لم يجدها. أسرع يرتدي معطفه والقبعة الفرو، وخرج مسرعًا من الشقة. لاحظ وجود مجموعة أطفال أخرى على مسافة من العمارة، فركض نحوهم، ولكن "سونيا" لم تكن معهم.

سمع صوت محرك سيارة يدور وراءه، فاستدار سريعًا. كانت سيارة مرسيدس قديمة تتحرك من عند العمارة المقابلة. دفعه هاجس إلى أن يلاحقها. لحق بها، بعد أن تفادى السقوط أرضًا بمعجزة، عند المنعطف قبل أن تخرج إلى الطريق الرئيسي، ولكنه تعثر وسقط على مؤخرة السيارة، بشكل انتبه له قائد السيارة، الذي توقف بها. نظر داخل السيارة، فلم يجد بها إلا قائدها. حاول أن يهدئ أعصابه، وهو يعود إلى العمارة.

كم كان مغفلًا ليسمح لها بالخروج بعد كل ما قاله رئيس التحرير!

هناك، أعلى السُّلَّم، وجدها واقفة تستند إلى باب الشقة. صاح بها في غضب:

- أين كنتِ؟

- في شقة "آنيا"، في الطابق الأرضي. كانت تُريني عروستها "سيندي".

فكَّر أن يعاقبها بطريقة ما، ولكنه عدل عن ذلك بعدما استعاد هدوءه بالتدريج.

- جائعة؟

- هل أكل "ميشا"؟

- كلا.

صاحت في سعادة:

- لنأكل معًا إذًا.

33

تليفون من ضابط الحي.
بعد العشاء، اتصل به "سيرجي فيشبين ستيبانينكو"، يخبره أنه سوف يحضر إليه في أقرب وقت. وبالفعل حضر، ودخلا المطبخ، وأغلقا الباب، وبقيت "سونيا" مع "ميشا" في غرفة المعيشة.

فكَّر "فيكتور" في أن يختلق قصة يقنع بها "سيرجي"، ولكنه انتبه في النهاية إلى أن هذا غباء. ما حاجته إلى الكذب والخداع، بينما هو ينشد مساندة الرجل له؟ وهكذا، حكى لـ"سيرجي" ما جرى، وإن كان بطريقة غير مترابطة، وتفهم الرجل كلامه.

- لديَّ منزل ريفي. ضمن مجموعة منازل حكومية. هناك تليفون عمومي، وفي المنزل مدفأة، وتليفزيون، وهناك مخزون أطعمة في الصندرة.. ما رأيك أن تحتفل بالعام الجديد هناك؟

سأله "فيكتور" في حذر:

- ولكن أين ستحتفل أنت به؟

- سنكون معًا. أنت تعرف أن عدد معارفي محدود.

- ووالدتك؟

- هي لا تهتم أبدًا بموضوع العام الجديد هذا. كما أنها لا تحب المناسبات الاحتفالية. متى تودُّ أن نذهب؟

- كلما كان أسرع كان أفضل. اليوم؟

رمق "سيرجي" الشباك. أوشكت السماء على الإظلام التام. نهض قائلًا:

- اتفقنا. ولكن عليَّ أن أذهب إلى منزلي سريعًا؛ لأحضر المفتاح. سأعود خلال ساعة. حضِّر أشياءك.

رافقه "فيكتور" إلى خارج الشقة، ثم عاد إلى غرفة المعيشة. جلس قبالتها، وقال لها:

- "سونيا". سوف نخرج.

- ومتى سنعود؟

- بعد أيام.

- وماذا لو أتى الجد "فروست" ولم يجدنا؟

- معه المفتاح. سوف يترك الهدايا أسفل الشجرة.

- هل ستكون هناك شجرة في ذلك المكان؟

هز "فيكتور" رأسه بلا. فقالت في عناد:

- لن أذهب إذًا.

تنهد بنفاد صبر. وقال لها بنبرة صارمة:

- اسمعي. عندما يعود بابا، سأخبره أنكِ لم تسمعي الكلام.

- وأنا سأخبره أنك لم تكن تقرأ لي أي حكايات، أو تشتري لي آيس كريم.

كانت هجمة مرتدة مفاجئة، ألزمت "فيكتور" الصمت. ولكنه قال بعد لحظات:

- أوكيه. معكِ كل الحق. يمكننا أن نصطحب شجرتنا معنا، لو أحببتِ هذا.

- هل سيأتي "ميشا" معنا؟

- طبعًا.

- أوكيه.

ساعَد كلٌّ منهما الآخر على رفع الزينة والدُّمى عن الشجرة، وتجميعها، ثم لفِّ الشجرة بالورق. وقالت "سونيا" بإصرار:

- سوف نأخذ الهدايا أيضًا.

أطاعها "فيكتور"، ووضع الهدايا في كيس تسوق. ولكن "سونيا" صاحت فجأة:

- انتظر. ماذا إذا حضر الجد "فروست" ولم يجد الشجرة، أين سيضع هداياه؟

شعر بالتوهان. لم يجد إجابة لها معنى. وأحس بالتعب. ولكن "سونيا" كانت تفكر بصوتٍ عالٍ:

- ربما كان الحل أن نرسم شجرة على الجدار، حتى يعرف أين يضع الهدايا. هل لديك لون أخضر؟

- كلا، سنترك له رسالة قصيرة في المطبخ ونطلب منه أن يضعها على الترابيزة.

فكرت "سونيا" في الاقتراح، قبل أن تقول:

- أسفلها أفضل.

- لماذا؟

- حتى لا يراها أحد.

حُلت المشكلة. وكتب "فيكتور" الرسالة. وقرأتها "سونيا" حرفًا حرفًا، قبل أن تعتمدها بإيماءة استحسان من رأسها.

سمعا صوت سيارة تتوقف بالأسفل. ونظر "فيكتور" من الشباك، في ظلمة آخر النهار، وتبين له أنها السيارة "الزابوروزيتس".

بادر بحمل الشجرة، بعد أن ربط غلافها الورقي بحبل غسيل، وكذلك حمل كيس الهدايا واللعب، وحقيبة وضع فيها الطعام الذي كان في الفريزر، ثم عاد إلى الشقة، حيث اصطحب "سونيا" وحمل "ميشا" مغادرًا من جديد. قال له "سيرجي" الجالس في السيارة:

- أحضرت بطانيات كافية. سوف يكون المنزل باردًا إلى أن تقوم المدفأة بمهمتها.

جلس "ميشا" مع "سونيا" في الخلف، و"فيكتور" إلى جوار السائق. احتمى "ميشا" بجسد "سونيا" عندما سمع صوت المحرك ينطلق. رآهما "فيكتور" في المرآة على هذا النحو، فنبه "سيرجي" كي ينظر بدوره. عدَّل الأخير وضع المرآة حتى رآهما بوضوح، وارتسمت على وجهه ابتسامة مرهقة، بينما انطلقت السيارة مسرعة.

34

كُشْك حراسة.
كان عند مدخل مساكن الضباط، حيث خرج منه عسكريان يرتديان زيًّا مموهًا، وتفحَّصا السيارة "الزابوروزيتس" بكل اعتناء. خفض "سيرجي" زجاج الشباك، وقال لهما:

- مسكن 7.

أخبره أحدهما بالدخول. توقَّفا عند منزل صغير له سقف مائل من الجانبين. وترجَّل "سيرجي" من السيارة. ألقى "فيكتور" نظرة على الكرسي الخلفي، قبل أن يخرج من السيارة بدوره. كانت "سونيا" نائمة. قال له "سيرجي":

- لقد جهَّزت المصيدة منذ فترة.

- أي مصيدة؟

- مصيدة اللصوص.

انحنى قليلًا عند باب المنزل، ومع صرير الألواح الخشبية في الأرض، كان يحرك شيئًا ما، قبل أن يقول باطمئنان:

- أمان. يمكننا الدخول الآن.

فتح الباب المؤدي إلى بلكون أنيق ذي تقسيمات زجاجية، وأضاء المصابيح، ليسقط نورًا أصفر على الثلج أمام المنزل والسيارة. استيقظت "سونيا"، وفركت عينيها، ثم التفتت إلى "ميشا"، الذي كانت تحيطه بذراعها طوال الرحلة. وعندما أحسَّ البِطريق أنها استيقظت، التفت إليها، وبقيا ينظران إلى بعضهما البعض.

بعد قليل، كانوا جميعًا داخل غرفة باردة، أمام مدفأة لم تشتعل بعد، ولا يوجد سوى مصباح واحد في السقف، ينير المكان، ويبعث فيه بصيصًا من الدفء.

جلب "سيرجي" الخشب، ووضعه داخل المدفأة، ثم أدخل ورقة مشتعلة من جريدة.

بدأ اللهب يتصاعد، ومعه سرت الحرارة شيئًا فشيئًا. دبَّ النشاط في "ميشا" فجأة، بعد أن كان يقف في ركن بعيد في الغرفة، واقترب ليقف أمام النار. بينما تثاءبت "سونيا"، وقالت:

- أنكل "فيك"، متى سنحضر الشجرة؟

- صباح الغد.

كانت غرفة صغيرة، بها كنبة وكرسي حول المدفأة، وهناك سرير عند الحائط الأيسر.

أجلسا "سونيا" إلى الكنبة قرب النار، وغطاها ببطانيتين. سرعان ما استغرقت في النوم، وبقي "فيكتور" و"سيرجي" و"ميشا" مستيقظين قرب المدفأة المشتعلة. وضع "سيرجي" المزيد من الخشب. وخيَّم الصمت، ما عدا صوت الخشب الرطب الذي تلتهمه النيران. جلس "فيكتور" على طرف الكنبة، بينما جلس "سيرجي" في الكرسي، وبالطبع بقي "ميشا" واقفًا. قال "سيرجي":

- سأعود إلى العمل غدًا. سوف أحضر شامبانيا وبعض اللحم عندما أعود.

أومأ "فيكتور" برأسه من دون تعليق. ثم قال بصوت شارد:

- الأجواء هادئة هنا. مناسبة للكتابة.

- لا أحد يمنعك عنها.

- الحياة..

- الحياة بسيطة.. ونحن مَنْ نجعلها مُعقَّدة.. تعالَ لندخن في البلكون.

تبعه "فيكتور"، رغم أنه لا يدخن. كان البلكون أشبه بالثلاجة، مقارنة بدفء غرفة المعيشة، ولكنه منعش. نفث "سيرجي" دخانه نحو السقف، وهو يقول:

- اسمع.. ما دمتَ مُتورِّطًا في تلك المشكلة، فلماذا تتحمل مسؤولية تلك البنت؟

- يبدو أن والدها متورط بدوره. ولا أعرف إلى أين ذهب. فماذا بيدي أن أفعلَ؟

هزَّ "سيرجي" كتفيه في حيرة. وقال بعد لحظات، وهو ينظر من الشباك:

- آه.. لسنا الوحيدين هنا.

كان هناك نور يصدر عن شُبَّاكين في الخارج وسط الظلام. سأله "سيرجي" فجأة:

- هل ترغب في بعض البراندي؟

- بالتأكيد!

ذهبا إلى المطبخ الصغير البارد جدًّا، والذي لا يحتوي إلا على كاونتر فوقه سخان طعام كهربائي وترابيزة وكرسيان. رفع "سيرجي" قطعة من الأرضية الخشبية ومَدَّ يده بكشاف إلى "فيكتور":

- أنِر لي الطريق.

نزل "سيرجي" فيما يشبه القبو، قبل أن يمد يده لأعلى بزجاجتي براندي باردتين، ثم صعد. جلسا في المطبخ، وصَبَّا كوبين من البراندي، وشربا بابتهاج، مستمتعين بالصمت. وأخذ "سيرجي" يضع المزيد من الحطب في المدفأة. سأله "فيكتور" عندما عاد:

- نائمة؟

- بالفعل.

- و"ميشا"؟

- يراقب النار. لنشرب نَخْبَ العام الجديد.

تنهد "فيكتور"، وهو يقبض على كوبه. وجده باردًا للغاية. بينما تابع "سيرجي" كلامه:

- يقول صديق جزَّار لي.. لنشرب في صحة الأيام حتى لا تسوء أكثر. لقد عِشنا أيامًا أجمل.

35

الصباح التالي.
غادر "سيرجي" إلى "كييف"، وملأ "فيكتور" جردلًا بالمياه من ماسورة تمر عبر المساكن. وبعد أن وضع البراد على السخان الكهربائي، ألقى نظرة على غرفة المعيشة. كانت نار المدفأة قد خمدت خلال الليل، ولكن بقي الدفء في الغرفة ومعه رائحة الصنوبر المحترق. "سونيا" نائمة وعلى وجهها ابتسامة. بينما وقف "ميشا" يتأمل كومة الرماد السوداء داخل المدفأة.

ضرب "فيكتور" على فخذه وفتح الباب مواربًا، فانتبه "ميشا" إليه. ناداه هامسًا:

- تعالَ.

أتاه "ميشا" متباطئًا، وهو لا يزال ينظر خلفه إلى المدفأة.

- جائع؟ بالطبع أنت كذلك. هيا نخرج.

أخرج من كيس التسوق سمكتي موسى، ووضعهما على العتبة الخارجية للمنزل.

- هيا!

خرج "ميشا" إلى العتبة، وتلفت يمينًا ويسارًا، وكأنه يتعرف إلى المنطقة. نزل إلى حيث الثلج، وتقدَّم في مسار دائري نحو الأشجار، ولكنه وجد نفسه أمام ماسورة المياه، فاستدار، كانت آثار قدميه أشبه بتلك التي تتركها الزلاجات المتقوسة، فتصنع أشكالًا هندسية غير منتظمة فوق صفحة الثلج البيضاء. عندما عاد إلى السُّلَّم، مال على الدرج، وتعامَلَ مع العتبة العلوية على أنها مائدة طعام، عليها السمكتين.

راقب "فيكتور" بابتهاج ذلك العرض الحركي الذي قدمه البِطريق دون قصد منه، قبل أن يعود إلى المطبخ ويعد الشاي. وألقى نظرة على غرفة المعيشة، ليجد "سونيا" لا تزال نائمة، فلم يرغب في إيقاظها.

جلس مع كوب الشاي إلى ترابيزة المطبخ. هناك، عند إفريز الشباك، زجاجتا البراندي، واحدة نصف فارغة، والأخرى ممتلئة. طافت بعقله أفكار رومانسية وسط هذا الصمت، امتزج فيها الشوق إلى كتابة رواية بذكريات راودته من الماضي. أحسَّ فجأة وكأنه خارج البلاد، بعيدًا عن وجوده بالأمس. تخيل ذلك المكان الخارجي الذي هو فيه وكأنه واحة سكون، هناك في سويسرا، حيث الثلوج وراحة البال، وحيث يخشى كل كائن أن يعكر صفو الصمت، فلا يشدو أي طائر أو يغرد، وكأنه غير راغب في ذلك من الأصل.

سمع صوتًا عند باب البلكون، فراح يستطلع الأمر، ليجد أمامه "ميشا"، الذي أحنى رأسه بطريقته الكوميدية عندما رأى "فيكتور"، وكأنه يريد أن يخبره أنه معجب بهذا المكان الجديد. حيث الطعام الحلو والبرد الذي يعشقه. هكذا فهم "فيكتور"، وهو سعيد بارتفاع الروح المعنوية لصديقه.

سرعان ما استيقظت "سونيا"، وكان هذا إيذانًا بتبدد الصمت وزوال التأملات. عليه أن يُجهِّز لها الإفطار، قبل أن يعاود نصب شجرة العام الجديد.

استغرقت الشجرة منه أكثر من ساعة، قبل أن يقف ليتأملها وهي في زينتها مجددًا، أشرطة ملونة وألعاب صغيرة، فوق الثلج الهش. صارت الشجرة في كامل أبهتها، بينما وقف "ميشا" إلى جواره يراقب كل شيء.

دخلت "سونيا" لترى كيف تبدو الشجرة بنظرة من داخل المنزل.

- أعجبتكِ؟

- طبعًا!

تفقد ثلاثتهم الحديقة الصغيرة، ثم عادوا إلى المنزل. أعاد "فيكتور" إيقاد المدفأة، وجلست "سونيا" في الكرسي، ومعها قلم رصاص وكتاب ألغاز عثرت عليه.

عاد "سيرجي" في الخامسة مساءً، وقت أن حلَّ الظلام وعم الدفء الغرفة، وأنار المصباح الأصفر المكان. وضع كيسا تسوق في البلكون، ثم عاد ليركن السيارة خلف المنزل. قال لـ"فيكتور" وهو يناوله الصحف:

- اشتريتُ لك صحف اليوم. وكذلك أحضرت زجاجتي شامبانيا وزجاجة فودكا؛ لتحمينا من البرد. يكفي هذا؟

- جميل.

تصفح "فيكتور" أولى الصحف.

"مقتل مصرفي"

"محاولة اغتيال نائب وزير".

أعادته العناوين إلى الواقع. وحاول أن يفكر وهو يمر بعينيه على أسطر الخبرين. لم يُذكِّره اسم المصرفي بأي شيء. ليس من بين من كتب عنهم من قبل. ولكنه تذكر اسم نائب الوزير، الذي أُصيب بجراح في رأسه. قال له "سيرجي":

- اسمع يا صديقي العزيز. أنا لم أحضر لك الصحف حتى أراك على هذا النحو!

وضع "فيكتور" الصحف أرضًا إلى جوار المدفأة، وهو يقول:

- ستفيدنا في إشعال المدفأة.

- معك حق! الأخبار التي لا تريح البال لا تستحق القراءة!

التفت إلى "سونيا" الجالسة في الكرسي، وسألها:

- وماذا تفعلين أنتِ؟

- أرسمُ بوتاجازًا.

- ارِيني ما رسمتِ.

تأمل الرسم، قبل أن ينظر إليها في دهشة:

- لماذا جعلتِ النيران سوداء؟

- هي ليست كذلك، بل رمادية. أنا لم أجد إلا هذا القلم الرصاص.

- أعتقد أنكِ لم تبحثي جيدًا. أوكيه.. غدًا نبحث معًا. لا بد من وجود ألوان أخرى، فقد اشترتها ابنة أختي لي.

أعدا بطاطس مقلية، وصنعا وجبة عشاء شهية، ثم أناما "سونيا". فقالت لهما:

- أنا لن أنام. سأراقب النار، وعندما تنطفئ سأناديكما.

تركاها، وجلسا في المطبخ، وأحضرا زجاجتي الأمس من عند الشباك. صب "سيرجي" كأسين، ثم ألقى بالزجاجة الفارغة أرضًا، وهو يقول:

- لم يتبقَ سوى يوم وينتهي العام. لن يتغير شيء، سوى أننا سنكون في عام جديد.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولكنهما بقيا جالسين، وقد أشعلا السخان الكهربائي ليدفئ المطبخ. وعلى الرغم من أن الزجاجة الثانية قد فرغت، فإنهما لم يشعرا بأنهما ثملان. ووحده الكسل هو الذي منع "سيرجي" من الذهاب إلى القبو ليحضر المزيد.

وفجأة، دوَّى انفجار في الخارج، ارتجت له الشبابيك، وأصابهما بالفزع. تساءل "فيكتور" في قلق:

- هل نخرج لنرى ما حدث؟

ألقى "سيرجي" نظرة على غرفة المعيشة. كانت "سونيا" تتمتم بكلمات غير مفهومة وهي نائمة. بينما هدأت النار قليلًا.

- أجل.

وجدا "ميشا" واقفًا عند العتبة العلوية. همس "فيكتور"، بعد أن مال إليه:

- يبدو أنه نائم.

سمعا أصواتًا. كلمات غير مفهومة، ولكنها تنمُّ عن تحفز أصحابها. وسمعا صوت انسحاق الثلج أسفل أقدام أشباح غير ظاهرة في الظلام. توالى سطوع الأنوار

من المنازل المتباعدة، لتسقط على أرض الشارع الرئيسي، وإن كانت لم تنجح في تبديد سطوة الظلام. ناداه "سيرجي"، بصوت حاسم:

- تعالَ.

- ولكن إلى أين؟

- لن نبتعد.

وصلا إلى ممشى يفصل بين منزلين، وسارا فيه لقرابة مئة متر، قبل أن يتوقفا وينصتا بانتباه.

- هناك!

أشار "سيرجي" في اتجاه أصوات تعالت وسط صمت الليل.

وبينما كانا يتجهان نحو مكان الأصوات، شاهدا ضوء كشاف قوي يتحرك ببطء فوق الثلج. سمعا صوتًا أخنف يصيح:

- إنه رجل محلي.

همس "سيرجي":

- هذا الجد "فانيا"، حارس المنطقة.

تقدَّما نحوه. وسأله "سيرجي":

- ما الذي جرى يا "فانيا"؟

- القصة القديمة نفسها.

كان الحارس يُوجِّه ضوء الكشاف الكبير إلى جثة راقدة وسط الثلج. شاهد "فيكتور" الثلج وقد اصطبغ بلون الدم، والجثة دون ساق وذراع. كانت الذراع المقطوعة على مسافة من الجثة.

كان هناك رجلان، أحدهما طويل يرتدي زيًّا رياضيًّا، والآخر أقصر قليلًا، له لحية ويرتدي سويتر طويلًا. يقفان في صمت.

سمعوا صوت أحدهم يركض باتجاههم فوق الثلوج. رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا مخادعًا، ويقبض على مسدس آلي. توقف أمامهم وهو يلهث:

- ما الأمر؟

أجابه الحارس، وهو يسلط الضوء على الجثة الراقدة ووجهها مدفون في الثلج:

- ها هو.. محلي. يبدو أنه لص. ولكنه تعثر في لغم أرضي.

هدأ العسكري، وهو يبعد المسدس:

- آه.. لقي مصرعه وهو يحاول السرقة.

برز كلب فجأة وسط الظلام، كان يركض متلهفًا، إلى أن وصل إلى الحارس، فأخذ يحوم حوله وهو يهز ذيله، ثم أخذ يتشمم الجثة، قبل أن ينتبه إلى الذراع، فيلتقفها بفمه، ويركض مرة أخرى إلى قلب الظلام. صاح الحارس بغضب:

- "دروتشوك"! توقف، عليك اللعنة!

تردد صدى كلماته الغاضبة في المكان، فلم يتحدث مرة ثانية وفضَّل الصمت. سأله العسكري:

- هل نبلغ بما حدث؟

بادره الرجل الملتحي صاحب السويتر:

- ولماذا؟ نحن لا نريد أن نفسد إجازتنا في البحث والتحري وجمع الأدلة!

عندئذ، تساءل الحارس:

- فماذا نفعل إذًا؟

اقترح العسكري، بعد لحظات تفكير:

- نغطيه بالثلج، ونتركه في مكانه، إلى أن تنتهي الإجازة.

شعر "فيكتور" بشيء يحتكُّ بساقه من الخلف، فظن أنه الكلب "دروتشوك"، بعد أن عاد من مهمة دفن طعام الغد الذي اقتنصه، لكنه التفت فوجده "ميشا".

جثا "فيكتور" أمامه، وسأله:

- كيف وصلت إلى هنا؟ ظننتك نائمًا.

هنا، اقترب منه العسكري، وسأله في استغراب:

- ما هذا الذي بصحبتك؟ لا تقل لي إنه بِطريق؟ واو! إنه كذلك بالفعل.

ضحك الرجل صاحب الزي الرياضي، وهو يصيح:

- يا للعجب!.. يا للعجب!

وفي لمح البصر، كان الكل يتجمع حول "ميشا"، وينسى أمر الجثة الراقدة فوق الثلج. سأله الملتحي:

- هل هو أليف؟

- ليس تمامًا.

وسأله الحارس:

- ماذا أسميته؟

- "ميشا".

صاح الحارس بصوته المبحوح:

- آه.. "ميشا" الصغير.

ثم التفت إلى من هم حوله:

- حسنًا، هيا اذهبوا لحالكم. وأنا سأتولى الأمر. ولكن ليحضر أحدكم لي زجاجة شراب.

وعده صاحب السويتر:

- اتفقنا. تعالَ إليَّ صباح الغد.

هكذا، عاد "فيكتور" و"سيرجي" و"ميشا". وتساءل "فيكتور":

- هل يعمد كل السكان هنا إلى وضع ألغام؟

- ليس كلهم. وليس في كل مكان. أنا أستخدم مصيدة إنسانية نوعًا ما.

- من أي نوع؟

- السرينة التي تستخدم في السفن الكبيرة. كافية لأن توقظ كل من في المنطقة ومن في القرى المجاورة أيضًا.

يذوب الثلج تحت أقدامهم. والنجوم الباردة مرصعة في السماء الرحبة العميقة فوقهم.

لم يكن هناك قمر، لذلك بدت السماء أشد ظُلمة من أي وقت.

توقف "سيرجي" عند عتبة المنزل، والتفت إلى "فيكتور" والبِطريق:

- ها نحن ذا. لقد زينت الشجرة! لم أنتبه إليها عندما وصلت أول مرة. أحسنت!

انفتح باب البلكون بصرير، وبعد ذلك ساد الصمت أرجاء المكان.

كانت الغرفة دافئة. وقد صارت النار مثل ضوء الجمر. بينما "سونيا" نائمة وهي تبتسم.

ولأن النوم بعيد عن عيونهم، عاد "فيكتور" و"سيرجي" للجلوس في المطبخ من جديد.

36

تحضيرات بداية العام الجديد.
انشغل بها "سيرجي" و"فيكتور" في الصباح التالي. بدؤوا في إنزال التليفزيون القديم من الصندرة. وضعاه في غرفة المعيشة الدافئة، وقاما بتشغيله.
ولحسن الحظ، كانت القناة تعرض كرتونًا، وهكذا سارعت "سونيا" بالجلوس في الكرسي الفوتيه.

ثم أحضرا من القبو برطمانًا كبيرًا وزنه ثلاثة لترات، يحتوي على قطع الخيار والطماطم والفلفل المخللة، وكذلك أحضرا زجاجتي براندي، وكيلوجرامين من البطاطس. قال "سيرجي"، وهو يفرك راحتيه في رضا:

- سأقوم الآن بإخراج اللحم، وإحضار الحطب.

مر الوقت بطيئًا، وكأن العام الذي سينقضي لا يتعجل الرحيل.

قطَّع اللحم ووضعه في التتبيلة، ثم جهَّز الحطب ووضعه في كومة صغيرة إلى جوار الشجرة، وأنجزا المهام الصغيرة الأخرى، ولم تكن الساعة قد أشارت إلى منتصف اليوم بعد.

كان الجو مشمسًا رغم الثلوج. وقف "ميشا" على العتبة العليا يراقب سربًا صغيرًا من العصافير المغردة، وهي تهيم فوق الثلج. اقترح "سيرجي":

- ما رأيك أن نتناول كأسًا؟

هكذا جلسا إلى ترابيزة المطبخ؛ ليشربا البراندي. لامس "سيرجي" كأسه بكأس "فيكتور"، وصاح:

- نَخْبُ الزمن - لندعُ أن يَمُرَّ.

ويبدو أن دعوتهما قد استجيبت، فقد بدأ إيقاع الوقت يتسارع. وبعد الغداء، رقد الجميع للراحة عدا البِطريق، بل إن "سونيا" لم تعترض عندما أغلق "سيرجي" التليفزيون وأخبرها أنها ساعة الراحة.

عندما استيقظوا، كان الجو في الخارج مظلمًا والساعة تشير إلى الخامسة والنصف.

- أخذنا كفايتنا من النوم وزيادة!

هكذا صاح "سيرجي"، وهو يخرج بينما يفرك وجهه المنتفخ من إثر النوم ببعض الثلج حتى ينتعش، وبالتالي احمرَّ وجهُه مثل لون الجمبري.

وكذلك فعل "فيكتور".

خرجت "سونيا"، وهي تنظر في دهشة إلى العَمَّين البالغين اللذين يتحديان البرد، قبل أن تسارع بالعودة إلى الداخل.

شاهدت التليفزيون حتى التاسعة، بينما لعب "فيكتور" و"سيرجي" الكوتشينة. بعد ذلك، حضَّرا نيران المدفأة؛ تمهيدًا لإعداد قطع الكباب لليلة العام الجديد. طرحت "سونيا" عليهما فزورة، وهي تراقب ما يفعلانه عن كثب:

- ما الذي يجمع بين البِطريق والتليفزيون؟

تبادل "سيرجي" و"فيكتور" النظرات في حيرة. قبل أن يقول "فيكتور":

- كلاهما ينام وهو واقف؟

ولكنها قالت له، وهي تعود وتغلق باب البلكون وراءها:

- كلاهما أبيض وأسود.

مع تزايد وهج النار، بدأ "سيرجي" في غرس قطع اللحم في أسياخ الشوي. واكتفى "فيكتور" بمراقبته. وجد نفسه يسأله ساخرًا:

- هل سنأكلهما هذا العام، أم في العام القادم؟

- بل سنبدأ في أكلها هذا العام، ولن ننتهي منها إلا في العام التالي. لا تنسَ أنهما كيلوجرمان من اللحم!

بعد أن صار كل شيء جاهزًا، جلسا ليشاهدا فيلمهما القديم المفضل "الذراع الماسية". غفت "سونيا" قبيل نهايته، ورأى الصديقان ألا يوقظاها حتى العام القادم. نقلا ترابيزة المطبخ إلى البلكون، وكذلك السجَّان، حتى يزيد من دفء المكان، وفرشا الترابيزة بمفرش قديم. في منتصفها، وضعا زجاجتي شامبانيا، وزجاجة بيبسي حجمها لتران، ووزعا قطع السمك المُعلَّب، وشرائح الجبن والسوسيس على الأطباق؛ لتكتسب الترابيزة منظرًا جذابًا يسيل له اللعاب. قال "سيرجي"، وهو يحمل ترابيزة صغيرة:

- وهذه لأجل "ميشا".

وضعها إلى جوار ترابيزته، ثم أحضر صحنًا كبيرًا. وتنهد، قائلًا:

- مسكين "ميشا". حياته لا تعرف معنى الوجبة الساخنة، أو الشراب القوي. ربما علينا أن نقدم له كأسًا، وليحدث ما يحدث.

ولكن "فيكتور" اعترض بشدة، فبادره "سيرجي":

- آسف.. كنت أمزح. كم الساعة؟

- قرب الحادية عشرة.

- بدأ العام الجديد في موسكو بالفعل. فلنجلس. هل نوقظ "سونيا"؟ أم نشرب أولًا؟

- نشرب أولًا.

جلب "فيكتور" أيضًا زجاجة البراندي المفتوحة من المطبخ.

وبعد أن شربا بدرجة كافية، ذهب "فيكتور" ليوقظ "سونيا"، التي ما إن استيقظت حتى طلبت مشاهدة التليفزيون.

ورغم أن صوت المذيع كان بعيدًا عن البلكون، فَقَدْ أضفى شعورًا مريحًا غريبًا على هذه الاحتفالية الصغيرة. سألت، وهي تنظر إلى "ميشا" الواقف إلى جوارهما:

- لماذا لم تضعوا له طعامًا؟

هكذا أخرج "فيكتور" من كيس التسوق كيسًا ورقيًّا منتفخًا. وقال، وهو يتحسسه:

- هذه هي هدية العام الجديد له، وسوف نخرجها الآن.. بالنَّظر إلى أن العام الجديد قد بدأ بالفعل في القطب الشمالي!

أخرج من الكيس علبة، وكان من اللازم فتحها بسكين، وبعد ذلك أفرغ "فيكتور" محتوياتها في الصحن الكبير فوق الترابيزة المخصوصة.

وقف الكل في صمت، يحدقون للحظات بمحتويات الصحن. كان كوكتيلًا. أخطبوطًا صغيرًا، ونجمة بحر، وجمبري سوبر، وإستاكوزا، وكائنات أخرى كثيرة، وكلها تحمل بقايا الجليد. اقترب "ميشا" من الترابيزة ليتعرف إلى هديته، وبدا أنه مندهش بكل سعادة. صاح "سيرجي"، وهو يخاطبه في حسد:

- هذا يوم سعدك! هذه كمية وأنواع لم يسبق لي أن أكلت مثلها!

ولكن "فيكتور" همس له، قبل أن يلتفت إلى "سونيا" ويتأكد أنها لم تسمعه:

- ليس أنا، بل والدها.. هو من أحضرها.

لكنها لم تسمعه. كانت منشغلة بنجمة البحر، وتتحدث إلى "ميشا":

- هذه نجمة.. وهذه لا أعرفها.

كانت تشير إلى الإستاكوزا. جلسوا إلى الترابيزة. بدأ البِطريق في التهام الجمبري دون انتظار أي إشارة. وبينما تقرع أجراس متآلفة متجانسة الألحان في التليفزيون داخل غرفة المعيشة، أمسك "سيرجي" بزجاجة شامبانيا، وفتحها بقوة، وهو يهز الزجاجة. انطلقت السدادة كالرصاصة، وتدفقت الشامبانيا، قبل أن تحتويها الكؤوس. وصَبَّ "فيكتور" بيبسي لأجل "سونيا".

شاهدوا الألعاب النارية تنطلق من عند منازل بعيدة، لتتحول سماء الشتاء إلى درجات لونية بين الأخضر والأحمر. وامتزج دويُّ الرصاص بأصوات الألعاب النارية. وعلَّق "سيرجي" بخبرة:

- هذه طلقات بندقية "توكاريف" نصف آلية.

ها قد بدأ العام الجديد. وتصاعد لهب النار، لتنير الشجرة والزينة. ألعاب نارية هنا وهناك. وانشغل الكل داخل البلكون الزجاجي بطقوس الاحتفال، وشرب "سيرجي" و"فيكتور" الكثير من الشامبانيا، وكذلك شربت "سونيا" الكثير من البيبسي. ويبدو أنهم نسوا أمر "ميشا" لبعض الوقت، فبقي واقفًا عند الترابيزة الصغيرة. انتهى من الجمبري، وبدأ في التعامل مع الأخطبوط الصغير. وما إن خمدت النار وصارت كلهب الجمر، حتى بدؤوا في شَيِّ الكباب المتبل. ولكن "سونيا" صاحت في انتباه:

- والهدايا.. أين الهدايا؟

أخرج "فيكتور" من الكيس هديتا "ميشا" الإنسان، ملفوفتين، وهديته التي أحضرها لها، عروسة باربي. ولكنها قالت له:

- لا، ليس هكذا. ضعها عند الشجرة!

فعل مثلما أمرت. ولكنها نبهته:

- هناك هدية لك أيضًا!

عاد إلى البلكون، بعد أن وضع هداياها تحت الشجرة. وتحسَّس الكيس بحثًا عن هديته، واندهش من شكلها ووزنها. كان لا يزال يمسك بها في الكيس، بينما ينزع الغلاف الملون عنها، ثم عثرت يده على شيء معدني بارد. لم يعد لديه أي شك. كانت هدية "ميشا" الإنسان هي مسدس. وجد يداه ترتجفان. وبادر بإعادة الغلاف إلى مكانه، وأغلق الكيس. فصاحت "سونيا":

- أين هي؟ علينا أن نفتح الهدايا معًا!

ولكنه كذب عليها:

- نسيتُها. تركتُها في المنزل.

أطرقت "سونيا" بصبر فارغ، ونظرت إليه تلك النظرة التي يحدج بها الكبار الصغار الذين أساؤوا الأدب.

- حقًّا؟! رجل كبير مثلك، ينسى؟

ولكن "فيكتور" كان قد ذهب إلى "سيرجي" ليساعده، وهو جالس إلى النار يشوي الكباب. ونادى "سيرجي" على البنت:

- تعالي، واعرضي علينا هداياكِ يا "سونيا".

زحفت على ركبتيها إلى الشجرة، وجلست على الثلج. ثم أخذت تفتح الهدايا. ذهب "فيكتور" إليها في فضول مصطنع. قال لها بصوت صار أهدأ الآن:

- ما هذه؟

- لعبة.

- أريد أن أراها.

- ساعة تتكلم. كنت قد رأيت واحدة من قبل. اسمع.

تصاعد عن اللعبة صوت أنثوي معدني:

- الساعة الواحدة تمامًا.

تمتمت، وهي تتحسس الهدية الثانية:

- وما هذه؟ أنا لا أعرف.

ذهبت إلى "فيكتور"، وعرضت عليه الهدية:

- ما هذه؟

تناولها منها. كانت رزمة من الدولارات.

- ما هذه؟

أجابها "فيكتور"، بنبرة متحيرة:

- هذا مال.

اقترب "سيرجي"، متسائلًا:

- مال؟

وسرعان ما تراجع مصعوقًا عندما أدرك حجم المبلغ. وهمس:

- كلها أوراق فئة مئة!

تساءلت "سونيا":

- أيعني هذا أنني أستطيع أن أشتري أشياء الآن؟

- بالطبع؟

- تليفزيونا؟

- نعم.

- بيتًا صغيرًا لباربي.

- هذا أيضًا.

سحبت رزمة المال من يد "فيكتور":

- أوكيه. أعطني المال. سأحتفظ به داخل المنزل.

دخلت إلى البلكون، بينما نظر "سيرجي" إلى "فيكتور". فأجاب "فيكتور" سؤاله الذي لم ينطق به:

- من أبيها.

عض "سيرجي" على شفته في غيظ، وذهب ليعتني باللحم المشوي. وهمس لنفسه:

- محزن أن ليس لي بابا مثلها.

لم يكن "فيكتور" ليسمع ما قال. كان عقله منشغلًا بأمور أخرى. هذه الهدايا من "ميشا" الإنسان تستلزم مسؤوليات، أو هكذا يبدو له. تذكَّر طلبه الأخير.. "افدها بحياتك".. قال لنفسه إن هذا نوع من جنون العام الجديد. ما حاجتي أنا إلى المسدس؟ وما حاجتها هي إلى كل هذه الأموال؟

انتبه ليد "سيرجي" على كتفه، وهو يقول له:

- اسمع.. أرى أنك قد صرت مثل معلمها الخاص.. وهذه الأموال كي تعطيك هي إياها!

ثم ابتسم لها، مردفًا:

- الكباب جاهز. يمكننا أن نواصل الأكل..

ارتاح "فيكتور" لهذا التشتيت لانتباهه. وذهب إلى البلكون. كان "سيرجي" قد رفع الكباب عن النار بالفعل.

نادى "فيكتور" "سونيا" من غرفة المعيشة، ولكنه وجدها قد نامت، وقد أراحت يدًا على رزمة الأموال.

عاد "فيكتور" بكل هدوء، وهو يغلق الباب من خلفه. جلس إلى الترابيزة، وبحث بعينيه عن البِطريق. وجده واقفًا على مقربة منه. سأله "سيرجي" وهو يفتح الزجاجة:

- ما رأيك في تناول بعض الفودكا مع الكباب؟

رفع "فيكتور" يده بالكأس:

- فكرة جيدة!

بعد أن تناولا الكباب وشربا الفودكا، استغرقا في النوم، وقد تملكهما الإرهاق. بينما تصاعد في أرجاء المنزل الصامت صوت أنثوي معدني.. - "الساعة الثالثة تمامًا".

37

طرق على الباب.
أيقظ "فيكتور" في الحادي عشرة من صباح اليوم التالي. صوت مبحوح فرحان:

- جيرانكم هنا! عامًا جديدًا سعيدًا!

ذهب إلى الشباك، فرأى "فيكتور" في الخارج شابين وفتيات. بدا له الوجهين مألوفين. رآهما من قبل إلى جوار جثة اللص التي مزقها اللغم الأرضي. يبدو على الجميع الإرهاق، وخاصة الفتيات.

طرق الملتحي على الشباك، وهو يحمل زجاجة الشامبانيا:

- هاي! نريد أن نرى البِطريق!

أيقظ "فيكتور" "سيرجي":

- لدينا زوار!

تمتم "سيرجي" نعسانًا:

- زوار؟

ولكنه سرعان ما انتبه خلال دقيقتين.

بعد برهة، كان الكل جالسًا إلى ترابيزة البلكون. كان هناك الكثير من الطعام، وعلى الشواية فوق النار الخامدة قطع الكباب التي لم يتم شَيُّها، والتي تجمدت الآن. بعد أن تهللوا لرؤية البِطريق، وداعبوه، تناولوا الطعام، وشربوا، وهم يتبادلون النِّكات. بدأ "فيكتور" يشعر بالإنهاك من هذه الأجواء الاحتفالية، وتمنى أن تنتهي. ولكن الوقت مر ببطء. وفجأة، رغبت إحدى الفتيات الثملات في العودة إلى منزلها، وهكذا سرعان ما غادر الضيوف.

دلَّك "سيرجي" وجهه ليستفيق، وهو ينظر إلى "فيكتور"، ويقول في أسف:

- العمل في الغد.

فكَّر "فيكتور"، لا يمكنه العودة إلى المدينة الآن، والوقت لا يزال مبكرًا على الاتصال برئيس التحرير. سأله:

- هل يمكنني أن أبقى هنا بضعة أيام؟

- ابقَ كما يحلو لك! بل إن هذا في مصلحتي.. فلن يجرؤ أحمق على اقتحام المنزل.

وفي المساء، وبرغم معاناته من صداع شديد، رحل "سيرجي" إلى "كييف".

- إذا احتجت إليَّ، اتصل. هناك تليفون عمومي، في نهاية الشارع الرئيسي، قرب بيت الحارس. سأعرِّف الأمن أنك هنا. ولكن توخَّ الحذر، خصوصًا مع هذا المبلغ الذي معك.. عليك إخفاءه عن الأعين.

أومأ "فيكتور" برأسه، متفهمًا.

هكذا انطلق "بالزابوروزيتس". وهكذا خيَّم الصمت مجددًا. إلا من صوت التليفزيون الخافت في غرفة المعيشة. سألها "فيكتور"، وهو يجلس إلى جوارها على الكنبة:

- الأفضل أن أحتفظ بالمال معي لأجلك؟

- خذ. إياك أن تضيعه.

وضع الدولارات مع المسدس الهدية في كيس التسوق، ووضع الكيس في القبو.

38

بضعة أيام.
مرت هادئة دون أحداث مُقلِقة، إلا وصول أفراد الميليشيا المحلية لأجل نقل رفات اللص المنكوب، وفي تلك الأثناء لزم الجميع منازلهم، بطلب من الحارس "فانيا". كان الحارس قد سأل "فيكتور":

- نحن لا نرغب في أن ندلي بشهادتنا، أليس كذلك؟

ووافقه "فيكتور" الرأي.

وبعد رحيل الميليشيا، أخبر "فانيا" السكان أن الأمور على ما يرام. وسأله "فيكتور":

- أليست هناك مشكلة لصاحب المنزل هناك؟

ابتسم العجوز "فانيا" في مكر، قائلًا:

- الكولونيل؟ لقد عانى ما يكفيه من مشكلات. أظنُّ أنهم وضعوا اللغم له، وليس للص. هو من ألمح لي بذلك، وقال إن مثل هذه الأمور تحدث كثيرًا هذه الأيام.

قضت "سونيا" أغلب وقتها أمام شاشة التليفزيون، ولم تكن تخرج إلا إذا كان يعرض برنامجًا مملًا لها؛ لتلهو مع البِطريق في البلكون.

وجد "فيكتور" صعوبة في التأقلم مع هذا الخمول. يريد أن يفعل أي شيء، حتى ولو كان تافهًا. ولكن هذا ليس باليسير في هذه المنطقة، وشعر بالضيق، فلجأ إلى الجلوس مع "سونيا" أمام التليفزيون، ولكنه لجأ إلى المطبخ بعد فترة، حيث كان قد أعاد الترابيزة والسخان الكهربائي. وفي النهاية، لم يعد يحتمل، فطلب من "سونيا" ألا تغادر المنزل، وذهب ليتصل برئيس التحرير من التليفون العمومي. أجابته السكرتيرة.

- أريد "إيجور إلفوفيتش".

سمع صوتًا مألوفًا يتدخل في المكالمة:

- سوف أرد أنا يا "تانيا". آلو؟

- إنه أنا، "فيكتور". هل يمكنني العودة الآن؟

تظاهر رئيس التحرير بالاندهاش:

- لم أكن أعرف أنك غادرت المدينة. طبعًا.. فكل شيء على ما يرام. يمكنك أن تأتي إليَّ في أي وقت تشاء. لديَّ ما أعرضه عليك.

اتصل "فيكتور" بـ"سيرجي" ليطلب منه أن يأتيه ليأخذه في أقرب فرصة.

عاد إلى المنزل وهو أسعد حالًا. ها هو يشعر أخيرًا بعبق العام الجديد، حتى وإن كانت الإجازة قد انقضت. يسمع صوت انسحاق الثلج تحت قدميه، ولكن أذنه تطرب له الآن. أخذ ينظر حوله إلى المكان الذي لم ينتبه إليه كثيرًا، ذلك الجمال الذي يبثه الشتاء في الأشجار، فتتحول إلى قطع فنية بيضاء منحوتة، وطيور الدغناش التي تهيم فوق الثلوج التي تحمل آثار أقدام قط، أو هو كلب؟! ومن أعمق أعماق الذكريات المنسية، تذكَّر دروس التاريخ الطبيعي في المدرسة، والتي تعلموا فيها منذ زمن بعيد كيفية التعرف على نوع الحيوان من آثار أقدامه، وطافت في مخيلته تلك الصورة في كتاب المدرسة.. آثار أرنب بري.. كان يتقافز.. مسرعًا..

أتاه من الماضي صوت المعلمة وهي تقول: "عندما يريد الأرنب البري الهروب من مطارده، فإنه يتقافز مبتعدًا.. بسرعة كبيرة!".

39

فوق الدولاب.
وضع كيس التسوق الذي يحتوي على المسدس والدولارات، وترك "سونيا" في المنزل مع "ميشا"، قبل أن يتجه إلى مكتب رئيس التحرير.

قابله رئيس التحرير بابتسامته السمجة، وهو جالس في كرسيه، وقدم له القهوة، وهو يسأله عن كيفية احتفاله بالعام الجديد، دون أن يأتي على ذِكْر العمل. وعقب القهوة، خيَم صمت عميق، فكان من الحماقة تبديده بأي حوار بليد، ولكن رئيس التحرير أخرج له ظرفًا كبيرًا من درج المكتب. كان يثبت عينيه على "فيكتور"، وهو يخرج منه مجموعة من الصور ويناوله إياها.

- دَقِّق النظر. ربما تعرفهم.

في الصور جثتان بكامل ملابسهما الأنيقة. شابان في الخامسة والعشرين تقريبًا، صريعين فوق أرضية شقة، وكأنهما مستلقيان في نوم عميق. ذراعا كل منهما إلى جوار جسده، وساقاه غير ملتويين، وليس على وجه أي منهما أثر لفزع أو خوف. وجهان هادئان غير مباليان.

- ألم تتعرف عليهما؟

- كلا.

- لقد كانا يبحثان عنك! انظر!

ناوله صورتين أخريين.

رأى "فيكتور" صورته وهو جالس إلى ترابيزة صغيرة في المقهى عند دار أوبرا "خاركيف"، وصورة أخرى وهو في الشارع، في "خاركيف" أيضًا. علَّق رئيس التحرير، قائلًا:

- يفتقران إلى الخبرة. كان مسدس كاتم للصوت كفيلًا بهما. وهما لم يصلا إليك على كل حال. ولكن النيجاتيف لا يزال مع أحدهم في "خاركيف".. ولكنني لا أعتقد أنهم سيرسلون آخرين. خذ حذرك وحسب.

ناول "فيكتور" ملفًّا لكتابة نصوص نعي جديدة. وقال، بينما يودع "فيكتور" إلى الخارج، وهو يربت على كتفه:

- هيا.. سارع بالعودة إلى العمل.

40

لم يكن هناك ثلجًا في يناير.
يبدو أن الشتاء قد تكاسل عن إنتاج المزيد من الثلوج، واكتفى بما أنتجه في ديسمبر. فلا تزال الأرض مغطاة بالكثير منه. ولا تزال زينة رأس السنة على واجهات المحلات، وإن كانت روح العام الجديد قد تداعت، وعاد الناس إلى روتينهم اليومي وعقدوا الآمال على مستقبل جديد. بينما كان "فيكتور" منشغلًا بالتعامل مع الملف الذي تسلمه. صار الآن يستلم كل شيء من رئيس التحرير مباشرة، بعد أن تقاعد "فيودور" قبل إجازة العام الجديد.

ينمو فهرس نصوص النعي بشكل منتظم. وكانت الملفات الجديدة بشأن مديري مصانع مجالس إدارة شركات مساهمة كبرى ورؤسائها. جميعهم أو أكثرهم متهم بالسرقة والاختلاس وتحويل الغنائم إلى بنوك غربية. وبعضهم متورط في تجارة خامات محظورة، وآخرون تورطوا في أعمال صناعة غير مشروعة. الحقائق كثيرة، ولكن القليل منها هو ما ميزه القلم الأحمر لرئيس التحرير. لم تكن مهمة "فيكتور" سهلة. إما أن الأسلوب يستعصي عليه، وإما هو الإلهام؛ لأنه كان يهدر الساعات الطويلة وهو جالس بكل توتر إلى الآلة الكاتبة. ورغم أن النتيجة كانت تسعده في كل مرة، ولكنها كانت تتحقق بعد إنهاك ذهني وبدني بالغ، ولم يكن يجد طاقة كافية للتعامل مع "سونيا" أو البِطريق. وهكذا، وبعد إلحاح كبير من "سونيا"، اضطر إلى شراء تليفزيون

ملون عقب عودتهما من منزل الضابط. وهما الآن يجلسان أمامه، ولكن "سونيا" هي التي تسيطر على ريموت الجهاز. وأعلنت منذ البداية:

- إنه تليفزيوني أنا.

ولم يكن أمام "فيكتور" سوى الاستسلام، خاصة وأن المال مالها في الواقع.

انشغل "ميشا" بدوره بهذا الجهاز العجيب، وأحيانًا ما كان يقترب حتى الشاشة، ليحجب الرؤية عن "فيكتور" و"سونيا". وعندئذ تقتاده "سونيا" بلطف إلى غرفة النوم، حيث يحب أن يقف أمام المرآة ليتأمل صورته. وكان "فيكتور" يندهش من قدرتها على السيطرة عليه بكل سهولة. ومع أن هذا لا يبعث على كثير من الدهشة في الحقيقة، خاصة أنها تمضي معه وقتًا أطول مما يمضيه هو. وقد اصطحبته أكثر من مرة في تمشية حتى أكشاك الحراسة. وذات مساء، رن جرس الباب، ورأى عبر العين السحرية رجلًا غريبًا، فتحفزت أعصابه. تذكر على الفور تلك الصور التي رآها للصريعين اللذين كانا يتعقبانه. تنهد الغريب بصوت مسموع، رجل في الأربعين من عمره تقريبًا، وضغط على الجرس مرة أخرى، بينما وقف "فيكتور" ساكنًا متوترًا على الجانب الآخر من الباب.

أتاه صوت "سونيا" من خلفه، وهي في غرفة المعيشة:

- افتح الباب. هناك من يرن الجرس!

سمع صوت الرجل في الخارج:

- افتح. لا تخف شيئًا.

- من تريد؟

- أريدك أنت! هل هناك غيرك؟! مِمَّ تخاف؟ أنا من طرف "ميشا".

فتح "فيكتور" الباب، وهو يتساءل عن "ميشا" الذي يقصده الرجل.. البِطريق أم الإنسان؟

وجد رجلًا نحيفًا، غير حليق الوجه، يميز وجهه أنف حاد، يرتدي معطفًا صينيًّا طويلًا، وقبعة صوفية سوداء. أخرج الرجل ورقة مطوية من جيبه، وناول "فيكتور" إياها. قال مبتسمًا:

- بطاقة استدعائي.

سرت في جسد "فيكتور" رعشة جليدية، وهو يفتح الورقة، ويقرؤها. كان نص النعي الذي كتبه عن صديق "ميشا" الإنسان، والذي أصبح عدوه: "سيرجي شيكالين". سأله الغريب بصوت بارد:

- تعرفت عليَّ الآن؟

- أنت "سيرجي شيكالين".

لمح "فيكتور" البنت واقفة عند الباب المفتوح، فطلب منها أن تعود إلى الداخل، قبل أن ينتبه للزائر مجددًا.

- هل يمكنني أن أدخل ونجلس معًا. علينا أن نتحدث.

تقدمه "فيكتور" إلى المطبخ، حيث جلس في كرسي "فيكتور" المفضل، وتركه يجلس قبالته. بادره الزائر:

- لديَّ أخبار ليست جيدة. يؤسفني أن أبلغك أن "ميشا" قد مات. وأتيت لآخذ ابنته. لم يعد هناك معنى لاختبائها بعد الآن. أوكيه؟

استوعب "فيكتور" ما سمعه ببطء شديد، وشيئًا فشيئًا. ولكنه لم يستوعب الحقيقتين الأساسيتين: أن "ميشا" مات، وأن هذا الرجل قد جاء ليأخذ "سونيا". أسند جبهته إلى يده، وكأنه يشعر بألمٍ مفاجئٍ. شعر بأنه بارد كالثلج. سأله "فيكتور"، وهو ينظر في أسى إلى سطح الترابيزة:

- كيف مات؟

- كيف؟ كما يموتون جميعًا، على نحو مأساوي.

عاد "فيكتور" ليسأله، بعد صمت قصير استجمع خلاله أفكاره:

- ولماذا يَجِبُ عليها أن تذهب معك؟

- كنتُ صديقَه. وواجبي أن أعتني بها.

هز "فيكتور" رأسه رافضًا. فحدق الزائر إليه مندهشًا. قال له "فيكتور" بنبرة صارمة:

- كلا. كانت رغبة "ميشا" أن أعتني أنا بها.

أجابه الزائر بفارغ صبرٍ:

- اسمع.. مع كل الاحترام لحمايتك تلك، أنت فهمت طلبه بالخطأ. هل لديك دليل على تلك الرغبة؟

أجابه "فيكتور" بهدوء:

- لديَّ رسالة منه. سوف أريك إياها.

- دعني أرَها إذن.

ذهب "فيكتور" إلى غرفة المعيشة، وبحث في أوراق عند حافة الشباك عن رسالة "ميشا" التي وعده فيها أن يعود عندما تستقر الأمور. وعندما التفت إلى "سونيا" والبِطريق وهما مستغرقان في مشاهدة التليفزيون، سمع صوت باب الشقة ينغلق بعنف. هُرع إلى المطبخ، ليجد أن الزائر قد رحل، تاركًا نعيه فوق ترابيزة المطبخ.

بعد بضع دقائق، سمع صوت محرك سيارة. نظر "فيكتور" من الشباك، وشاهد في ضوء مصباح الشارع سيارة طويلة تشبه سيارة "ميشا"، وهي تبتعد. أطلت "سونيا" عند المطبخ، وهي تسأله:

- لماذا كان ذلك الرجل هنا؟

- أتى لأجلكِ.

قالها بحنق، دون أن يلتفت إليها. ولكنها كررت، كأنها لم تسمعه:

- لماذا كان ذلك الرجل هنا؟

- ليتحدث معي.

عادت إلى التليفزيون، وجلس "فيكتور" إلى الترابيزة، يفكر، في حياته، ودور "سونيا" فيها. حياة مبهمة، ولكنها تفرض عليه أن يعتني بها وينشغل لحالها. فيما عدا أن الاعتناء بها لا يتجاوز حدود توفير الطعام والرد على أسئلتها. إن وجود "سونيا" في حياته أشبه بوجود "ميشا" في هذه الشقة. ولكن ما إن ظهر من يريد أن يأخذها منه حتى وجد نفسه يرفض بكل تحفز وتصميم. ها هو يستمع من جديد إلى كلام عن الحماية والأمن، وهو لا يزال لا يعرف أي تفاصيل عن أي شيء. انقسمت حياته إلى نصفين: نصف معروف، وآخر مجهول. وما ذاك الذي في النصف الآخر؟ ما عناصره؟ سأل نفسه في سخط. إنه يمقت الألغاز. ولا وقت لديه ليفكر فيها. وقد عوَّده قلم رئيس التحرير

الأحمر التركيز على الحقائق الأساسية وحدها؛ لتكون منطلق أفكاره وكتاباته. وجد صعوبة في تلك الأمسية في أن يحدد أيًّا من تلك الأفكار، التي تتراقص مجنونة في عقله انتظارًا لأن يصيغها على الورق، تستحق القلم الأحمر.

41

زيارة غريبة.
ولكن سرعان ما نسي "فيكتور" أمر "سيرجي شيكالين"، وهو يستغرق في العمل بكل تركيز، بعد مكالمة مهذبة من رئيس التحرير. وكان يفكر في استراحات الشاي القصيرة في أن عليه أن يولي "سونيا" مزيدًا من الرعاية، كأن يصطحبها إلى مسرح العرائس وما شابَه ذلك. ولكن ليس أمامه سوى أن يؤجل ذلك إلى أن يتوافر له وقت فراغ كافٍ. وإن كان يعمل على إسعاد البنت بشراء الكثير من الآيس كريم والحلويات. ووجد في الخروج لشراء احتياجاته فرصته الوحيدة للاستمتاع بالهواء الطلق، المنعش والمثلج. وكلما زادت مرات خروجه ومشترياته، كانت "سونيا" و"ميشا" أكثر سعادة. وعلى العكس من "ميشا"، كانت "سونيا" قادرة على التعبير بالكلمات عن سعادتها. صارت تناديه أنكل "فيك" وهو الأمر الذي أسعده. ولكن أهم شيء هو أنها لم تكن تعترض على قضائها أغلب أيامها في الشقة. وفي المساء، عندما يجلسان أمام التليفزيون ليشاهدا حلقات المسلسل المكسيكي، كان يراود "فيكتور" إحساس هادئ ومريح، وإن كان عقله شاردًا عمَّا يعرضه التليفزيون. كان مستمتعًا بهذا الشتاء. وسرعان ما ينسى كل أمر سيئ ما إن ينهمك في العمل، أو يرتاح أمام شاشة التليفزيون. انتبه إلى "سونيا"، وهي تسأله بينما تشير إلى التليفزيون:

- أنكل "فيك".. لماذا لدى "أليخاندرا" مربية؟

- ربما لأنها من عائلة غنية.

- وهل أنت غني؟

- ليس إلى ذلك الحد..

- وهل أنا؟

التفت إليها، فسألته مجددًا:

- أنا.. هل أنا غنية؟

- أجل. أنتِ أغنى مني.

تذكَّر ذلك الحوار في اليوم التالي، خلال استراحة الشاي. ليس لديه أي فكرة عن أجور المربيات، ولكنه فكَّر في أن يستأجر واحدة لأجل "سونيا".

وفي المساء، زاره صديقه الضابط وجلب معه زجاجة نبيذ. جلسا في المطبخ. كان الثلج يتساقط في الخارج. وبدا "سيرجي" عصبيًّا.

- أتدري أنهم عرضوا عليَّ وظيفة ضابط حي في موسكو. براتب أكبر عشر مرات مما أتقاضاه هنا.. وكذلك سكن مجاني.

- ولكنك تعلم أن الأمور خطيرة هناك.. رصاص وانفجارات..

- وهو ما أجده هنا أيضًا. ولكنني لن ألتحق بالمهام الخاصة.. سأكون مثلما أنا عليه هنا.. لا أدري، ربما أذهب لعام وأكسب بعض المال.

- كما تريد.

- بالفعل. ماذا عن مشكلاتك أنت؟ هل تجاوزتها؟

- يبدو لي ذلك.

- نتمنى هذا.

سأله "فيكتور" بجدية:

- ألا تعرف فتاة ذات أخلاق جيدة؟ إنني أبحث عن مربية لـ"سونيا".. يمكن الاعتماد عليها وبشرط ألا تكون مكلفة.

- لديَّ ابنة أخ. في العشرين. لا تعمل. أترغب أن أسألها؟

أومأ "فيكتور" برأسه موافقًا.

- كم ستعطيها في الشهر؟

- 50 دولارًا؟

- جيد.

42

عَالِم البطاريق.
اتصل به في اليوم التالي، فجأة دون سابق إنذار. جاء صوته ضعيفًا:

- إنه أنا.. "بيدبلاي". هذا أنت يا "فيكتور"؟

- أجل.

- هل يمكنك أن تحضر؟ أنا مريض.

هكذا نحَّى "فيكتور" العمل جانبًا، وأسرع إلى "سفياتوشينو".

كان العجوز شاحب الوجه. يداه ترتجفان. كان لون بشرته أسفل عينيه الغائرتين أصفر. قال له، وقد بدا السرور على وجهه:

- تعالَ.

الغرفة دافئة، وممتلئة بالعديد من الأشياء.

- ما الأمر؟

أجابه العجوز بنبرة شكوى، وهو يجلس إلى الترابيزة:

- لا أدري.. آلام في المعدة. ثلاثة أيام دون نوم.

- هل اتصلت بطبيب؟

أشاح "بيدبلاي" بيده:

- وما حاجتي إليه؟ وهل أمثِّل له أي قيمة طالما ليس معي مال؟

أسرع "فيكتور" إلى التليفون، واتصل بالإسعاف.

- لا فائدة. سوف يأتون، ثم يذهبون. أنا أعرفهم.

- ارْتَحْ أنتَ. سوف أعدُّ الشاي.

فوق ترابيزة المطبخ كومة من الأواني وبقايا الطعام. أكواب وأعقاب سجائر. غسل كوبين في الحوض، ثم وضع البراد على النار. مر الوقت. صار الشاي جاهزًا، فجلسا إلى الترابيزة مترقبين.

طاف شبح ابتسامة ساخرة على مُحيَّا العجوز. وبين حين وآخر، كان يرمق "فيكتور". قال له بصوت ضعيف:

- أخبرتك من قبل أنني كنت أستمتع بأفضل ما في هذه الحياة من أشياء.

لم يعلق "فيكتور" بأي كلمة.

وفي النهاية، رن جرس الباب. ودخل رجال الإسعاف. وسأل أحدهم، وهو ينفث دخان سيجارته التي أطفأها للتو:

- مَن المريض؟

أومأ "فيكتور" تجاه العجوز، قائلًا:

- هو.

تفحص المسعف وجه "بيدبلاي":

- ما المشكلة؟

- معدتي.. هنا.

تساءل المسعف، وهو ينظر تجاه الممرض، الذي كان منشغلًا بتفحص جدران المنزل:

- أعطِه "بابافيرين"؟

فقال "بيدبلاي":

- لا فائدة. لن ينفعني. سبق أن تناولته.

فقال المسعف عديم الحيلة:

- ولكن هذا ما يوجد معنا. سنرحل إذًا.

نظر إلى الممرض، قبل أن يخرج من المنزل. إلا أن "فيكتور" صاح به:

- مهلًا!

التفت المسعف إليه:

- ماذا؟

- ألا يمكنكم نقله إلى مستشفى؟

- يمكننا ذلك، ولكن أي مستشفى يمكن أن يستقبله؟

أخرج له "فيكتور" 50 دولارًا، وهو يقول:

- ألا يوجد أي مكان؟

تردد المسعف، وهو ينظر إلى العجوز، وكأنه يحدد قيمته.

- ربما مستشفى أكتوبر.

تناول الورقة المالية الخضراء، ودسها في جيبه في سرعة وطمع. بادر "فيكتور" بتدوين رقم تليفونه على ورقة وجدها فوق الترابيزة. قال له وهو يناوله الورقة:

- اتصل بي وعرفني عن مكانه وعن حالته.

أشار المسعف إلى العجوز بأن يتبعه:

- هيا بنا إذًا.

أخذ "بيدبلاي" يبحث حوله، ثم ذهب بخطوات متثاقلة إلى المطبخ، قبل أن يعود ومعه مفاتيح في يده المرتجفة.

- خذ هذه المفاتيح يا "فيك"، وأغلق الباب حينما ترحل.

انتظر المسعف والممرض بصبر إلى أن ارتدى العجوز ملابسه، ثم اقتاداه كأنه سجين وليس مريضًا.

صار "فيكتور" وحده في شقة غريبة، فجلس لبعض الوقت إلى الترابيزة، يتنفس هواء المكان المترب المُعبَّق بالرطوبة. شعر بعدم ارتياح. تمكن من النهوض على قدميه، ولكنه لم يجد في نفسه رغبة في المغادرة. هذه خرابة وليست شقة، وهو ما بعث بالأسى في نفسه. اصطبغت تلك الجدران بكل ما يتصف به صاحبها من انعدام حيلة، وهواء المكان يكاد يكون تجسيدًا لمعاني العزلة والوحدة.

اغتسل، وحاول تنظيم المكان وترتيبه قبل أن يغادره. على الأقل ليعود "بيدبلاي" إليه فيستشعر الراحة يومًا أو يومين. هكذا فكَّر وهو يغلق الباب من خلفه.

اتصل به المسعف الذي لا يعرف اسمه في ذلك المساء.

- ليس أمام ذلك العجوز الكثير.. إنه مصاب بالسرطان.

- أين هو؟

- مستشفى أكتوبر، قسم الأورام، عنبر خمسة.

- أشكرك.

أغلق الخط، ونظر في حزن إلى "سونيا". سألته وهي تتأمل تعبيرات وجهه:

- هل سنتمشَّى اليوم؟

أجابها، وهو ينهض إلى المطبخ:

- العشاء أولًا.

43

رزمة ملفات جديدة.
أحضرها مراسل رئيس التحرير، بعد يومين. رمقها "فيكتور"، فأدرك أنه صار يتعامل الآن مع الرتب الكبيرة في الجيش. هناك 20 شخصية تحتاج لكتابة نعيها، وما يجمعها هو ذلك الحنين إلى الماضي، ممتزجًا بالتجارة في السلاح. وفيما هو خلاف ذلك، فإن كل شخصية تنفرد عن الأخرى بشيء ما، إلى حد تهريب مهاجرين غير شرعيين عبر الحدود الأوكرانية البولندية داخل طائرات هليوكوبتر عسكرية، وكذلك تأجير طائرات النقل العسكرية في السر. وكلما قرأ أكثر، اكتشف المزيد من الأفعال القذرة. على أن في هؤلاء ما ميزهم عن بقية من كتب عنهم من قبل. نحى الورق جانبًا، وهو مستغرق في التفكير، بينما عيناه تتابعان الشتاء الذي لا ينقضي في الخارج. أعاد ترتيب الأوراق مجددًا. جميعهم أزواج وآباء طيبون، هؤلاء الجنرالات وأصحاب الرتب العسكرية المرموقة.

قراءة جديدة، أدخلته في مزاج الكتابة. وضع البراد على النار، وأحضر الآلة الكاتبة من أسفل الترابيزة.

اشتغل ساعتين، إلى أن قَطَع جرس التليفون استرساله. إنه الضابط "سيرجي".

- تحدثت مع ابنة أختي، ويسعدها أن تحضر. سوف أحضرها معي خلال نصف ساعة، إن لم يكن لديك مانع.

- أوكيه.

كان ظلام الأمسية الشتوية يهبط مبكرًا على المدينة. توقف عن العمل، وذهب ليجلس في غرفة المعيشة. وجد "سونيا" تلعب بعروستها الباربي. سألها:

- أين "ميشا"؟

- هناك.

- "سونيا".. هناك فتاة شابة ستأتي لتكون مربية لكِ.

سكت، عندما تبين له أنه أخبرها بكثير من المعلومات في جملة واحدة. ولكنها سألته:

- هل ستلعب معي يا أنكل "فيك"؟

- طبعًا.

- ما اسمها؟

- لا أعرف. إنها ابنة أخت العم "سيرجي"، الذي ذهبنا إلى منزله في إجازة نهاية العام.

رن جرس الباب، فنهض "فيكتور" وهو يرمق ساعته. رأى أن "سيرجي" قد حضر مبكرًا قليلًا. بادره "سيرجي"، وهما يعلقان معطفيهما في الردهة:

- هذه "نينا".

صافحها "فيكتور"، وهو يتناول المعطف عنها، ويعلقه. قال لها عندما صاروا في غرفة المعيشة:

- هذه "سونيا".

ابتسمت لها "نينا" بدون أن تُظهر أسنانها. وقال لـ"سونيا":

- وهذه "نينا".

يبدو أن غرابة الموقف عقدت لسانه، ولكن الحقيقة أنه كان يبالغ إن توقَّع أن تنخرط الاثنتان مباشرة في الكلام معًا، فقد تبادلتا النظرات وحسب. تأمل "فيكتور" "نينا"، كانت ضئيلة الجسد، مستديرة الوجه، ذات شعر كستنائي قصير، ويبدو أنها في السابعة عشرة من عمرها تقريبًا، وترتدي الجينز الضيق، أسفل سويتر أزرق يحتضن في رفق نهدين صغيرين.

في هذه المُراهِقة الواقفة أمامه شيء ما ربما هي ابتسامتها المتحفظة. وسرعان ما أدرك أن سبب تلك الابتسامة المتحفظة هو أن وراءها أسنان صفراء غير نظيفة. ربما هي مدخنة. قالت فجأة:

- يمكنني أن أبدأ من الغد.

سألتها "سونيا":

- ما الذي سنقوم به؟

ابتسمت "نينا" شبه ابتسامة:

- ما الذي تريدين القيام به؟

- التزلج على المنحدرات.

- وهل لديكِ زلاجات؟

نظرت "سونيا" إلى "فيكتور" بعينيها المتسعتين:

- هل لدينا؟

- لا.

بادرت "نينا"، وكأنها تريد أن تسبق أي كلام سيقوله "فيكتور":

- لا تقلقي، سأحضرها أنا. المواصلات جيدة من "بودول"، حيث أعيش.

أومأ "فيكتور" برأسه. اتفقوا على أن تحضر "نينا" في العاشرة صباحًا لترعى "سونيا" حتى الخامسة مساءً من كل يوم.

رافق "سيرجي" وابنة أخته إلى الخارج، قبل أن يطلق تنهيدة عميقة. أسعده أن الحديث عن الأجر لم يكن على النحو الذي كان يخشاه. وأسعده أكثر أن

"سونيا" صارت الآن تحت رعاية مربية. وجد أنه سيكون أكثر راحة وأقل توترًا في الأيام القادمة. سألها، بعد أن عاد إليها:

- حسنًا.. ما رأيكِ فيها؟

- لا بأس بها. وسنعرف رأي "ميشا" فيها هو الآخر!

44

حرية.
استشعرها "فيكتور" مع قدوم "نينا". ليس لأنه كان مِن قَبْل يخصص الكثير من الوقت لـ"سونيا"؛ فذلك الوقت لا يتجاوز ما يستغرقه الإفطار والعشاء، والجلسة أمام شاشة التليفزيون كل مساء. ورغم ذلك، أحسَّ أنه صار يحظى بمزيد من الوقت، وهو ليس بالضرورة وقت فراغ، ولكنه وقت، وربما كان ذلك نتيجة أنه لم يعد يؤنب نفسه بدرجة كبيرة على كونه لا ينشغل بـ"سونيا" بما يكفي، أو أنه لا يفعل لها ما هو مطلوب منه. الآن تحضر إليها "نينا" في كل صباح، ليخرجا معًا إلى أماكن لا يعلمها، ثم تأتيه "سونيا" في المساء منهكة.. "تمشينا حول هيدروبورك".. "كنا في بوسكا فوديتسا!".

كان "فيكتور" سعيدًا. ويحقق تقدمًا في عمله. بينما ينحسر الشتاء. وعاد "ميشا" للتجوال في أرجاء الشقة ليلًا، حتى إنه أخاف "سونيا" فصرخت. كانت نائمة ويدها تتدلى من حافة الكنبة، عندما جاء "ميشا" واستكان إليها.

ربما كانت تحلم، وأحدث ذلك الدفء الملموس المفاجئ من جسد "ميشا" في عقلها ما يشبه الكابوس.

بعد أن انتهى من ملف العسكريين، قرر "فيكتور" ألا يتصل برئيس التحرير ليطلب المزيد من الملفات، وأن يأخذ يومًا إجازة. كان الجو مشمسًا، وبدأ ذوبان الجليد تمهيدًا لقدوم الربيع.

خرجت "سونيا" مع "نينا" مجددًا. وعاد "ميشا" إلى غرفة المعيشة، بعد أن تناول إفطارًا دسمًا، ووقف عند باب البلكونة، حيث البرد الذي يحبه.

رأى "فيكتور" أن يذهب لزيارة "بيدبلاي".

ذوبان الثلج يجعل الأرصفة زلقة، لذلك عانى كثيرًا في طريقه إلى مستشفى "أكتوبر"، حتى أنه سقط أكثر من مرة، وآخرها كان عند سُلَّم قِسم الأورام.

وجد عنبر خمسة، الذي عثر عليه دون مساعدة، ضخمًا، وأشبه بصالة جمنازيوم في مدرسة. ذكَّره المكان بالثكنات العسكرية إلى حد ما، وربما كان هذا بسبب طريقة تنظيم الأسِّرة والترابيزات المجاورة لها. لم يجد في المكان أي ممرضة. وتعبق المكان رائحة طبية نفاذة. وهناك بعض الأسِّرة المعزولة بمنأى عن البقية.

وجد "بيدبلاي" بعد بحث، كان راقدًا فوق سرير مجاور لشباك، يحدق إلى السقف.

شعر أن رأسه صار أصغر حجمًا.

حمل كرسيًّا ثقيلًا، ووضعه إلى جوار سرير عَالِم البطاريق، الذي لم ينتبه إليه. بادره "فيكتور":

- أهلًا.

التفت "بيدبلاي" إليه، وطافت ابتسامة على شفتيه الشاحبتين:

- أهلًا.

- كيف حالك؟ هل تتلقى علاجًا؟

جاوبه العجوز بابتسامة. فقال "فيكتور" بنبرة من يشعر بالذنب، بينما يرمق برتقالتين فوق ترابيزة مجاورة:

- لم أحضر أي شيء. لا أدري كيف لم أفكر في ذلك.

- لا يهمك.. المهم أنك حضرت.

أخرج العجوز ذراعه من أسفل البطانية الرمادية الثقيلة، ومد أصابعه نحو وجهه، ليداعب اللحية الخفيفة التي نمت في خديه الخائرين.

- يأتي الحلاق مرة واحدة في الأسبوع.. يوم الجمعة. لا يعطونه إلا أجر ساعتين، ومن ثَمَّ ينتهي وقته قبل أن يحين دوري.

- تريد أن تحلق؟

سأله "فيكتور" في استغراب، وهو يرى أن شعره ليس غزيرًا أصلًا.

- بل أريد حلاقة ذقني وحسب.

ثم أومأ تجاه السرير عن يمينه، قائلًا:

- أعطاني جاري السابق عدة الحلاقة الخاصة به. بها كل شيء. ولكنني لا أستطيع أن أحلق لنفسي.

- تودُّ أن أحلق لك؟

- لو أمكنَ.

أخرج "فيكتور" الموس والفرشاة والملقاط من علبة موضوعة فوق ترابيزة "بيدبلاي"، ونهض واقفًا إلى جواره:

- سأحضر بعض الماء.

مشى عبر الردهة مرتين، يبحث عن ممرضة أو أي طبيب، ولكنه لم يجد أحد. عثر على دورة مياه، ولكنه وجد ماء الحنفية باردًا. في النهاية، سأل مريضًا، فوجَّهه إلى حيث المطبخ، في الطابق الأسفل. وهناك، أحضرت له امرأة عجوز ترتدي يونيفورم أزرق وعاء بحجم نصف لتر، ملأته بالماء الساخن من غلاية.

استغرقت الحلاقة قرابة ساعة، خاصة أن الشفرة غير حادة والموسى قديم. تسبب في شبه جراح على خدي العجوز، ولكن الدم لم ينزف. وعندما انتهى، أحضر كولونيا من حاجات أحد المرضى في العنبر، ووضع القليل منها في راحة يده، قبل أن يمر بها على خدي العجوز، الذي تأوَّه من لسعة العطر. فقال له "فيكتور" بصوت آلي:

- آسف.

- لا عليك.. هذا الألم يعني أنني ما زلت حيًّا.

- ماذا قال لك الدكتور؟

أجابه مبتسمًا:

- أخبرني أنني لو منحته شقتي فسوف يوافق على بقائي هنا ثلاثة أشهر. ولكن ما الذي تمثله الأشهر الثلاثة لشخص مثلي؟ ليس لديَّ أعمال عالقة.

شعر "فيكتور" بحنق شديد.

- ألم يعطوك أي أدوية؟

- لا توجد أدوية. المريض هو مَن يُحضِر دواءه. أما الباقون فليس لهم سوى السرير والراحة.

سكت "فيكتور"، وهو ينتظر أن ينحسر عنه ذلك الشعور الطاغي بالغضب. ثم سأل العجوز عندما صار أهدأ:

- وما الذي عرضه عليك مقابل الشقة؟ أدوية؟

وضع العجوز يده على ذقنه الحليقة، وهو يقول:

- نوع من الحقن الأمريكانية. اسمع.. هناك شيء أود أن أسألك عنه..

مال نحو "فيكتور"، وهو يحرك جسده بجهد جهيد.

- اقترب مني أكثر.

اقترب "فيكتور" منه أكثر. همس العجوز له:

- أليست مفاتيح الشقة معك؟

- أجل.

- اسمعني. لا تخذلني. أريد منك أن تحرق الشقة برمتها عندما أموت. أتوسل إليك! لا أريد لأحد أن يجلس في كرسيِّي، ويعبث بأوراقي، قبل أن يلقي بها في سلة المهملات. أتفهمني؟ إنها أشيائي.. ما عشتُ لأجله، ولا أريد لها أن تبقى من بعدي.. أتفهمني؟

أومأ "فيكتور" برأسه بنعم.

- عدني أنك ستفعل ذلك عندما أموت.

حدق إليه الرجل في تساؤل واستجداء. همس "فيكتور":

- أعدُك.

بدت الابتسامة مجددًا على الشفتين الشاحبتين:

- جيد. كما أخبرتك من قبل، كنت بالفعل أحب ما هو جميل في هذه الحياة، أليس كذلك؟

عاد ليستلقي على ظهره مجددًا، مع تنهيدة ثقيلة. وقال بصوت مبحوح:

- دعني واذهب. شكرًا على الحلاقة. لولاها لبقيت غير حليقة، مثل تلك الجثة هناك!

كان يشير إلى أقرب ستارة. فهمس "فيكتور" في ارتياب:

- أذلك هو؟

- ستارة اليوم.. مشرحة غدًا! مع السلامة.

نهض "فيكتور"، ووقف للحظات يحدق بـ"بيدبلاي". ولكن "بيدبلاي" كان يحدق بالسقف، وهو يتمتم بشفتيه بكلمات لا يبدو أن أحدًا سيسمعها سواه.

45

كالمعتاد.
بدأ اليوم الجديد. تسللت أشعة الشمس عبر الشباك، وجلس "فيكتور" و"سونيا" لتناول إفطار من البيض المقلي والشاي في المطبخ. ولكن "ميشا"، معتل المزاج منذ الفجر، رفض أن يلتحق بهما، رغم الإلحاح.

بقيت "سونيا" ترمق الساعة المعلقة عند حافة الشباك في ترقب، وكأنها تتمنى أن يمضي الوقت سريعًا.

وعند الساعة 9:40، رن جرس الباب، فأسرعت نحوه، وكادت بتعجلها تُسقِط الكرسي.

حضرت "نينا". تبادلا التحية بسعادة، وبعدها دخلت "نينا"، وهي لا تزال في معطفها، وألقت عليه التحية. وسألها "فيكتور":

- إلى أين ستذهبان اليوم؟

- إلى "سيريتس". سنتمشى في الغابة، ثم إلى "بودول"، وبعدها إلى شقتي لتناول الغداء.

أومأت له، كأنها تؤكد له أنها تعرف ما تفعل، وهي تبتسم نصف ابتسامة معتادة. سمعها تسأل "سونيا" في الردهة:

- أين معطفكِ الصغير؟ وكذلك حذاؤكِ.

بعد خمس دقائق، كانت تعود إليه من جديد. وقالت له بنصف ابتسامة أخرى:

- سوف نخرج.

انغلق الباب خلفهما. عاد الصمت ليخيم، إلا من جلبة خفيفة في غرفة المعيشة. انفتح الباب قليلًا، وظهر "ميشا". من الواضح أنه ارتاح عندما وجد الردهة خاوية، وتقدَّم إلى المطبخ وفتح بابه. وقف يتأمل سيده من عند الباب، ثم اقترب وأخذ يتودد إليه بجسده. فربت "فيكتور" عليه.

مرت بضع دقائق على هذا الحال، قبل أن يذهب "ميشا" إلى وعائه، ووقف ينظر خلفه. عندئذ قام "فيكتور"، وأحضر سمكتين صغيرتين من الفريزر، وقطعهما قبل أن يضعهما في الوعاء. وعاد إلى كرسيه، وصَبَّ المزيد من الشاي.

أعاد ذلك الصمت النسبي – إلا من صوت التهام "ميشا" لإفطاره – "فيكتور" إلى أيام كانا يعيشان فيها معًا، وحدهما في دعة وسلام، ومن دون وجود إحساس بذلك الرابط القوي، ولكنه إحساس بالتواكلية بينهما، خلق نوعًا من الارتباط، وكأنها علاقة وثيقة، ولكنها تخلو من الحب. إننا نجد الأقارب من البشر بينهم ارتباط، وليس شريطة أن يكون الحب هو القاسم المشترك – ربما هي الرعاية، أو هو الاهتمام، ولكن المشاعر والأحاسيس تأتي في مرتبة ثانية، ما دام كل شيء على ما يرام..

انتهى "ميشا" من إفطاره سريعًا، وعاد إلى سيده، الذي اندهش من هذا الإبداء غير المعتاد للعواطف، فعاد يربت عليه، والتصق البِطريق أكثر بركبة سيده. سأله بلطف:

- أنت لست مريضًا؟ أليس كذلك؟

فكر أنهم في الغالب أهملوه. في البداية، كانت جلسات التليفزيون مع "سونيا"، والآن ها هي "نينا". أنا متأسف لك. وهأنذا كنت أظنُّ أنك تلهو مع "سونيا" كما هي العادة. أنا آسف..

جلس "فيكتور" إلى ترابيزة المطبخ لثلث ساعة، فهو لم يكن يرغب في أن يقلق "ميشا"، وبقي يفكر في الماضي القريب والمستقبل المنظور. بدت له الحياة طبيعية، بخلاف لمحات الخطر القصيرة التي شهدها في منزل الضابط

في إجازة العام الجديد. كل شيء على ما يرام، أو هكذا يبدو. لكل وقت صبغته الطبيعية الخاصة. ما كان متعبًا صار معتادًا، وهو ما يعني أن الناس يرونه أمرًا عاديًا ويستمرون في حياتهم، بدلًا من إبداء مشاعر سخط وغضب لا جدوى ولا نفع منها. وبالنسبة لهم، وبالنسبة لـ"فيكتور"، فإن المهم هو أنهم على قيد الحياة، وليحدث ما يحدث.

استمر ذوبان الجليد.

عند الساعة الثانية، رن جرس الباب. توقَّع أن تكون "نينا" و"سونيا"، ولكنه وجد أمامه "إيجور إلفوفيتش"، الذي بادر بالدخول، وأغلق الباب من خلفه، وخلع معطفه، وتوجه إلى المطبخ دون أن يخلع حذاءه.

كان من الواضح أن رئيس التحرير ليس في حالته الطبيعية.. شاحب الوجه، منتفخ العينين. قال، وهو يلقي بجسده فوق كرسي "فيكتور":

- بعض القهوة.

بادر "فيكتور" بإعداد القهوة، وهو يرمق الرئيس. وجد أنه يرتجف، ولحظة شعر أنه يكاد يرتجف مثله. أدار ماكينة القهوة، ووضع فيها البن والماء، ثم أشعل النار. كان رئيس التحرير يتمتم في شرود:

- ماذا إذًا! ماذا إذًا!

- هل حدث شيء؟

أشاح "إيجور إلفوفيتش" بوجهه، قائلًا:

- بالفعل.. انتظر.. حتى أدفأ..

خيم الصمت مجددًا. ووقف "فيكتور" يراقب القهوة. ومع تصاعد البخار، رفع القهوة، وصبها في فنجانين.

تشبثت يدا رئيس التحرير بالفنجان، وهو يحدق إليه.

- أشكرك.

جلس "فيكتور" بدوره إلى الترابيزة. وبادره الرئيس:

- اسمع.. من الأفضل ألا أخبرك بشيء. فما شأنك أنت؟ أتذكر عندما اضطررت إلى الاختفاء يومًا أو يومين؟

أومأ "فيكتور" برأسه، صامتًا. فابتسم الرجل بمكر:

- حسنًا، إنه الآن دوري أنا. يومًا أو يومين فحسب. حتى يُؤمِّن الأولاد كل شيء. ثم أعود مجددًا.

- لقد انتهيت من ملف العسكريين. إنه هناك، عند الشباك.

لم يكن رئيس التحرير في مزاج يسمح له بمطالعة نصوص النعي، فأشاح بيده في لامبالاة.

شرب القهوة، وأشعل سيجارة، وبحث عن مطفأة فلم يجد، فنثر رماد السيجارة فوق الترابيزة، وبقي شاردًا في أفكاره دقائق. ثم تنهد، قائلًا:

- يصعب على المرء أن يجد نفسه متورطًا في المشكلات بما جنته يداه. صعب جدًّا. أنت مشغول الآن؟

- كلا.

نظر إليه رئيس التحرير بجدية:

- حسنًا إذًا، يمكنك أن تذهب إلى مكتبي بالنيابة عني. سأتصل بالسكرتيرة حتى تسمح لك بالدخول. وعليك أن تحضر لي الحقيبة البنية من الخزنة. سأعطيك المفتاح. لو وجدت أن هناك من يتبعك، فعليك أن تُخبِّئ المفتاح، وتجول بلا هدف إلى أن يحل الظلام.

انتاب "فيكتور" الخوف فجأة. شرب القهوة في جرعة كبيرة، ونظر إليه نظرة ثابتة، تخلو من أي أفكار. سأله، بنبرة رجل عرف مصيره:

- متى؟

- الآن.

ناوله الرئيس مفتاحًا أخرجه من المحفظة. وقال بينما نهض "فيكتور":

- لكن انتظر إلى أن أتصل بها.

ذهب رئيس التحرير إلى غرفة المعيشة، ثم عاد:

- هيا، اذهب.

حتى مع ذوبان الجليد، كان الجو قارس البرودة. سار "فيكتور" إلى حيث محطة الترولي. لم يعد يشعر بالخوف، فلقد خدَّر البرد جسده وعقله.

عندما دخل مبنى الجريدة بعد ساعة، ظل يظهر بطاقته الصحفية لكل من يقابله من رجال المهام الخاصة، قبل أن يصل في النهاية إلى مكتب رئيس التحرير. أومأت له السكرتيرة شاحبة الوجه، ودون كلمة واحدة، فتحت له مكتب الرئيس. أغلق الباب خلفه، ووجد جسده يرتجف، وتذكَّر أنه لم يتحقق مما إذا كان هناك مَنْ يتبعه، فشعر بالخوف.

وحتى يُهدِّئ أعصابه، ذهب ليجلس في كرسي رئيس التحرير. كانت الخزنة إلى يساره، فوق ترابيزة صغيرة. أخرج المفتاح. وبعد دقيقة تَردُّد، فتحها. كانت الحقيبة البنية في الرف السفلي. وضعها فوق سطح المكتب أمامه. ومرة أخرى، هيمن الخوف على أفكاره. لم يجد في نفسه قدرة على النهوض ومغادرة المكتب، كما لو أنه يعي المخاطر التي تنتظره خارج تلك الجدران. رمق الخزنة مجددًا، وكأنه يتوسل الوقت. في الرَفِّ العلوي ملفٌّ فوقه عدة ورقات. دون تفكير، مَدَّ يده وتناول أول ورقة، وأدرك على الفور أنه نص النعي الذي كتبه عن مدير شركة الخرسانة. وفي ركن الورقة العلوي الأيسر، كتب أحدهم بحبر ثقيل:

"يُعتمد

للنشر في 14 فبراير 1999".

وجد أن دهشته قد أخرجته من أسر الخوف. اليوم لا يزال الثالث من فبراير! وطالع بقية الأوراق، فوجد أنها بدورها نصوص كتبها، وكل منها مُعتمَد للنشر في تاريخ لم يأتِ بعد. عاد إلى الخزانة، وأخرج الملف نفسه، وفك رباطه.

المزيد من نصوص النعي، وجميعها معتمد للنشر – من بينها ما هو معتمد للنشر اليوم، وجميعها يحمل التوقيع ذاته. أخرج بعض الأوراق من منتصف الملف. وجد أول ورقة معتمدة، ولكن في تاريخ مَرَّ بالفعل، ومعها كلمة ولكنها مكتوبة بخط يد مختلف: **"تم التنفيذ".**

دارت رأسه، وجلس في الكرسي، يحدق إلى الحقيبة، ونصوص النعي، والخزانة المفتوحة، وشعر بمذاق مُرٍّ كالعلقم في فمه. التقط ورقة من فوق

سطح المكتب. كان خطابًا للمطبعة، مكتوبًا على الآلة الكاتبة ما عدا التوقيع، الذي تأمله عن كثب. لم يكن خط يد رئيس التحرير هو الذي كتب أمر الاعتماد على نصوص النعي. هو يعرف توقيع رئيس التحرير، وهو مختلف عن خط اليد القوي هذا. ولكنه شعر أنه يعرف هذا الخط، وعاد ينظر في النصوص الأقدم، فوجد أن كلمة "تم التنفيذ" مكتوبة الخط نفسه الذي يبدو وكأن صاحبه كان يرتعش من البرد. رنَّ جرس التليفون، ففُزع. حدق إلى التليفون، وهو يتمنى لو توقف الرنين، ولكنه استمر. عاد الخوف ليهيمن عليه. نظر حوله، وكأنه يريد أن يتأكد أنه ليس مُراقَبًا، قبل أن يلمح عدسة كاميرا فيديو معلقة على رف فوق الباب مباشرة، ووجدها مسددة نحوه.

أعاد النصوص إلى الملف، الذي وضعه مجددًا في مكانه في الخزانة مع بقية الملفات، وأغلق الخزانة، ورمق الكاميرا لآخر مرة. كان رنين التليفون قد توقف، ولكن الصمت نفسه بقي مخيفًا. وكأنه يخشى أن يفسد الأجواء الصامتة، نهض في حذر واقفًا، والتقط الحقيبة، وغادر المكتب. التفتت إليه السكرتيرة، التي كانت منشغلة بلعبة على شاشة الكمبيوتر. بدا التوتر عليها، وهي تسأله:

- انتهيت؟

وجد صعوبة شديدة، وهو ينطق بعبارات الشكر.. والوداع.

46

هائمًا على وجهه.
شاردًا عن تفاصيل المدينة، لا ينظر إلى يمينه أو يساره، وهو يعود إلى شقته، بينما تقبض يده بقوة على الحقيبة. ولكن قدميه تعرفان طريقهما.

لم ينتبه إلا وهو بالفعل عند باب شقته إلى أن هناك شابًّا يجلس عند مدخل العمارة، يرتدي ترينج وآيس كاب، وينظر إليه عن كثب.

فتح الباب، وانتظر، وهو يصغي، ولكنه لم يسمع أي صوت من عند المدخل، وهكذا دخل الشقة، وأغلق الباب خلفه. بادره رئيس التحرير، الذي كان واقفًا في الردهة:

- ما الأخبار؟

ولكنه لمح الحقيبة، فابتسم وهو يتناولها ويتجه إلى المطبخ.

بينما كان "فيكتور" يخلع حذاءه والجاكيت، كان "إيجور إلفوفيتش" يفرغ محتويات حقيبته – جواز سفر دبلوماسي أخضر، وبطاقات ائتمان، ودفترًا، وإيصالات – فوق الترابيزة. قال له "فيكتور":

- هناك بالأسفل عند المدخل، شاب يـ....

- أعرف. إنه تابع لنا. هل لديك أي طعام؟ أكاد أموت جوعًا.

عاد رئيس التحرير إلى طبيعته مجددًا، هادئًا، واثقًا، ثابتًا.

فتح "فيكتور" الثلاجة، وأخرج منها سوسيس، وزبدة، ومسطردة، وذهب إلى البوتاجاز. أعطى ظهره لرئيس التحرير. يشعر بمذاق تبغ سجائر رئيسه في فمه.

أوقد النار، وهو يسمع صوت خطوات رئيس التحرير الذي اتجه إلى غرفة المعيشة، وبينما الماء يغلي، سمعه يتحدث إلى شخص ما عبر التليفون، ولكنه لم يرغب في أن يعرف ما يدور. نبأته غريزته أن يعمد إلى تجاهُل كل ما يجري، وأن يدع ما يحدث يحدث بعيدًا عنه وعن حياته.

انفتح الباب بعض الشيء مجددًا، وأعقب ذلك صوت خطوات يعود صاحبها إلى الجلوس حيث كان. كان السوسيس ينسلق في الماء المغلي. سأله رئيس التحرير:

- هل معك أي مال؟

- بعض الدولارات.

- سلفني 800 دولار.

تناولا الطعام في صمت، بينما كان "فيكتور" يرمق الساعة القديمة عند حافة الشباك بين حين وآخر. تقترب من الرابعة. سرعان ما ستأتي "نينا" ومعها "سونيا". ثم ماذا؟ ما الذي يدور في عقل الرئيس؟ أيريد أن يختبئ هنا؟ وإلى متى؟ وما نهاية كل هذا؟

غمس "فيكتور" شرائح السوسيس الصغيرة في المسطردة، وأكلها بطريقة آلية. هناك شيء ما ينقص الطعام، وأدرك فجأة أنه نسي الخبز. ولكنه رأى أن رئيس التحرير سعيد بالطعام على هذا النحو. وبدلًا من أن يغمس السوسيس في المسطردة، كان يغمسه في الزبدة السائحة قبل أن يرفع الشوكة إلى فمه. ثم صاح، وهو ينحي الطبق الخاوي جانبًا:

- الشاي.

هكذا أعد "فيكتور" الشاي. وعاد يجلس أحدهما قُبالة الآخر في صمت. كان رئيس التحرير غارقًا في أفكاره، بينما يتأمله "فيكتور" وهو يفكر في تلك

الأوراق. كم يودُّ أن يعرف من هو الشخص الذي كان يعتمد نشرها، والسر وراء ذلك، ولكنه متيقن من أن رئيس التحرير لن يخبره، وأنه سيتعلل بأن لا شأن له بذلك. تنهد، فرمقه رئيس التحرير بعد أن قطع عليه استرسال الأفكار. وقال له:

- هناك عمل آخر لك. سوف تُحضِر لي تذكرة الطائرة، من ميدان فيكتوري، شباك 12، وخذ معك الدولارات. سوف أعيدها لك. احجز لي في الرحلة رقم 503.

كان المساء قد حَلَّ. ولم يجد "فيكتور" في نفسه رغبة في الخروج مجددًا، ولكنه يدرك أنه مضطر لذلك، سواءً برغبته أم من دونها.

- حسنًا.

هكذا أجابه، ولكن بعد أن رسم على وجهه تعبيرات استغراب محسوبة، وسرعان ما حلت محلها ابتسامة منافقة.

ارتدى "فيكتور" الجاكيت والحذاء. ولاحظ بطرف عينه، وهو يغادر العمارة، أن صاحب الزي الرياضي لا يزال موجودًا.

بخلاف رجل أذربيجاني يتأمل لافتة جدول الرحلات في وجوم، لم يكن هناك أحد في مكتب حجز تذاكر السفر. ووراء الشباك رقم 12، تجلس سيدة في الأربعين من عمرها، بشعرها الأزرق المصبوغ، الذي صففته في شكل كحكة هائلة فوق رأسها.

- مقعد في الرحلة 503.

- جواز السفر.

لم تنظر إليه، وهي تسجل بيانات الحجز على الكمبيوتر. لم يكن جواز السفر مع "فيكتور"، فأصابته الحيرة. ولكن سيدة الشباك صاحت فجأة:

- آه! لا حاجة إلى جواز السفر. البيانات موجودة. 750 دولار بالبطاقة أو 800 دولار كاش.

هي لم ترفع رأسها إليه حتى الآن. ناولها "فيكتور" ثماني ورقات فئة مئة دولار. قامت بالتأكد منها سيدة شابة ترتدي يونيفورم أزرق، حيث وضعتها في ماكينة كشف التزييف، قبل أن تصيح:

- استلمت النقدية يا "فيرا".

ناولته سيدة الشباك 12 التذكرة. "كييف"... "لارناكا"... روما. طوى التذكرة ووضعها في الجيب الداخلي لسترته.

كانت الساعة تقترب من السادسة عندما وصل إلى الشقة. ولم تكن "نينا" و"سونيا" قد عادتا بعد. ولا يزال رئيس التحرير جالسًا في المطبخ، ووجده قد أعد القهوة، ويتناولها في هدوء.

قرأ بيانات التذكرة جيدًا، قبل أن يضعها في محفظته. وسأله "فيكتور":

- ألم يحضر أحد؟

- مَنْ تنتظر؟

- كان من المفترض أن تحضر المربية "سونيا".

- لم يحضر أحد. ولكنني أنصحك بأن تطلب منها أن تُبقي البنت معها الليلة.

وحتى يعطي كلماته ثقلًا، أتبعها بإيماءة حكيمة من رأسه. على أن "نينا" حضرت مع "سونيا" عند السادسة والنصف، وأخذت تعتذر بشدة عن التأخير. قالت وهي لا تزال في الردهة:

- أتمنى ألا أكون تسببت في قلقك. آسفة. تأخرنا في المحطة. كنا نودع "سيرجي".

- لم أكن قلقًا. ولكن هل من الممكن يا "نينا" أن تُبقي "سونيا" معكِ الليلة؟

نظرت إليه "نينا" في دهشة. وكذلك نظرت "سونيا"، التي خلعت حذاءها بالفعل ولكنها لا تزال ترتدي معطفها، ولكن نظرتها كانت بدافع الفضول أكثر منه الدهشة. وقالت "نينا" في حيرة:

- بالطبع.

- انتظري.

ذهب "فيكتور" إلى غرفة النوم، قبل أن يعود وفي يده مئة دولار.

- هذه عن هذا الأسبوع وكذلك تقديرًا لتعبك.

- متى تريدها أن تعود؟

- في الغد.. بعد الظهر.

بعد أن صار وحده في الردهة، تنهد "فيكتور" بعمق. لاحظ آثار الأحذية وبقايا الثلج الذائب فوق الأرضية، فأحضر خرقة من الحمام ومسح الآثار، قبل أن يعود إلى المطبخ. بادره رئيس التحرير:

- اجلس معي حتى الواحدة والنصف. سوف تأتيني سيارة، وعليك أن تنبهني لأنني متعب، وربما أغفو.. عندك كوتشينة؟

المدهش أن الوقت مَرَّ ببطء شديد. خيم الظلام منذ وقت طويل، وسكنت المدينة تمامًا. قتلا الوقت في لعب الكوتشينة. وخسر "فيكتور" كثيرًا. وارتسمت الابتسامة على وجه رئيس التحرير طوال اللعب، بينما يرمق الساعة بين حين وآخر. يشعل سيجارة على فترات، ومع تنامي الرماد فوق القسم الأيسر من سطح الترابيزة، تسلى بصنع هرم صغير منه.

عند الواحدة والنصف تمامًا، وصلت السيارة. نظر الرئيس من الشباك، ثم جمع ما كسبه من نقود اللعب. وقال متبسمًا:

- أنت مدين لي بخمسة وتسعين دولارًا. وعليك أن تربحها!

نهض وارتدى معطفه، وقال وهو يهمُّ بالمغادرة:

- خذ إجازة. سأعود عندما تستقر الأمور؛ لنواصل عملنا.

سأله "فيكتور"، وهو يستمهله:

- ولكن، "إيجور"، ما الهدف الحقيقي من عملي؟

نظر إليه رئيس التحرير بعينين ضيقتين، قبل أن يقول له بصوت خافت:

- مصلحتك في ألا تطرح أسئلة. وفكِّر في كلامي كما تشاء. ولكن اعلم: اللحظة التي تعرف فيها الهدف من عملك هي نفسها لحظة موتك. نحن لسنا في فيلم أكشن، بل في أرض الواقع. لن تعرف الحكاية الكاملة إلا في حال لم يعد عملك - ومن ثمَّ وجودك - مطلوبًا. ولكني أتمنى لك كل الخير. صدقني.

فتح الباب، ومن ورائه ظهر صاحب الزي الرياضي. أومأ الرجل برأسه محييًا، قبل أن يصطحب رئيس التحرير إلى الأسفل.

أغلق "فيكتور" الباب. وخيم صمت ثقيل على أرجاء الشقة. كان مذاق التبغ مُرًّا في فمه، ووجد في نفسه رغبة مُلحَّة أن يبصقه.

هناك في المطبخ، كان دخان السجائر قد صنع ما يُشبِه الضباب في أجواء المكان. فقام بتشغيل شفاط الهواء. شعر بالهواء البارد، ولكن الدخان، الظاهر في نور المصباح، رفض أن يغادر المكان. هكذا أزاح أوراقه من عند الشباك، وفتحها. دفقة الهواء البارد كانت قوية لدرجة أغلقت باب المطبخ بقوة. وشيئًا فشيئًا، تبدَّد الدخان. ومع البرودة، صار هواء المكان جديدًا منعشًا. لم يبالِ بالرياح، وراقبها وهي تعصف بهرم رئيس التحرير الذي صنعه من رماد السجائر، فلم تبقَ منه سوى ذرات ضئيلة تلاعبت بها حتى حافة الترابيزة، قبل أن تزيحها نهائيًّا. واختفى الهرم تمامًا.

انفتح باب المطبخ. إنه "ميشا"، الذي جذبته البرودة. اقترب من سيده، ووقف ينظر إليه. ابتسم له "فيكتور". ألقى نظرة أخيرة ليتأكد أن هواء المكان نظيف من دخان السجائر تمامًا. وبعد أن زغلل مصباح المطبخ عينيه، أطفأه، وجلس صامتًا في الظلام.

47

برد شديد.
شعر به "فيكتور" عندما استيقظ عند الحادية عشرة تقريبًا. قفز من السرير، وأسرع إلى المطبخ، حيث أغلق الشباك والشفاط، وعاد مسرعًا إلى غرفة النوم. بقي راقدًا في السرير بملابسه للدفء، قبل أن يغادره من جديد.

شعر بتحسن كبير بعد حمام ساخن وقهوة مركزة، وعاد الدفء إلى أرجاء الشقة بالتدريج. تذكر أحداث الأمس، وتلك الملحوظات المدونة على أوراق النعي في الخزانة، ومكتب الطيران، ولعب الكوتشينة حتى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. شعر كأنها أحداث مرت عليه منذ زمن بعيد. وعندما شم رائحة التبغ الخفيف، استعاد عقله كل تفاصيل ما جرى.

كان يومًا هادئًا باردًا. ويبدو أن ذوبان الجليد قد توقف مؤقتًا.

تساءل وهو يقبض على فنجان القهوة الساخن عما ينبغي عليه أن يفعله. لم يعد هناك عمل، وربما لن يكون هناك، بعد أن اختفى رئيس التحرير. معه مال كافٍ، رغم أنه نقص 800 دولار. ربما عليه أن يعود إلى كتابة القصص القصيرة، أو رواية..

وبينما كان يحاول أن يشغل باله بأفكار قصة يكتبها، انتابه شعور مفاجئ بالخواء. لقد صارت كتابة القصة شيئًا من الماضي البعيد، بعيد إلى حَدٍّ يثير

الشكوك في نفسه عمَّا إذا كان ذلك الماضي يخصُّه من الأصل أم لا. إنه ليس بشيء قرأه ثم نسيه، بل أضحى جزءًا لا يتجزأ من تجربته في الحياة.

تذكَّر وهو يشرب القهوة أن "نينا" ستحضر "سونيا" قرب المساء. ها هو الواقع يفرض نفسه على أفكاره. ليس ما هو قادم سوى الحياة كما عهدها. واجبه تجاه "سونيا"، وتجاه "ميشا". ومن ثمَّ، عليه أن يبحث عن عمل من جديد.. وأن يعيش وحيدًا، كما اعتاد من قبل.

وفجأة، تذكر كلام "نينا" عن ذهابهما لتوديع "سيرجي" في المحطة. ها هو يسافر إلى موسكو في النهاية، حتى دون أن يودعه. حجر جديد يضاف إلى جدار عزلة "فيكتور". عادت أفكاره إلى "نينا". صاحبة شبه الابتسامة، والأسنان التي لا يراها، والعينين الجميلتين. إنه يعجز عن استحضار لون عينيها.

ولكن، ما الذي يدفعه إلى التفكير فيها؟ عاد ينظر إلى الشباك من جديد. أشكال جديدة من الثلج تتكون على زجاجها. قريبًا سيبلغ الأربعين من عمره، وليس هناك مخلوق قريب من حياته سوى "ميشا"، الذي ليس له من مكان آخر يذهب إليه، والذي يعجز بطبيعته عن أن يتفاعل معه عقليًّا.. وهناك "سونيا"، التي ليست في الصورة على الإطلاق، والتي يحتفظ لها بمبلغ لا بأس به من المال، ولا تهتم إلا بالتليفزيون. لو أنه أخذهم، وخرجوا أربعتهم – هو، و"سونيا"، و"نينا"، و"ميشا" – لظن كل من يراهم أنهم أسرة صغيرة سعيدة!

ابتسم في أسى، وهو يداعب تلك الخيالات والوهم اللذيذ، والذي يكاد يكون حقيقة، من منظور ما، بدرجة تبرر التقاط صورة فوتوجرافية لتلك العائلة الوهمية.

48

السادسة مساءً.
حضرت "نينا" ومعها "سونيا". كانت ترغب في الانصراف فورًا، ولكن "فيكتور" طلب منها أن تشاركهما العشاء، وسارع بسلق بعض البطاطس.

كانت "سونيا" تشعر بالضيق، وغادرت المطبخ دون أن تأكل شيئًا تقريبًا. بينما تناول "فيكتور" الطعام مع "نينا" في صمت، وكان أحدهما يرمقُ الآخر خلسة بين لحظة وأخرى. سألها:

- هل سيغيب "سيرجي" لوقت طويل؟

- قال إنه سيبقى لعامٍ كاملٍ، لكنه وعدني أن يحضر لبضعة أيام خلال الصيف. أمه لا تزال هنا. سأذهب لشراء بعض الحاجيات لها الآن.

- وما حالتها؟ عجوز؟

- كلا، ولكنها تعاني ألمًا في ساقيها.

تناولا الشاي، ثم شكرته "نينا" على العشاء وودعته، على وعد بالحضور غدًا.

عاد "فيكتور" إلى غرفة المعيشة، بعد أن رافقها حتى باب الشقة. كان التليفزيون يعرض برامجه على "سونيا"، التي نامت وهي جالسة، وهي لا تزال

ترتدي ملابس الخروج. يبدو أنها منهكة.

قام بتغيير ملابسها، قبل أن يغطيها ببطانية. وبينما هَمَّ بغلق التليفزيون، رأى البطاريق وهي تتقافز بشكل كوميدي من قطعة ثلج إلى أخرى، بينما يصاحب المشهد تعليق هادئ يتحدث عن الحياة في القطب.

بحث عن "ميشا"، وحمله من حيث كان يقف عند باب البلكونة، وأجلسه أمام التليفزيون. بدا وكأن "ميشا" يتمتم معترضًا، ولكن "فيكتور" أمره، هامسًا:

- شاهد.

ما إن رأى رفاقه، حتى تسمرت عينا "ميشا" على الشاشة. ظلا يشاهدان حركات البطاريق لخمس دقائق، وعندما انتهى البرنامج، تقدم "ميشا" إلى الجهاز وهو يحاول أن يحتضنه، وكان يهز الترابيزة الصغيرة التي تحمل الجهاز. فقال له "فيكتور" بصوت هادئ، وهو يسند جهاز التليفزيون:

- أنت! لا تفعل هذا.

في الصباح التالي، أتته مكالمة من المستشفى. صوت أنثوي هادئ:

- لقد تُوفِّيَ قريبك.

- متى؟

- خلال الليل. هل ستحضر لتسلُّم الجثمان؟

سكت "فيكتور" في حيرة.

- هل ستقوم بدفنه؟

في النهاية، تنهد وهو يخبرها أنه سيحضر.

- سنحتفظ به في المشرحة مدة ثلاثة أيام، إلى أن ترتب للجنازة. ولا تنسَ أن تحضر معك إثبات هوية حتى يمكنك تسلمه.

أعاد السماعة إلى مكانها. ونظر نحو "سونيا"، التي لم تعد نائمة، ولكنها كانت تنظر إليه بعينين ناعستين من أسفل البطانية. الساعة الثامنة والنصف. قال لها، وهو يغادر الغرفة:

- واصلي نومكِ.

عند العاشرة، حضرت "نينا". بدا من مظهرها أن الجو بالخارج قارس البرودة. أخبرته أنها ستبقى في الشقة اليوم.

- هل لديكِ فكرة عن المكان الذي يدفنون فيه العلماء؟

- مدافن "بايكوف".

هكذا، ارتدى "فيكتور" ملابس ثقيلة تحسبًا للبرد، وخرج قاصدًا "بايكوف".

وهناك، في المكتب المشرف على المدافن، وجد سيدة بدينة متقدمة في السن ترتدي جاكت صوف أحمر، وتجلس إلى مكتب عتيق، وبين يديها نظارة سميكة العدسات. تجنَّب المدفأة الموضوعة في منتصف الغرفة، وجلس قبالتها، بينما عادت ترتدي نظارتها.

- تُوفِّيَ قريب لي.. عالم.

- حسنًا. هل هو أكاديمي؟

- كلا.

- هل لكم أقرباء مدفونون هنا؟

- لا أدري.

- أنت إذًا بحاجة إلى مكان مخصوص.

وكأنها تحدث نفسها، بينما تفتح دفترًا سميكًا أمامها فوق المكتب، وتدون فيه سطورًا ما، قبل أن تدفع الدفتر نحوه. نظر "فيكتور" في الدفتر، وانتبه إلى الرقم.. ألف دولار. قالت له، بنبرة خفيضة:

- هذا سعر المكان، شاملًا نقل الجثمان بعربة الموتى، وحفر المقبرة.. كما تعلم، فنحن في الشتاء، والأرض متجمدة.

- معكِ حق.

- ما اسم المُتوفَّى؟

- "بيدبلاي".

- أحضر المال في الغد، وستكون الجنازة بعد غد، عند الحادية عشرة. اتصل بي أولًا، وسوف أُعرِّف السائق برقم المقبرة. كما يمكنك أن تطلب وضع شاهد قبر.

49

أصعب يوم في حياته.
هكذا شعر "فيكتور"، ولم يكن السبب أنه أمضاه في التجهيز للجنازة، ولكن لأنه لم يتمكن من ذلك. كانت "إيما سيرجييفنا"، مسؤولة الجنائز في "بايكوف"، قد سلمته ورقة تحدد فيها بدقة المراسم: في الحادية عشرة، لقاء الأتوبيس الخاص رقم 66-77 عند مشرحة مستشفى "أكتوبر" حيث المتوفى، الذي قام خبير تجميل الجنائز بتجهيز جثمانه (مقابل 100 دولار إضافية). ومن ثم يوضع الجثمان بكامل ملابسه الأنيقة في داخل تابوت غالي الثمن من خشب الصنوبر.

ومع أن المال قد أراح "فيكتور" من عناء التعامل مع تفاصيل عديدة، ولكن باله لم يكن مرتاحًا. وكان مزاجه متعكرًا، ولا يرغب في العودة إلى الشقة - حيث توجد "نينا" و"سونيا". وكان قد أخبر "نينا" في ذلك الصباح بأن صديق له قد تُوفِّيَ، فبادرت بتعزيته، وأخبرته أنها ستبقى حتى يعود.

وبدلًا من أن يعود، ذهب إلى "بودول"، وجلس في "باكوس" حتى أغلق المكان أبوابه، وهناك شرب ثلاث كؤوس من النبيذ الأحمر. وخرج من دفء "باكوس" ليتسكع في أرجاء "بودول" حتى عجز عن الصمود أكثر من ذلك أمام قسوة البرد. وصل إلى الشقة عند التاسعة تقريبًا. وسألته "نينا":

- لقد أعددت حساءً.. أتود أن أسخنه لك؟

بعد العشاء، طلب منها أن تبقى، فوافقت.

نامت "سونيا" في غرفة المعيشة، بينما نامت "نينا" مع "فيكتور" في غرفة النوم. وعلى الرغم من وجود بطانيتين فوقهما، إلا أنه كان لا يزال يشعر بالبرد. ووجد الدفء في احتضانه لها بقوة، مع أنه انزعج من النظرة المشفقة التي كانت في عينيها. زاد من قوة احتضانه لها، حتى أوجع صدرها، وكأنه يحاول إيذاءها، لكنها لم تتفوَّه بكلمة، وبقيت تنظر إليه في إشفاق. أحاطت جسده بذراعيها - شعر بيديها على ظهره - ولكن حضنها كان واهنًا، وكأنها تتعلق به وحسب. وبالإذعان نفسه، سلَّمت جسدها له، ولم يصدر عن فمها أي صوت. وعلى الرغم من ذلك، تعمَّد أن يؤذيها، وأن يدفعها إلى الصراخ والبكاء والتوسل إليه ليتوقف، لكنه سرعان ما أنهك قبل أن يتحقق له مراده. وعندئذ، خفف من قوة احتضانه لها، ورقد ساكنًا، عيناه مغلقتان ولكنه ليس نائمًا، فهو خائف من أن ينظر إلى عينيها اللتين تشفقان عليه. صار يشعر بالخجل من نفسه، ومن غضبه، ومن سخطه، ومن قذارته.

عندما نام أخيرًا، بقيت هي في مكانها فترة، وعيناها مفتوحتان، تحدقان إليه، بينما تفكر، ربما في قدرتها على الاحتمال.

عندما استيقظ في الصباح التالي، لم يجدها إلى جواره. خشي أن تكون قد رحلت، للأبد، فبادر بالنهوض، وارتدى الروب، وذهب إلى غرفة المعيشة.

لا تزال "سونيا" نائمة. ولكنه سمع صوتًا في المطبخ، وهناك وجد "نينا"، في كامل ملابسها، واقفة عند البوتاجاز، تطهو الأرز. شعر بالحاجة إلى أن يقول أي شيء، ربما كلمات اعتذار. التفتت إليه، وأومأت برأسها تحييه. همس، وهو يحتضنها في لطف:

- آسف.

وقفت على أطراف أصابعها، وطبعت قبلة على شفتيه. وسألته:

- متى عليك أن تذهب؟

- عند العاشرة.

50

ارتجَّ أتوبيس الجنازة بشدة.
حاول السائق أن يقود ببطء، ولكن سائقي السيارات الفاخرة المستوردة على الطريق أخذوا يطلقون "الكلاكس"، فهم دومًا على عجلة من أمرهم، مما جعل السائق يرمق المرآة في قلق.

في المقدمة، جلس رجلان حكيمان ضئيلا الجسد، يرتدي أحدهما معطف فراء غير طويل، بينما ارتدى الآخر جاكت جلد أسود، بديا في الخمسينيات من عمرهما. أحدهما هو المختص بتجميل جثمان المتوفَّى، والآخر هو الحانوتي، ولكن "فيكتور" لا يعرف ذلك، فقد ظهرا في اللحظة ذاتها، وكانا يساعدان الرجال في وضع التابوت عبر الباب الخلفي للأتوبيس.

جلس "فيكتور" في المؤخرة، وقد أحاط "ميشا" بذراعه حتى يبقيه في كرسيه. وبجوارهما كان التابوت، الذي يصدر خشبه صريرًا كلما انعطف الأتوبيس، وقد أغلقوا غطاءه بالمسامير، وغطوه بقماشة لونها أحمر في أسود.

التقت عيناه بين لحظة وأخرى بعيون الرجلين الفضولية، على الرغم من أن مثار فضولهما كان "ميشا"، وليس هو بالطبع.

وصلوا إلى مدافن "بايكوف"، وتوقفت الرحلة عند مكتب المدافن. ترجَّل السائق وذهب ليسأل عن رقم المقبرة، واستغل "فيكتور" هذا الوقت في

شراء باقة زهور كبيرة من واحدة من العجائز الواقفات هناك.

بدت الطرق عبر المقابر طويلة إلى حَدٍّ غير متوقع، وأرهقت عينا "فيكتور" من مشاهدة شواهد القبور المتتالية. على أن الأتوبيس توقف أخيرًا. فنهض "فيكتور" واستعد للنزول. ولكن رأس السائق ظهرت من خلف الحاجز الشفاف:

- ليس بعد.

بينما قال أحد الرجلين، وهو يحدق أمامه:

- انتبه لكل هذه السيارات! إياك أن تحتك بواحدة منها!

نظر "فيكتور" بدوره. كانت سيارات مستوردة فاخرة مصطفة على الجانب الأيمن من الممر، ولم تترك للأتوبيس إلا مجالًا ضيق للعبور. فقال السائق:

- الأفضل أن ندخل من الممر الآخر. بدلًا من المخاطرة.

هكذا عاد الأتوبيس، ودخل الممر الآخر. بعد خمس دقائق تقريبًا، كانوا قد وصلوا إلى حيث مقبرة محفورة حديثًا. إلى جانبها كومة من التربة الطينية الطازجة، وجاروفين.

خرج "فيكتور". ومسح المكان بعينيه، حتى رأى جمعًا من الناس على بُعد خمسين مترًا، ومن عند الجانب الآخر، اقترب اثنان من عمال المدافن في ملابسهما الثقيلة الرثة. سأله أحدهما:

- أهذا هو العَالِم؟

بينما صاح الآخر وهو يهز رأسه:

- لنتولَّ أمره إذًا.

هكذا أنزلا التابوت إلى الأرض إلى جوار القبر. أحضر أحدهما لفة حبال، وانهمك في إعدادها لينزل بها التابوت إلى مُستقَره.

عاد "فيكتور" إلى الأتوبيس، وحمل "ميشا"، وأنزله. نظر عامل الحبل إلى المنظر أمامه في دهشة، ولكنه لم يتوقف عن عمله. بينما تحدث العامل الآخر مع السائق:

- جنازة يرثى لحالها، أليس كذلك؟ لا يوجد قس، ولا حضور.

نظر السائق بإيماءة ناحية "فيكتور"؛ حتى يسكت الرجل.

أنزل العاملان التابوت داخل المقبرة، قبل أن ينظرا في ترقب إلى الرجل صاحب البِطريق.

ذهب "فيكتور" إلى جانب القبر، وألقى بالزهور فوق التابوت بالأسفل، وأتبع ذلك بإلقاء حفنة من التراب.

انهمك العاملان في ردم القبر، وما هي إلا عشر دقائق حتى كانت معالم القبر قد ظهرت. بعد ذلك ذهب العاملان لحالهما، وبجعبة كل منهما بقشيش ضخم بعملة بلدهما التي صارت بلا قيمة من الأصل، وأخبرهما أنه سيأتي إليهما في مايو، حينما يتخذ القبر شكله النهائي. عاد حلّاق الموتى والحانوتي إلى الأتوبيس، ليبقى "فيكتور"، الذي رفض طلبهم أن يوصلوه حتى مدخل المدافن، وحده عند القبر، مع "ميشا".

كان "ميشا" واقفًا بكل انتباه عند القبر، وكأنه غارق في أفكاره، وهو يحدق إلى جنازة مجاورة. شعر "فيكتور" بالضيق من صخب مراسم الجنازة الأخرى. ووجد غرابة في أن يكون هو الحاضر الوحيد لهذه الجنازة. أين أصدقاؤه وأقاربه؟ أم أن "بيدبلاي" قد عاش أطول منهم أجمعين؟ أمر محتمل. ولولا اهتمام "فيكتور" بالبطاريق لما وجد الرجل من يدفنه.

تخدرت وجنتاه من البرد، وتجمدت يداه العاريتان. لا يعرف طريقه إلى الخارج، ولكنه لم يكن قلقًا. تنهد وهو يجثو ليكون في مستوى البِطريق:

- حسنًا يا "ميشا". هذه هي الطريقة التي ندفن بها نحن البشر موتانا.

التفت "ميشا" إلى سيده، وحدق فيه بنظرات من عينيه الصغيرتين الحزينتين. سأله "فيكتور":

- أليس علينا أن نبحث عن طريق الخروج؟

أخذ يتطلع حوله، فوجد رجلًا يتجه نحوه. كان من حضور الجنازة الأخرى. لوَّح له الرجل، وبما أن المكان يخلو من أي شخص سواه، فقد وقف "فيكتور"، وانتظر الرجل.

كان الرجل قصيرًا، ملتحيًا، يتدلى من رقبته منظار، فوق معطف الفراء الفاخر من ألاسكا. وجد "فيكتور" أن الرجل يرتدي ملابس غريبة لا تتلاءم مع حضور جنازة، وكذلك أحسَّ أنه رآه من قبل. بادره الرجل، وهو يربت على منظاره:

- آسف، ولكنني كنت أتفحص هذا الجانب، فوقعت عيناي على حيوان أعرفه، فرأيتُ أن أتوجَّه إليكما. إجازة العام الجديد. منازل الضباط. ألا تتذكرني؟

أومأ "فيكتور" برأسه، فقد تذكره. مَدَّ الملتحي يده إليه يصافحه:

- "ليوشا".

- "فيكتور".

سأله، وهو يومئ تجاه القبر الجديد:

- صديقك؟

- أجل.

فتنهد الرجل، وهو يقول:

- نحن ندفن ثلاثة.

جثا إلى جوار "ميشا"، وربت على كتفه.

- أهلًا، يا بطريق. كيف حالك؟ معذرة لأنني نسيتُ اسمك.

- "ميشا".

- آه، فعلًا.. "ميشا"! طائر يرتدي بدلة.. كم هو وسيم!

اعتدل "ليوشا" واقفًا، وراحت عيناه إلى حيث الجنازة. فسأله "فيكتور":

- أتعرف طريق الخروج؟

نظر "ليوشا" حوله.

- لا أعرف.. إذا لم تكن في عجلة من أمرك فانتظر قليلًا وأنا سأوصلك. كدنا ننتهي هناك. كلمات القس.. نصف ساعة من الكتاب المقدس لكل منهم.. انتظرني هنا، وسوف ألوِّح لك عندما ننتهي.

عَقِبَ ثلث ساعة، رأى "فيكتور" حركة بين المشيعين هناك. إنهم ينصرفون. كانت أصوات محركات السيارات الأنيقة تتعالى. أخذ يبحث عن "ليوشا" الملتحي، لكن بدون منظار، وشعر بالدموع في عينيه بسبب الرياح المثلجة التي ظلت تهب. وأخيرًا، لمح من يُلوِّح له. مشي بعض خطوات، قبل أن ينظر خلفه:

- هيا يا "ميشا".

تبعه البِطريق. عندما وصلا إلى القبور الثلاثة الجديدة، لم تكن هناك سوى سيارة واحدة. مرسيدس من موديل قديم. قال لهما "ليوشا"، وهو يتخذ طريقه عبر القبور:

- سوف أوصلكما إلى المنزل لو أحببت.

تقبَّل "فيكتور" عرضه بالطبع، وما هي إلا نصف ساعة حتى كانوا أمام العمارة. وقال له "ليوشا"، وهو يناوله بطاقته:

- هذا هو رقم تليفوني.. فلربما نلتقي مجددًا. وأعطني رقمك؛ ليكون معي.

وضع "فيكتور" بطاقة الرجل في جيبه، قبل أن يدون رقمه في مفكرة كانت في تابلوه السيارة.

51

استعدت "نينا" للرحيل قرب المساء.
سألها "فيكتور":

- ألن تبقي؟ لتناول عشاء الجنازة.

بدا مرهقًا، ومتحيرًا. أومأت برأسها.

- اذهب واجلس مع "سونيا"، وسوف أفكر في طعام أجهزه.

ذهب إلى غرفة المعيشة، حيث وجد "سونيا" تجلس أمام التليفزيون. بينما ذهبت "نينا" إلى المطبخ. سأل "سونيا"، وهو يجلس إلى جوارها:

- ما الذي يعرضونه اليوم؟

- "إلفيرا".. الحلقة الخامسة.

أخرج منديله، ومسح أنفها.

كان فاصلًا إعلانيًّا. تجنب متابعة اللقطات الإعلانية السريعة الخاطفة، وانشغل بالتحديق بالأرض، بينما كانت عينا "سونيا" تنظران إلى الإعلانات بنهم.

وفي النهاية، انتهت الفقرة الإعلانية، وأعقبها تتر بداية المسلسل، تصاحبه موسيقى باهتة تبعث على الغثيان. سألها:

- ألا تودين الذهاب للسرير؟

قالت له الصغيرة، وعيناها على الشاشة:

- لا. أتودُّ أنت؟

لم يرد عليها. بدأ يتضايق من سماجة الشخصيات اللاتينية التي في المسلسل. ولم يكن يرغب في الاستغراق في أحداثه. لذلك بحث بعينيه عن "ميشا"، ولكنه لم يكن في الغرفة. كان في غرفة النوم، واقفًا مثل تمثال في مكانه المفضل وراء الأريكة الخضراء. جثا "فيكتور" على ركبتيه إلى جواره. وسأله، وهو يربت على كتفه السوداء:

- كيف حالك؟

نظر إليه "ميشا"، ثم نظر إلى السقف.

وجد "فيكتور" عقله يروح للتفكير في "بيدبلاي". يوم أن حلق له ذقنه، وما طلبه منه العجوز، وكيف وعده أن ينفذ طلبه – وفي تلك اللحظة، شعر برعدة تسري في جسده. فكَّر أن هذا نتيجة بقاءه طويلًا في المدافن.

تذكَّر كيف واجه عَالِم البطاريق العجوز موته المؤكد بكل استخفاف. كان يقول: "ليس لديَّ أعمال عالقة". هز "فيكتور" رأسه في تعجُّب واندهاش، حتى أن "ميشا" توجَّس منه، وتراجع خطوة وهو يحدِّق فيه.

قال لنفسه: "وكذلك أنا"، رغم أن معرفته بهذه الكذبة رسمت على وجهه ابتسامة ذنب.

لديه بالفعل أعمال لا بد له من إنجازها، وحتى لو لم يكن لديه، فإن من المستبعد أن يتعامل مع فكرة موته بهذا الاستخفاف. كان قد كتب ذات مرة في دفتره عبارة تقول: "حياة صعبة أفضل من ميتة هينة". كانت عبارة سعد بها فترة من الزمن، وكثيرًا ما استخدمها، بمناسبة ودون مناسبة، ثم نسيها. وها هي بعد سنوات، تطفو على سطح ذكرياته، بعد أن أثرت فيه كلمات "بيدبلاي" كل التأثير. رجلان، من عمرين مختلفين، ولهما توجهان مختلفان.

بعد أن وجد أن سيده جاثٍ بلا حراك، غارقًا في أفكاره، اقترب "ميشا" وتمسح بمنقاره في رقبته، وهو تعبير جسدي بارد قطع على "فيكتور" استرسال أفكاره، وأخرجه من أحلام اليقظة. داعب البِطريق، وتنهد، ونهض واقفًا، واتجه إلى الشباك.

كانت واجهة العمارة المقابلة في عينيه أشبه بمربع كلمات متقاطعة، من منظر تناسق الشبابيك المضيئة وتلك المظلمة. وجد فيها أيضًا نموذجًا على طبيعة الحياة. وشعر بحزن خفي وهو يحدق بها، ولكنه حزن ناعم مستأنس، بفعل الظلام. وهناك هدوء غريب، غير طبيعي نوعًا ما، ذو درجات، ذكره بالهدوء الذي يسبق العاصفة، وهيمن عليه. استند براحتيه على حافة الشباك الباردة، وأسند ساقيه إلى أنابيب التدفئة، بينما وقف، وهو يعي أن هذا الهدوء من حوله مؤقت، وكان ينتظر أن ينقضي.

بعد قليل، وعلى صوت تنفس هادئ، التفت، ليجد "نينا"، واقفة في العتمة. قالت له هامسة:

- العشاء جاهز. وقد نامت "سونيا".. أمام التليفزيون.

ذهبا إلى غرفة المعيشة، التي يضيئها الآن مصباح خافت في الركن.

كانت رائحة البطاطس المقلية والثوم تفوح من المطبخ، والمقلاة المغطاة موضوعة فوق منتصف الترابيزة. قالت "نينا" وهي تشير إلى دولاب المطبخ:

- وجدت أن لديك فودكا. هل أحضرها؟

أومأ برأسه بنعم. أحضرت الزجاجة وكأسين صغيرتين، وقدمت له طبق اللحم والبطاطس المقلية، وصبَّت الفودكا. جلس "فيكتور" في كرسيه، وجلست "نينا" قبالته. سألته:

- كيف كانت الجنازة؟

- هادئة. لم يكن هناك من أحد، سواي و"ميشا".

قالت، وهي ترفع الكأس إلى شفتيها:

- لندعُ أن يرقد في سلام!

شرب "فيكتور" بدوره. تناول اللحم، وهو ينظر إلى "نينا"، رأى أمامه وجهًا جميلًا مستديرًا، زادته حُمرة الفودكا جمالًا.

خطر له فجأة أنه لا يعرف أي شيء عنها. من هي، ومن أين هي؟ يعرف أنها ابنة أخت "سيرجي"، ولكن ما الذي يعرفه عنه هو؟ خلاف أنه صار صديقه بسهولة كبيرة. إن أصول اسمه كافية لتجعل أي أحد يرتاح لصداقته. شعر أن تلك الحكاية تُثبِّت قدميه على أساس غير مرئي، يرتقي به إلى مرتبة تكون فيها المتعة كافية لاستلهام الثقة الكاملة.

صَبَّ "فيكتور" كأسين آخرين، ثم اقترح نخبًا. وسألته "نينا":

- أكنت تعرفه جيدًا؟

شرب "فيكتور" كأسه.

- أعتقد ذلك.

- ماذا كان عمله؟

- عَالِم. كان يعمل في حديقة الحيوان.

أومأت برأسها، ولكن بطريقة تنم عن أن اهتمامها بالعَالِم المتوفي ينحسر سريعًا الآن.

تناولا الطعام، وشربا دون تلامس الكأسين. بعد ذلك رفعت "نينا" الأطباق المتسخة ووضعتها في حوض المطبخ، ثم وضعت البراد على النار. ومع انتظارها غليان الماء، كانت تنظر عبر الشباك، وقد نمَّ وجهها عن ألم تعانيه.

- ما الأمر؟

- إنها المدينة، لا أطيقها.. ذلك الزحام المجهول.. وتلك المسافات..

سألها في دهشة:

- ولكن لماذا؟

دست يديها في جيبي بنطلونها الجينز، وهي تهزُّ كتفيها في حيرة:

- أمي المغفلة تخلت عن كل شيء، وانتقلت إلى هنا.. ما كنت لأفعل ذلك! أما أنت هنا، فلك المكان وكذلك حديقته الصغيرة. هذا أفضل.

تنهد "فيكتور". لم يكن يخالجه أي شعور معين تجاه الريف، باعتباره مولود في المدينة.

غلى الماء في البراد.

عاد ليجلس أحدهما قُبالة الآخر، وخيم الصمت بينهما، واستغرق كلٌّ منهما في أفكاره.

شعر "فيكتور" بالنعاس، فنهض واقفًا، وتفاجأ بذلك الثقل في ساقيه.

- سأذهب لأنام.

- تفضل. سوف أغسل الأطباق.

استغرق في النوم فور أن دخل في السرير. ولكنه قلق أثناء الليل، بعد أن شعر بحرارة السرير، وانتبه إلى وجود "نينا" إلى جواره، وقد نامت وظهرها في حضنه.

وضع يده على كتفها، وعاد للنوم مجددًا، وهو يشعر بالرضا، وكأن كل شكوكه تبخرت، وكأن اليد التي يضعها على كتفها مثل قناة يتدفق منها دفء الحياة بينهما، بكل سلاسة.

52

صباح جديد.
استيقظ "فيكتور"، وهو يشعر بثقل في رأسه، ولم يجد "نينا" إلى جواره. وكانت الساعة الثامنة والنصف.

اتخذ طريقه عبر غرفة المعيشة، حيث كانت "سونيا" لا تزال نائمة، ثم إلى المطبخ. يسمع صوت خرير الماء في الحمام.

ذهب إلى البوتاجاز ليعد القهوة، ولكنه لمح ظرفًا فوق الترابيزة. كان مغلقًا، ولكنه من دون اسم. فتحه، وأخرج منه ورقة مطوية، ومعها ثماني ورقات نقدية من فئة المئة دولار.

سددتُ الدين، مع الشكر. الأمور تتحسن. سأعود قريبًا – "إيجور".

ألقى "فيكتور" الورقة فوق الترابيزة، وأبقى الدولارات في يده.

ألقى نظرة على الحمام. كانت "نينا" تحت الدش، وخطوط الماء المتدفقة تبرز سلاسة جسدها وتناسقه. اندهشت عندما وجدته يقف عند الباب، ولكنها لم تشعر بحرج. سألها:

- هل حضر أحد؟

قالت، وهي تنظر إلى النقود التي في يده:

- كلا.

- ماذا عن ذلك الخطاب الموجود على ترابيزة المطبخ؟

- أنا لم أذهب إلى هناك بعد.

هزت كتفيها، فتراقص نهداها الصغيران.

أغلق باب الحمام، ووقف في الردهة، محاولًا التركيز، ولكن صوت المياه يشتت تركيزه. فكر في كل ما حدث في المساء السابق، وفي كل ما قالته "نينا" له. لقد نام بعدها، والآن ومع الصباح الجديد ها هو يجد دليلًا على دخول أحدهم الشقة. لا توجد آثار على الأرضية، ولكن هناك دليل قوي..

عند هذا الحد، أضاء مصباح الردهة، وتفحص الأرضية بحثًا عن أي أثر لزائر الليل ذاك، ولكنه لم يجد.

عاد إلى المطبخ، وأعد القهوة، ثم جلس إلى الترابيزة. تذكر الموقف الذي اكتشف فيه رسالة "ميشا" الإنسان وهداياه قبل عيد الميلاد. الموقف يتكرر بالتمام – ولكن الفارق هذه المرة أن الرسالة من رئيس التحرير، ولا هدايا.. "الأمور تتحسن".

هل يعني بكلماته هذه أن هناك عملًا عمَّا قريب؟ وأنه سيلتقي برئيس التحرير ويمكنه أن يسأله عن نوعية الخدمة البريدية تلك التي تتيح امتلاك نسخة من مفاتيح شقته؟

المفاتيح.. نهض، وراح يجرب باب الشقة. إنه مغلق. عاد إلى المطبخ.

طمأن نفسه بفكرة أن يقوم بتغيير قفل الباب. هناك أنواع كثيرة من الأقفال اليوم: المزود بجرس الإنذار، والمزود بشفرة إلكترونية، والمزود بجهاز تحكم إلكتروني.. بل يمكنه أن يحضر قفلًا مزدوجًا. وعندئذ سيأمن على شقته، وحياته الشخصية، ونومه.

بعد أن استعاد رباطة جأشه، أعد قهوة لأجل "نينا"، وهمَّ بأخذ الفنجان إليها ولكنه وجدها أمامه.

كانت ترتدي بيجامته. قال لها:

- أعددتُ لكِ بعض القهوة.

- أشكرك.

ابتسمت، وهي تأخذ منه الفنجان، وتجلس إلى الترابيزة.

- "فيك".

كانت تعبيرات وجهها الآن تجمع بين الجدية والاستجداء، وأكملت في تردد:

- ما أريد أن أقوله.. الحقيقة أن الأمر يتعلق بك.. والآن بعد أن صرنا مثل زوجين.. نوعًا ما.

سكتت. فسألها، في محاولة منه لتبديد الصمت المزعج:

- ما الذي تقصدينه؟

- أقصد أجري.. إنه يعني لي الكثير.. المال الذي أحصل عليه لرعاية "سونيا".

قال لها في دهشة:

- بالطبع، سوف تحصلين عليه. ما الذي دفعكِ إلى الظن بأنك لن تحصلي عليه؟

هزت كتفيها، وقالت:

- ترى أن الموقف مُربِك، نعيش معًا، بينما أعمل لديك في الوقت نفسه.

عاد يشعر بثقل في رأسه، بعد أن تخلص منه بفنجان القهوة. قال لها في أسى:

- لا بأس. لا تقلقي، فأنا لست من يدفع الأجر. بل "سونيا".. مال أبيها.

شعرت "نينا" بحرج، وظلت في مكانها، تحدق بالترابيزة وفنجان القهوة أمامها. نهض، ومر بأصابعه على خصلات شعرها المبتلة، وهو يقول لها:

- لا تقلقي. لا بأس.

أطرقت برأسها، في صمت. فأردف:

- سوف أعود متأخرًا. فلا تفتحي لأحد. وإليكِ دفعة مقدمة..

وضع ورقة بمئة دولار فوق الترابيزة، وانصرف.

53

لم يستقل المترو.
فضَّل ألا يفعل ذلك مباشرة، بل يتجول في المدينة لبعض الوقت قبل التوجه إلى "سفياتوشينو". بعد بضعة أيام من الجو الرائق الذي أذاب بعض الجليد، عاد برد فبراير ليضرب بقوة من جديد. أشرقت الشمس، ولمع الثلج تحت قدميه، وشعر بيديه وكأنهما قطعتان من الجليد في جيوب معطفه الفرو القصير. يقبض على كتلة جليد أخرى، هي مفاتيح شقة "بيدبلاي".

هذه المرة، وبسبب البرد الذي دفعه إلى زيادة سرعته، لم يستغرق إلا عشر دقائق ليقطع المسافة من محطة المترو إلى شقة "بيدبلاي". دخل الشقة سريعًا، ونفض الثلج عن حذائه قبل أن يتوجه إلى المطبخ. كانت الشقة مرتبة، ولكن الرائحة التي هي مزيج من الرطوبة والكتمة ذكرته بذاك اليوم الذي حضرت فيه سيارة الإسعاف لتنقل "بيدبلاي" من الشقة، للمرة الأخيرة.

عطس بسبب رائحة ما في هواء المكان.

فكَّر وهو يتأمل أثاث المطبخ القديم، والساعة المُعطَّلة، والمطفأة الفخارية الموضوعة عند حافة الشباك، أنه كان من الأفضل للرجل أن يموت في منزله. لاحظ أن المطفأة وكأنها لم تُستخدم من قبل، إما لأن العجوز نسي أمرها، أو لأنه رغب في أن يحافظ عليها.

دخل إلى غرفة المعيشة. الكراسي العتيقة مجمعة عند الترابيزة المستديرة. وهناك نجفة ذات مصابيح خمسة معلقة في منتصف السقف. وفي مواجهة الباب كومودينو ذو أدراج، ومن فوقه ثلاثة أرفف للكتب. أمام الكتب صور فوتوجرافية وقصاصات من الصحف. وكذلك هناك صور معلقة على الجدران، داخل براويز عتيقة. كل الأثاث في الشقة قديم للغاية.

تذكَّر "فيكتور" شقة جدته التي ربته بعد طلاق أبويه وذهاب كلٍّ منهما إلى حال سبيله. كانت جزءًا من منزل قديم في شارع "تاراسوف"، وكانت مثل هذه، عتيقة الطراز نوعًا ما، على الرغم من أنه لم يلحظ ذلك وقتذاك. وكذلك كان هناك كومودينو، ولكنه أصغر حجمًا، ومن فوقه خزانة زجاجية تعرض مقتنيات جدته التي تفتخر بها: مزهريات من الخزف الصيني قدموها لها تقديرًا لعملها. كانت هناك خمس أو ست مزهريات، على كلٍ منها اسمها وأول حرفين منه، والتاريخ، ووصف مختصر لمناسبتها، وكل هذا منقوش بحبر مذهب. وكانت هناك الصور نفسها ذات البراويز عن الفترة الزمنية نفسها، ولكنها كانت من ماضٍ بعيد لبلاد لم تعد موجودة.

ذهب إلى الكومودينو. تعرف على "بيدبلاي" في الصور، مع امرأة، ومن ورائهما نخيل، ومكتوب في حافة الصورة "يالتا، صيف 1960". أمعن النظر في الصورة. كان "بيدبلاي" في الأربعين أو الخامسة وأربعين حينذاك، أمَّا السيدة ذات الشعر المجعد فمن الواضح أنها كانت من عمره نفسه. وفي صورة أخرى، كان "بيدبلاي" يقف وحده إلى جوار حمام سباحة يطل فوق مائه دولفين. مكتوب: "باتومي، صيف 1981".

الماضي يؤمن بالتواريخ. وما حياة المرء إلا سلسلة من التواريخ، وهو ما يُضفي على الحياة إيقاعها وسمة التدرج فيها، كما لو أن الإنسان قادر عند تاريخ ما أن ينظر أمامه وخلفه؛ ليرى الماضي ذاته. إنه ماضٍ واضح مفهوم، مقسم إلى أحداث ومسارات ودروب.

هنا، وبخلاف رائحة الكتب الرطبة، وربما بسبب وجود الشقة في الطابق الأرضي، يشعر براحة وأنه في أمان. تلك الجدران المغطاة بورق الحائط القديم، والشمعدان الذي يغطيه الغبار، وصفوف الصور، لكل ذلك تأثير عجيب على نفسه.

جلس إلى الترابيزة، وتذكر جدته. "ألكسندرا فاسيليفنا"، التي اعتادت عندما كبرت في السِّنِّ أن تخرج بكرسي صغير لتجلس خارج المنزل. وكانت تقول:

- الحمد للرب أنني لست مشلولة. من شأن هذا أن يفسد عليك حياتك، ويفقدك زوجة!

كان يضحك، ولكن الجدة، العجوز المقعدة، أخذت من جيرانها رقم تليفون سمسار. وبعد شهرين، كان لدى "فيكتور" شقة من غرفتين، وانتقلت الجدة إلى شقة من غرفة واحدة في الطابق الأرضي في واحدة من عشوائيات "خروشيف"، وهناك بقيت حتى توفيت. قام بدفنها رجال الأمن المجتمعي، وأسهم كل جار من جيرانها بثلاثة روبلات لأجل إكليلها. ولم يعرف "فيكتور" بكل هذا إلا بعد ستة أشهر، عقب أن عاد من تجنيده في الجيش.

شعر برغبة في تناول كوب من الشاي، فذهب إلى المطبخ. كان الظلام يحل. وعندما فتح النور، وجد موتور الثلاجة يدور من جديد. أصيب بالدهشة، ففتح باب الثلاجة. سوسيس فاسد، وعلبة مفتوحة من الحليب المركز. أخرج الحليب، ووجد في دولاب المطبخ الطويل الضيق علبة الشاي.

انتابه وهو بالشقة شعور بالراحة والضيق معًا. تناول الشاي، وأكل معه قطعة الحليب المركز التي تجمدت. اختلط صخب المارة في الخارج مع ضجيج سيارة عابرة.

شعر بغصة في حلقه، فذهب يصب لنفسه كوبًا ثانيًا، وشربه، وعاد إلى غرفة المعيشة، وأنارها. ألقى نظرة على غرفة المكتب - حيث جميع الأرفف وخزائن الكتب - وهناك اتجه إلى المكتب، وأضاء الأباجورة، وكانت بدورها عتيقة الطراز ذات قاعدة رخامية، وجلس فوق الكرسي الجلدي الأسود.

دفاتر عديدة فوق سطح المكتب. لاحظ أجندة سميكة إلى جوار الأباجورة، وتصفحها. كتابات بخط اليد كُتبت على عجل، ويفصل بين مجموعة صفحات وأخرى فاصل مميز. هناك فاصل عند قصاصة من صحيفة. اقترب من الضوء أكثر. إنها تتحدث عن هدية من بريطانيا إلى أوكرانيا عبارة عن محطة بحثية في القطب. وينتهي التقرير الصحفي بكلمة عن الرعاة، "الذين دون دعمهم المالي لما أمكن أن نرسل العلماء الأوكرانيين إلى هناك". كان هناك رقم تليفون لمن يريد أن يستفسر، ورقم حساب بنكي لمن يريد أن يتبرع.

تساءل "فيكتور" عن علاقة القطب الشمالي بأوكرانيا.

وجد أيضًا إيصالًا خاص بطرد بريدي. تفحصه، فكاد يصيبه الشك في قواه العقلية. لقد أرسل "بيدبلاي" لحملة القطب الشمالي خمسة ملايين، بالعملة

المحلية المتضخمة إلى حد التورم، وربما كان هذا المبلغ هو كل مدخراته.

نحَّى الإيصال وقُصاصة الصحيفة جانبًا، وأخذ يتصفح مذكرات العجوز، لكنه لم يتمكن من فك شفرة خَطِّه الرديء، إلا من بعض الكلمات الغريبة. إن أفكار "بيدبلاي" مشفرة وتمثل لغزًا لكل غريب يقرؤها، وذلك بسبب رداءة خطه.

عاوده ذلك الشعور بعدم الارتياح، مع ألم في أنامله، كما لو أنه يتألم من ملامسة هذه الأشياء التي تحوي ألغازًا لا يفهمها.

لم ينسَ وعده للعجوز، ولكنه فضَّل ألا يفكر فيه في الوقت الراهن. ومع أنه قد حضر إلى المكان وهو لا يفكر فيه، فإنه هو السبب الذي أتى به إلى هنا، فكانت المفاتيح الباردة تقود يده المتجمدة مثل البوصلة.

ها هو ذا يجلس بين أشياء وأوراق لم تعد ملكًا لأحد. عالم كامل صار دون سيد أو مدبر. كانت رغبة العجوز ألا يمسسها أي غريب، وألا يرى بعينيه دمار عالمه الصغير وخرابه الذي تخلف عن عصره بثلاثة أو أربعة عقود.

تنهد عميقًا، وانتابته رغبة مفاجئة في أن يسحب جميع الأدراج، أو أن ينبش الكومودينو بحثًا عن شيء يسعف ذاكرته. ولكن ما منعه هو ما حوله من عالم صغير راسخ صنعه "بيدبلاي". فجلس يفكر ويتأمل في القصاصة والإيصال، والمذكرات، والدفاتر.

صار الشارع صامتًا الآن، فدفعه مزيج الصمت بالداخل والخارج إلى أن يتحرك.

دسَّ قصاصة الصحيفة في جيب معطفه.

نظر حوله إلى حوائط غرفة المكتب، ولكنه لم يلمس أي شيء آخر. أحضر علبة الكبريت من البوتاجاز في المطبخ. وفي دولاب صغير في الردهة عثر على زجاجة أسيتون، فأخذها وعاد بها إلى المكتب. لم يعد يفكر فيما يقوم به، بينما كان ينثر الأسيتون فوق الكتب المرصوصة على الأرفف السفلية، وعلى كومة صحف قديمة تحت المكتب. حمل رزمة من الصحف إلى غرفة المعيشة ووضعها أسفل السفرة، وألقى فوقها القماشة المُبقَّعة بالشاي. ثم راح يشعل النار في الصحف والأوراق وكل ما هو قابل للاشتعال. تصاعدت ألسنة اللهب في الغرفتين، ولكنها ما زالت أضعف من أن تلتهم هذا العالم المنكوب. وجد في الكومودينو مفروشات ووسائد ومناشف، فألقى بها إلى النار، مع معطف "بيدبلاي" الذي جلبه من الشماعة في الردهة.

صار الهواء أسخن، في دوامة الدخان الأسود، الذي ملأ الغرفة فوق اللهب، ليجبره على اللجوء إلى الردهة.

تعالت طقطقة النيران تدريجيًّا. وكان اللهب قد التهم سطح الترابيزة بالفعل، وامتد الآن إلى سيقانها.

تحسس مفاتيح "بيدبلاي"، وهو يتجه إلى باب الشقة، ولكنه عاد ليطفئ نور المصباح. كانت النيران تتألق بلون أحمر عميق في الظلام، ووجد منظرها أجمل وأشد رعبًا من ذي قبل.

أغلق الباب الخارجي للشقة من خلفه.

دار حول العمارة، قبل أن يتوقف قبالة شبابيك شقة "بيدبلاي"، وراقب ألسنة النيران وهي تتصاعد تجاه السقف. نظر لأعلى تجاه الطابق الأول. لم يجد أي ضوء. إما أن أصحاب الشقة بالأعلى نائمون وإما أنهم بالخارج.

ألقى نظرة أخيرة عبر الشباك إلى ألسنة اللهب المتراقصة.

ها هو قد أوفى بوعده. لكنه وجد يديه ترتجفان، وشعر بارتعادة باردة تسري في ظهره.

ابتعد، ولاحظ كشك تليفون عند الناصية، ومنه اتصل بالمطافئ.

تهشَّم الزجاج، وكأن النيران تريد أن تخرج من الشقة بأي طريقة. وسمع صرخات امرأة. وعقب خمس دقائق سمع سرينة عربة المطافئ. وسرعان ما قفز منها رجال الإطفاء وانشغل كل واحد منهم بمهمته، وهم يتصايحون. ألقى "فيكتور" نظرة أخيرة على اللهب، قبل أن ينطلق بخطوات غير متسارعة إلى محطة المترو.

شعر بمذاق الدخان في فمه. وتساقطت رقاقات الثلج في خفة على وجهه، ولكن الرياح الباردة أطارتها قبل أن تذوب.

54

- رائحة شعرك دخان.
هكذا همست "نينا" بصوت نعسان، بينما كان "فيكتور" يدخل السرير إلى جوارها.

تمتم بكلمات ما، قبل أن يدير ظهره وينام على الفور، وهو منهك تمامًا.

استيقظ عند حوالي العاشرة، وسمع "سونيا" تتحد مع "ميشا" إلى جوار السرير.

- "سونيا"، أين العمة "نينا"؟

- خرجت. تناولنا الإفطار ثم خرجت. تركنا لك بعض الطعام.

وجد فوق ترابيزة المطبخ بيضتين مسلوقتين، كما وجد رسالة أسفل الملاحة:

"هاي! لم أرغب في إيقاظك. سوف أساعد والدة "سيرجي" في التسوق والغسيل. سأعود ما إن أنتهي. حبي.. نينا".

كوَّر الرسالة في قبضته، وتحسس البيضتين، فوجدهما باردتين. أعد لنفسه بعض الشاي، ثم تناول إفطاره.

عاد إلى غرفة النوم:

- هل أطعمتِ "ميشا" يا "سونيا"؟

- أجل. تناول سمكتين اليوم، ولكنه لا يزال غير سعيد. فلماذا يا أنكل "فيك"؟

جلس فوق الكنبة، وقال لها في حيرة:

- لا أدري. أعتقد أنهم يكونون سعداء في الكرتون فقط.

أجابته "سونيا"، وهي تلوح بيدها:

- جميع الحيوانات كذلك في الكرتون.

لاحظ أنها ترتدي فستانًا جديدًا بلون الزمرد.

- أهذا جديد؟

- هدية من "نينا". بالأمس ونحن نتمشَّى دخلنا إلى محل.. ومنه اشترت لي الفستان. جميل، أليس كذلك؟

- بلى.

- والبِطريق أحبه أيضًا.

- هل سألتِه؟

- أجل. ولكنه غير سعيد. ربما لا يلائمه المكان.

- ربما هذا هو السبب. فهو يحب البرد، والجو هنا دافئ.

- ممكن أن نضعه في الثلاجة.

نظر إلى "ميشا" الواقف إلى جوارها، وهو يحرك جسده في هدوء من قدم إلى أخرى، وصدره يعلو ويهبط مع كل نفس.

- لا يجب أن نفعل ذلك، فالمساحة ضيقة عليه للغاية. أظن أنه يريد العودة إلى موطنه، ولكن موطنه بعيد جدًّا.

- بعيد جدًّا؟

- القطب.

- وأين هذا؟

- هل يمكنكِ أن تتخيلي كوكب الأرض وكأنه كرة. هاه؟

- مثل كرة؟ أجل، بالطبع.

- حسنًا، نحن في أعلى الكرة، والبطاريق في أسفلها..

- أقدامها في الهواء؟

- لنقل هذا، أجل. ولكننا كذلك نبدو لها وكأننا معلقون في الهواء.. أرأيتِ؟

صاحت:

- بالفعل. ويمكنني أن أقف وساقايَ في الهواء!

أسندت ظهرها إلى حافة الكنبة، وحاولت أن تقف على رأسها، ولكنها لم تستمر طويلًا. وقالت وهي تعود للجلوس على السجادة من جديد:

- ولكن بوسعي أن أفعل ذلك. الموضوع أنني ثقيلة بعد الإفطار.

ابتسم. كانت هذه هي المرة الأولى خلال عدة أشهر التي يتحدث فيها مع سونيا بسهولة ودون أن يشعر بضيق خفي. بدا له ذلك غريبًا، لأنه لم يفقد الشعور بأن "سونيا" غريبة عنه، وأن وجودها في حياته مؤقت. فهي - إذا جاز التعبير - مصيبة وحلت عليه، وكان هو طيبًا إلى حد اصطحابها إلى أي مكان يحب الأطفال أمثالها الذهاب إليه. لديه ذلك الشعور الغريب بالواجب تجاهها. بأنها ملزمة منه. فلو أن والدها لم يمت، لجاء ليأخذها، لكنه عهد بها إليه، لأنه أحس بأنه لن يعود. والآن لم يتبقَ لها أحد. لم يذكر "ميشا" الإنسان أم "سونيا"، وما إذا كانت على قيد الحياة. كما توقف الصديق اللدود "سيرجي تشيكالين" عن محاولة أخذها. والآن، ها هي "سونيا" في شقته. لا يبدو عليها أي قلق أو تبرم. صحيح أن "نينا" ما كانت لتظهر في الصورة إلا بسبب "سونيا"، لكن كانت حياته ستستمر مع "ميشا" كما كانت من قبل، لا سيئة ولا جيدة، بل عادية وحسب.

وصلت "نينا" في حوالي الثالثة. بعد أن عادت من زيارة أمها، ذهبت لشراء بعض الأشياء من السوبرماركات، وهي الآن تفرغ الأكياس التي أحضرتها.. زبادي، سوسيس، جبن..

قالت لـ"فيكتور" لما دخل المطبخ:

- أتعرف.. "سيرجي" اتصل بي اليوم من موسكو. إنه بخير الآن.

لثمت شفتيه، ثم أردفت بابتسامة:

- لا تزال رائحتك مثل نيران حريق!

55

هادئة.. رتيبة.
هكذا مرت الأيام التالية. ولم يكن لدى "فيكتور" من نشاط يقوم به إلا تغيير قفلي الباب. اشتراهما وقام بتركيبهما بنفسه. دام الشعور بالرضا بضع ساعات، قبل أن يعاوده إحساس بالملل. كان عليه القيام بشيء ما، ولكن ليس هنالك من شيء.

كما لم يجد في نفسه رغبة في أن يكتب.

صاحت "سونيا" فرحة، وهي تقف عند باب البلكونة:

- أنكل "فيك"! قطع الجليد تبكي!

ها قد عاد ذوبان الجليد. جاءت بداية مارس في وقتها.

كان في انتظار قدوم الربيع، كما لو أن في الدفء حل لجميع مشكلاته. على الرغم من أنه عندما فكر في مشكلاته، أدرك أن ليس لديه مشكلات بالمعنى الحقيقي للكلمة.

معه مال كافٍ حتى الآن، وخاصة بعد رسالة رئيس التحرير الغامضة الأخيرة. وهناك فوق الدولاب، في الحقيبة مع المسدس، لا تزال هناك رزمة محترمة

من الأوراق النقدية فئة المئة دولار، ومع أنها أموال "سونيا"، فإن من حقه منطقيًّا أن يستفيد منها ما دام هو الوصي غير الرسمي عليها.

وكما هو الحال دومًا، استمرت "نينا" في تسلية وقت "سونيا"، أحيانًا في الشقة، وأحيانًا في الخارج، لتترك "فيكتور" لنفسه. وفي الليل يلتقيان، وكلاهما يعرف أن ليس للحب أو الشوق دخل في الموضوع، ولكنها الحاجة والاعتياد. عندما يحتضن "نينا" ويمارس معها الحب، يتوه عن نفسه. بدا له أن دفء جسدها هو النبع الذي يرتوي منه. ومن ثم، وفي ساعات الليل المتأخرة، وبينما تنام "نينا" بأنفاس هادئة، يبقى هو ساهدًا، يراوده شعور مريح لكونه يعيش حياة طبيعية منظمة – فيها كل احتياجاته الضرورية: زوجة، طفلة، و... بِطريق. ومع وضوح حقيقة أن كل ذلك مصطنع، فإن "فيكتور" يفضل أن يتجاهل تلك الحقيقة لأجل أن يتشبث بالإحساس المريح ووهم السعادة اللذيذ المؤقت. ولكن من يدري؟ ربما لا تكون سعادته وهمًا مثل أفكار الصباح التي تراوده الآن. ولكن، ما أفكار الصباح تلك، خاصة عندما يحل الليل؟ إنها البديل للسعادة الليلية، واستمراريتها تثبت أنه سعيد وصافي الفكر في آن واحد. هكذا يكون كل شيء على ما يرام، وتكون للحياة قيمتها.

رن جرس التليفون، بينما كان يحضر إفطار "ميشا" من الفريزر. ألقى بقطع السمك في الوعاء، وذهب ليرد على التليفون في غرفة المعيشة. أتاه صوت مألوف:

- مرحبًا! كيف حالك؟

- بخير.

تحقق الآن من أنه صوت رئيس التحرير، الذي أردف:

- عدت إلى "كييف". اعتبر أن إجازتك انتهت.

- هل تريد مني أن ألقاك؟

- ولماذا نضيع الوقت؟ سوف أرسل لك مراسلًا. سلمه العمل الذي أنجزته، وسوف يسلمك ملفًا جديدًا. أنت في شقتك؟

- نعم.

- رائع! حظك أنك نِلتَ إجازة دون مُرتَّب، على الرغم من أنك لست عضوًا في النقابة. إلى اللقاء!

أعدَّ "فيكتور" قهوته، وهو مُنعَّم بالهدوء الذي يعم أرجاء شقته. فقد ذهبت "نينا" و"سونيا" إلى "بوشا فوديتسا" للاستمتاع بمنظر ذوبان الجليد. دفعته تلك السكينة إلى الجلوس برفقة فنجان القهوة والتفكير في كل شيء في هدوء. إنها سكينة دفعته حتى إلى عدم التفكير في شيء، بل الاكتفاء بتناول القهوة في استمتاع، وتنحية أفكاره جانبًا حتى لا يختل هذا الاتزان النفسي السعيد.

على أن جلوسه واستغراقه في القهوة حفَّز أعصابه، حتى أنه التفت في فزع لحظة أن أسقط "ميشا" قطعة سمك فجأة. وسرعان ما توارت أهمية مذاق القهوة، وحَلَّ التوتر محلها. وجد أن الأفكار التي أبعدها عن عقله قد استحالت أسئلة تنهشه.

وماذا الآن؟ هل أعود لكتابة النعي؟ أعود إلى الحقائق وبيانات السيرة الذاتية المميزة بالأحمر لأشخاص لا يدركون أن هناك من كتب نعي وفاتهم قبل الأوان؟ أيعود إلى جلسات القهوة في مكتب رئيس التحرير؟ إلى أسلوب رئيس التحرير، وخط يده المرتعش؟ إلى كلامه المقتضب الموجز، والتزامه بعبارة واحدة.. "تم التحرير".. يكتبها في انتظام وعناية على ورقة نص النعي التي ستُعزِّف القُرَّاء بخبايا حياة فقيد عاش حياة استحقت أن يكون لها نعي محترم.. مكتوب قبل الأوان؟

ها هو يرى أن الأسلوب الأدبي الجديد الذي ابتكره ينمو ويزدهر. على الرغم من أنه يمارسه على النقيض من المراد منه. ولكنه وجد أنه لم يعد توافقًا إلى الشهرة والتقدير الأدبي لقاء ذلك، أو أن يصيح أمام الجميع معلنًا أنه صاحب كل تلك النصوص. وجد أنه مرتاح إلى توقيعه بذلك الاسم المستعار.. "مجموعة الأصدقاء". ولكنه شعر أن تلك "المجموعة" لا تقتصر عليه وحده. يعرف أن رئيس التحرير واحد من هؤلاء الأصدقاء. وهناك آخر، وربما هو الصديق الرئيسي كذلك، صاحب التوقيع القوي الذي يعتمد نشر نصوص "فيكتور". ولكنه لا يدري، هل كان يعتمد النص أم يعتمد التصرف حيال موضوع النص. ثم هناك مسألة التواريخ، التي هي بالتأكيد تواريخ النشر، ولكنها تواريخ مستقبلية، وتحددت خلال حياة "الفقيد"! أي أنه موت مخطط له!

كلا.. ليس للأمر علاقة بجودة أسلوبه الأدبي، ولا بتعبيراته الفلسفية، أو ذلك العرض السلس لخبايا حياة الأشخاص الذين يكتب عنهم. إنه لا يعتمد النص، بل

يبت في أمر هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، يقصف أعمارهم بجرة قلم. والمدهش أن دور رئيس التحرير في كل ذلك هامشي محدود. إنه مزيج بين المراسل ومن يقطع تذاكر الذهاب بلا عودة. ومع أن من مهامه أن ينشر النعي وفق ما هو مخطط له، فإن ذلك لم يبدُ له على ذلك القدر من الأهمية – على الأقل ليس بأهمية دور "فيكتور" - الذي يعجز عن فهمه حتى الآن.

وفجأة، وعلى النقيض من المسار المنطقي لتفكيره، تذكر أمرًا جمَّد الدم في عروقه. وبينما ظن أنه يوشك على فهم ما يجري، وجد نفسه يعود إلى نقطة البداية، مع محاولته سبر أغوار معادلة بها معلومان ومجهول واحد. تذكر كيف كان رئيس التحرير يرد على تساؤلاته في الليلة التي كان ينتظر فيها وصول السائق الذي سيقله إلى المطار.. "اللحظة التي تعرف فيها الهدف من عملك هي نفسها لحظة موتك. نحن لسنا في فيلم أكشن، بل في أرض الواقع. لن تعرف الحكاية الكاملة إلا في حال لم يعد عملك، وبالتالي وجودك، مطلوبًا".

كان يشعر وقتذاك أنه يودع رئيس التحرير إلى الأبد. وشعر "فيكتور" كذلك أن عمله انتهى، على الرغم من انزعاجه من اللغز الذي عثر عليه في خزانة رئيس التحرير. ولكن في اليوم التالي، شعر وكأن الزمن قد عاد به إلى الماضي البعيد. خَلَقَ ذلك البعد الزمني خيالًا هو مزيج بين غموض الماضي وحاضر "فيكتور" الذي يدخل مرحلة وجود جديدة، بغض النظر عن تورطه الواضح في كل ما يجري. رأى أن من الأفضل له ألا يعرف، خاصة أن كل شيء انتهى الآن.

ولكن، ها هو يرى أن الأمر بعيد كل البعد عن النهاية، بل هو مستمر، وها هو يعود إلى العمل نفسه، وإلى الاهتمام بتفاصيل ذلك العمل.

هل محاولته معرفة خبايا ما يجري تستحق؟ هل تستحق المخاطرة بمفارقة هذه الراحة وهدوء البال؟ ربما عليه ألا يتوقف عن كتابة نصوص النعي فقط لكي يظل على قيد الحياة.

عاود مخيلته مشهد رحيل رئيس التحرير.

تبًّا لكل ذلك.. هكذا حسم "فيكتور" أمره. قرر ألا يفكر في ذلك بعد الآن. هذا أسهل.

التقط ملف نصوص نعي العسكريين، الذي كان قد أنجزه منذ فترة، من عند حافة الشباك، ومر بعينيه على الأسماء وما كتبه عنها.

ما علاقته هو ومصير هؤلاء الجنرالات؟ أي فارق ستؤثر به في حياته؟ أو إذا ما كان هناك شخص مجهول قد خطط ليوم وفاتهم وكذلك لما سيتم نشره عن حياتهم في النعي، خاصة أنه سيتضح لقارئ النعي أنه توجد أسباب بين السطور تبيِّن أنهم يستحقون مصيرهم بالفعل.

إن كانت حياته تعتمد على عمله، فعليه أن يستأنف العمل إذًا. وفي تلك الحالة سيكون من الأفضل أن ينأى بنفسه عن كل ما يجري. عليه ألا يرتكب أي حماقة، كأن يحاول أن يختفي عن الأعين أو أن ينتقل إلى مدينة أخرى – ولكن عليه – وببساطة - أن يُحقِّق حلم "نينا": أن يشتري منزلًا صغيرًا في الريف، ويعيشوا هناك في سعادة، حيث يكتب نصوص النعي ويرسلها إلى الصحيفة في المدينة، ويبقى هو في أرضه الجديدة.

انتبه من أفكاره على رأس "ميشا" التي أسندها على ركبته، فربت على جسد البِطريق في شرود.

- ما رأيك في أن ننتقل إلى الريف؟

سأل "ميشا"، وهو يبتسم ساخرًا من ذلك الحلم غير الواقعي بالمرة.

56

عاد إلى الآلة الكاتبة.
جلس وكأنه يريد أن يؤكد لنفسه أن الأمس كان آخر أيام الإجازة. يشرب القهوة، ويتأمل نص النعي الذي كاد ينتهي منه. نصف ترابيزة المطبخ الآخر تشغله "سونيا" وأقلامها، وكانت "نينا" قد ذهبت إلى شأن ما في الصباح، دون أن تترك له رسالة. ولكنه لم يقلق، فهي لن تتأخر.

كان قد تسلَّم ملفًّا فيه المادة الجديدة لموضوعاته من مراسل حضر مساء الأمس، وكذلك تسلم منه ملفات لعدد من مسؤولي وزارة الصحة، ووجد أيضًا ظَرْف مستحقاته. فيه خمسمائة دولار، وورقة تخبره أن هذا المال هو مستحقات أيام الإجازة. إنه مال كافٍ لرفع روحه المعنوية. وعلى الرغم من ذلك، فقد عانى صعوبةً في الكتابة. الكلمات ترفض أن تنتظم في جمل تعكس أفكاره، وأحسَّ أن العبارات مبعثرة، فعالجها بعلامة × القاتلة، وكتب غيرها.
سألته "سونيا" فجأة، وهي تعرض عليه ما رسمته:

- هل يشبهه؟

أمعن النظر، قبل أن يقول:

- يُشبه مَن؟

- "ميشا"!

هز رأسه في رفض:

- إنه يشبه دجاجة.

غصبت "سونيا"، ونظرت إلى الرسم، قبل أن تلقيه على الأرض. فقال:

- تعلمي أن ترسمي الحياة من حولك.

- كيف؟

- اجلسي أمام "ميشا"، وانظري إليه، وارسمي. هكذا ترسمينه.

أسعدتها الفكرة، فأخذت أقلامها وبعضًا من أوراق "فيكتور"، وراحت تبحث عن "ميشا".

عاد "فيكتور" إلى عمله. وفي النهاية، انتهى من نص النعي، وعندئذ أخذ يُدلِّك أنامله. بدا عليه التعبُ واضحًا.

سمع صوت الباب ينفتح ثم ينغلق.

أدرك أنها "نينا". رمق الساعة، فوجدها تشير إلى قرب الظهر.

بعد دقيقة، أطلت في المطبخ. كانت تبتسم:

- هاي!

كان رده عليها باردًا.

- ألم تلحظ شيئًا؟

نظر إليها. الجينز، والسويتر المألوف نفسه. لا تغيير.

هز كتفيه، ثم نظر إليها في حيرة في البداية، قبل أن يمعن النظر. حثته بابتسامة أخرى:

- حسنًا؟

عندئذ، صاح في اندهاش:

- أسنانكِ!

بالفعل، بيضاء ناصعة وجميلة، ولا أثر لأي لون أصفر. إنها مثل الابتسامة التي يراها في إعلان معجون الأسنان. ابتسم بدوره. طبعت قبلة على خده:

- أخيرًا عرفت! كان عليَّ أن أنتظر وقتًا طويل. كان من الممكن أن أفعل ذلك مقابل 400 دولار دون انتظار. ولكنني دفعت 80 دولارًا فقط..

جاءت "سونيا" تركض، ومعها ورقة:

- "نينا"، انظري! رسمت "ميشا"!

عرضت الرسم على "نينا"، التي مالت بجسدها لتتأمل الرسم، وهي تربت على كتف الصغيرة.

- جميل! سوف نضعها في برواز ونعلقها على الحائط.

- هذا ممكن؟

- طبعًا! حتى يراها الكل.

ألقى "فيكتور" نظرة على الرسم. في رسمها شيء من ملامح البِطريق. قالت "نينا" وهي تعتدل واقفة:

- بالتأكيد! أظنُّ أننا جميعًا نستحق وجبة غداء شهية اليوم، لذا عليكما إخلاء المطبخ!

أخذت "سونيا" رسمتها إلى غرفة المعيشة، وتبعها "فيكتور".

صارت "نينا" تتصرف وكأنها سيدة المنزل، ولكنه لم يغضب من ذلك. بل على العكس.. أسعدته الفكرة.

57

رذاذ الربيع.
كان أول مرة يسقط فيها مطر الربيع. وكان أغلب الثلج في الساحة قد ذاب، ولم يبقَ من آثار الشتاء إلا كتل متجمدة أسفل الشجيرات. ما هي إلا أيام قليلة وتنبت الأعشاب الخضراء الجديدة من التربة الدافئة.

كان "فيكتور" جالسًا إلى ترابيزة المطبخ، وكرسيه في مواجهة النافذة، وكوب الشاي منسي وبارد إلى جواره، بينما استغرق هو في تأمل الساحة. كان يتطلع في شوق إلى دفء الربيع. ومع أن من الصعب أن يتصور أن يسهم الربيع في تغيير حياته، ولكن هناك إحساسًا غامضًا يُبرِّر ذلك الأمل، ويرسم ابتسامة استمتاع على وجهه، بينما هو يشاهد ضوء الشمس يبزغ بين لحظة وأخرى من بين الغمام الداكن.

كانت أحدث مجموعة من نصوص النعي جاهزة في ملفها فوق الترابيزة. بوسعه أن يتصل برئيس التحرير ويخبره أن الشغل جاهز، أو يمكنه أن ينتظر ليوم آخر، ويؤجل بدء العمل في المجموعة الثانية بعض الوقت.

ابتعد بأفكاره عن المطر، وتساءل عن طبيعة الأشخاص الذين سيكتب نصوص نعيهم مستقبلًا.

رواد فضاء؟ ضباط غواصات؟

اعتاد أن تحتوي الملفات التي يتسلمها على مجموعة أشخاص تجمع بينهم اهتمامات أو مهنة واحدة؛ عسكريين، مسؤولي صحة، مسؤولي دولة، حتى أنه لم يعد يجد غرابة في ذلك. كان قد نسي أمر المفكرة التي يدون فيها أسماء الشخصيات، منذ أن توقف رئيس التحرير عن مطالبته البحث عن أسماء جديدة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد "فيكتور" يطالع الجرائد بحثًا عنها. صار يعمل بشكل حصري من واقع المادة شِبْه الكاملة، والتي تأتيه في شكل ملفات مفصلة. وكان هذا سهلًا، ولكنه مثير للشكوك. وكان كلما انهمك في العمل أكثر، وجد أن الشك بداخله يتنامى، إلى أن تحوَّل إلى يقين مطلق. فموضوع نصوص النعي هذه ليست سوى جزء من عملٍ إجرامي كبير. على أن هذا اليقين لم يؤثر في حياته اليومية وعمله بأي شكل من الأشكال. ومع أنه عجز عن منع نفسه من التفكير في هذه الورطة، فقد وجد أن من الأسهل أن يتأقلم على ذلك كل يوم، بعد أن تيقن من الاستحالة التامة لتغيير مجريات حياته الآن. ومع كل الأعباء التي صار يحملها على عاتقيه، واستيعابه إلى ضرورة تحملها، قرر أن يستمر في تحملها إلى أن تقضي عليه.

رن جرس التليفون في غرفة المعيشة، وأطلت "نينا" برأسها على المطبخ.

- مكالمة لك يا "فيك".

رد على التليفون، فأتاه صوت لا يعرفه:

- أهذا أنت يا "فيك"؟

- نعم.

- إنه أنا، "ليوشا"، أتذكرني؟ تعرفت عليك في المدافن، وأوصلتك إلى المنزل بعدها.

- آه.. مرحبًا.

- هناك أمر بالغ الأهمية. سأكون أمام عمارتك خلال ثلث ساعة. انزل إليَّ عندما تراني.

سألته "نينا" عندما وجدته واقفًا في حيرة، والسماعة لا تزال في يده:

- مَنْ هذا؟

- شخص أعرفه.

- "سونيا" تتعلم القراءة معي، أليس كذلك يا "سونيا"؟

- بالفعل.

هكذا أمَّنت الصغيرة على كلامها، وهي تجلس إلى الكنبة ومعها كتاب.

سمع صوت سيارة تقترب بالخارج، فسارع بارتداء الجاكيت، ونزل. وجد "ليوشا" الذي قال له:

- اركب.

ركب السيارة وأغلق الباب. وجد السيارة باردة. سأله "ليوشا" في تودد، وهو يداعب لحيته:

- كيف حال الحيوان؟

- بخير.

تحولت نبرة الرجل إلى الجدية، وهو يردف:

- الأمر على هذا النحو، أود أن أدعوك والحيوان إلى مناسبة.. هي ليست سعيدة على وجه التحديد، ولكن الموضوع فيه مال.

سأله "فيكتور"، وقد أثار الرجل اهتمامه:

- مناسبة من أي نوع؟

- رئيس بعض أصدقائي تُوفي. وجنازته في الغد. يوم مهم، كما قد تتخيل. سيدفن في تابوت له مقابض من البرونز. أخبرتهم عن بِطريقك، فقرروا دعوتكما.

- من أجل ماذا؟

أجابه الرجل بصوت خافت متردد:

- كيف يمكنني أن أقول ذلك.. يبدو أنهم يريدون أن يضفوا "تقليعة" على الحدث، وأظنُّ أنهم يرون البِطريق "تقليعة" كافية لذلك. خاصة أنه بطبيعته مناسب جدًّا لحدث مثل ذلك، كونه أبيض وأسود اللون؟ فهمت قصدي؟

فهم مقصده، على الرغم من أنه وجده أقرب لمزحة حمقاء. وسأل "ليوشا"، وهو يحدجه بنظرة حادة:

- هل أنت جاد؟

أجابه الرجل، بشبح ابتسامة:

- أظنُّ أن ألف دولار مقابل استئجار البِطريق أمر جاد جدًّا .

قال "فيكتور"، في استسلام بعد أن اقتنع بجدية "ليوشا":

- لستُ سعيدًا بذلك.

عندئذ، قال له "ليوشا" في حسم:

- الصراحة، ليس لديك خيار. إنه عرض لا يمكنك رفضه. فقد يغضب رفاق الفقيد.. ولا داعي لأن تورط نفسك في مشكلات. سوف أعود إليك في الغد.. حوالي الساعة العاشرة.

ترجل "فيكتور" من السيارة، ووقف يراقبها وهي تبتعد.

عاد إلى الشقة، وأغلق على نفسه باب الحمام. وبينما ترك الماء يتدفق، وقف أمام المرآة، يحدق في وجهه، وكأنه يمعن النظر في وجه يرغب أشد الرغبة في أن يتذكره.

58

مدافن "بايكوف".
اتجها إليها في اليوم التالي، داخل سيارة "ليوشا" المستوردة القديمة، حيث جلس "فيكتور" مع "ميشا" في الخلف. كانت الرحلة صامتة.

أوقفهما عند مدخل المدافن شاب يرتدي زيًّا عسكريًّا مموَّهًا، مال على شباك "ليوشا"، وألقى نظرة، قبل أن يومئ برأسه، ويُلوِّح له بما يعني أن يدخل.

شعر "فيكتور" بأنه بلا قيمة وسط شواهد القبور التي مرت عليها السيارة.

كانت الساحة أمامهم مزدحمة بعدد كبير من السيارات أجنبية الصنع. فقال "ليوشا" وهو يلتفت إلى "فيكتور":

- ينبغي لنا أن نتمشى من هنا.

أخرج المنظار من تابلوه السيارة، وعلقه في رقبته، قبل أن يخرج من السيارة.

كانت السماء صحوة، والشمس مشرقة، وامتلأت الأجواء بتغريد الطيور السعيدة وسط تلك المراسم الواجمة.

اتخذوا طريقهم وسط السيارات الأجنبية الفخمة، إلى حيث وقفت مجموعة من الناس تنتظر. تساءل "فيكتور":

- لماذا المنظار؟

التفت إليه "ليوشا"، قائلًا:

- لكلٍّ منا عمل عليه القيام به. وعملي هو توفير الحماية وضمان النظام، حتى لا يفسد أحد الـ... حتى يكون كل شيء تحت السيطرة.

أومأ "فيكتور" برأسه صامتًا.

أفسح لهم الحضور الطريق.

توقفوا عند المقبرة إلى جوار تابوت مفتوح، حيث يرقد فيه رجل في الأربعينيات من عمره، أشيب الشعر، ويرتدي نظارة مُذهَّبة الإطار. تغطي أزهار متنوعة بدلته الأنيقة. نظر فلم يجد "ليوشا"، ووجد أنه و"ميشا" محاطان بغرباء متجهمي الوجوه، ولا أحد منهم مهتم أو منتبه لوجوده هو والبِطريق.

عند التابوت، وقف قسٌّ، وفي يده الكتاب المقدس، وهو يتمتم بكلمات بصوت خافت. من ورائه وقف شاب في ثياب مساعدي القس.

ودَّ "فيكتور" لو أغلق عينيه إلى أن ينتهي كل هذا. ولكنه شعر بما يشبه التوتر الشديد في الأجواء، إلى الحد الذي بعث في نفسه ضيقًا شديدًا. وقف، مثل البِطريق، بلا حراك. واستمرت مراسم الدفن. فوق حاجب المتوفي شريط ورقي عليه صليب ونقش بالسلافونية الكنسية القديمة. فتح القس كتابه على الجزء التالي، ومضى في قراءته الخافتة. أحنى الجميع رؤوسهم، عدا "ميشا"، الذي استمر بدوره في التحديق في القبر.

رمقه "فيكتور".

وكأنه و"ميشا" جزء من هذه الطقوس.

عمد اثنان من القائمين على الدفن، وهما يرتديان ملابس أنيقة للغاية، إلى إنزال التابوت داخل القبر بالحبال، ودبت الحياة في أجساد المعزين. أهالوا التراب فوق غطاء التابوت.

ولأول مرة، شعر "فيكتور" أنه و"ميشا" محل انتباه من حولهما، فقد بدؤوا ينظرون إليهما في فضول غريب، ربما فيه مسحة من أسى. اقترب "ليوشا" منهما، وقال له:

- أنت مدعو من الأقارب لحضور العزاء. أنت وحدك، من دون الحيوان. الساعة السادسة مساءً. مطعم فندق "موسكو". وقد أحضرت هذا لك.

ناوله ظرفًا، وضعه "فيكتور" بتلقائية في جيبه من دون كلام. أردف "ليوشا"، وهو يبتعد:

- اذهب إلى السيارة. وسوف أعود إليك.

نظر حوله، فرأى عجوزًا ضئيل الجسد يقوم بتصوير المراسم بالفيديو. جثا "فكتور" أمام "ميشا"، وهو حزين لنظرة اللا مبالاة التي في عيني البِطريق:

- هل نعود إلى المنزل؟

عادت بهما السيارة. وخيَّم الصمت من جديد. وقال له "ليوشا"، وهو يودعه:

- لا تنسَ حفل العشاء!

أومأ "فيكتور" برأسه، بينما ابتعدت السيارة. "تبًّا لك وللحفل!".. هكذا فكَّر، وهو يصعد إلى الشقة حاملًا "ميشا".

59

في المطبخ.
جلس "فيكتور" مع "نينا" في ذلك المساء، بعد أن نامت "سونيا"، يشربان ويتحدثان. حكى لها عن الجنازة التي حضرها مع البِطريق. سألته بابتهاج:

- وما المشكلة، طالما في الأمر ألف دولار؟

سكت لحظات، ثم قال:

- أنا لست منزعجًا.. ولكن هذا مبلغ كبير.. وهذا ما أستغربه.

قالت له، في ابتسامة جادة:

- ربما حان وقت أن ترفع مرتبي، ما دام "ميشا" قد صار يكسب المال.

ثم أردفت بنبرة ألطف:

- أنا أنفق بالنيابة عن الجميع على كل حال. لقد اشتريت حذاءً لأجل "سونيا" و...

- أرجوكِ لا تسميه مرتبًا. سوف أعطيكِ بعض المال في الصباح. وأخبريني عندما تنفقينه بالكامل.

نظر إليها وهو يهز رأسه في دهشة. فقالت له:

- ما الأمر؟

- أحيانًا أشعر بأنكِ بنت ريف بحق.

فقالت له في تأكيد، وهي تبتسم مجددًا:

- طبعًا.. أنا بنت الريف.

فقال، وهو ينهض:

- معكِ حق. هيا لننام.

في الصباح التالي، استيقظ على يد "نينا" التي هزت جسده لتوقظه. سألها بصوت نعسان، ودون رغبة في النهوض من السرير:

- ماذا؟

قالت له في قلق واضح:

- وجدتُ حقيبة في المطبخ. تعالَ وانظر.

نهض، وارتدى الروب، واتجه متوترًا إلى المطبخ.

بالفعل، كانت هناك حقيبة فوق الترابيزة. ها هم يعودون إلى لعبتهم المعتادة، هكذا فكَّر في ضيق.

ذهب ليتفقد الأقفال. وجد الباب مغلقًا بإحكام.

عاد إلى المطبخ، وتحسس الحقيبة، فتبين له أنها تحتوي على زجاجة، ففتح الحقيبة ليخرجها.

بعد خمس دقائق، وبعد أن تحقق من محتويات الحقيبة الأخرى، نادى "نينا".

أتته "نينا"، وسرعان ما وقفت تحدق في دهشة إلى ما هو فوق الترابيزة. إنه "تيك أواي" من مطعم.. طبق سمك، وآخر فيه لحوم متنوعة، وطماطم طازجة، ولحم ريش، وزجاجة فودكا "سميرنوف".

- من أين أتى هذا؟

أشار لها "فيكتور" في حيرة إلى الأحرف الزرقاء التي تميز اختصار اسم المطعم الأوكراني على حافة أحد الأطباق. فقالت "نينا"، وهي تشير إلى الزجاجة:

- هناك رسالة.

وجد ورقة مطوية ملتصقة برقبة الزجاجة. تناولها، وفضها، وقرأ:

"لا تفعل هذا مرة أخرى، يا صديقي. احترم المتوفَّى! هذه من طرف الأقارب. اشرب في ذكرى "ألكسندر سافرونوف".. حتى نلتقي.. ليوشا".

- ممن الرسالة؟

ناولها الورقة. قرأتها، ثم نظرت إليه في حيرة.

- ما الذي فعلته؟

- لم أذهب إلى العزاء.

- كان عليك أن تذهب.

نظر إليها في ضيق، ثم أحضر الجاكيت وتحسس جيوبه بحثًا عن بطاقة "ليوشا"، ثم رفع سماعة التليفون، واتصل بالرقم. لم يأته الرد سريعًا، ثم رد عليه صوت غليظ نعسان:

- آلو؟

- "ليوشا"؟

تمتم "ليوشا" بصوت متحشرج، بعد ليلة شراب طويلة فيما يبدو. فأردف "فيكتور":

- إنه أنا، "فيك". اسمع، بخصوص الحقيبة..

- أي حقيبة؟ أهذا أنت يا "فيك"؟ كيف حال الحيوان؟

- اسمع، كيف أدخلت الحقيبة إلى مطبخي؟

- كيف؟ بطلب من قريب.. ما الذي يضايقك؟

- ما يضايقني هو الكيفية التي دخلت بها عبر باب مغلق بأقفال!

كان يصيح بأعلى صوته الآن.

- مهلًا. أنا أسمعك. لكنني أعاني صداعًا.. قلت عبر باب مغلق؟ ولكن ما من باب في الدنيا لا يمكن فتحه! لا تُشغِل بالك! واشرب في ذكرى "سافرونوف". أما أنا فلا بد أن أفيق أولًا، ولذلك أحتاج إلى مزيد من النوم. ما الداعي إلى أن توقظني على هذا النحو؟

أنهى المكالمة.

هز "فيكتور" رأسه، وهو يشعر بغثيان بسبب إحساسه الشديد بانعدام الحيلة. نادته "نينا" من المطبخ:

- "فيك"!

- نعم.

كانت الترابيزة جاهزة. طبقان وكأسا فودكا.

- لماذا نهدر طعامًا شهيًّا كهذا؟ ما دام جاهزًا.. اجلس. "سونيا"! تعالي لتأكلي. علينا أن نشرب نخب ذكرى الرجل.. الأمر يستحق.

التفتت إلى "فيكتور"، الذي كان لا يزال واقفًا عند الترابيزة، فتح الزجاجة.

قالت لهما "سونيا"، وهي تحمل ورقة، قدمتها إلى "نينا":

- انظري ما رسمته!

تناولت "نينا" الرسمة ووضعتها فوق الثلاجة، وهي تقول بنبرة معلمة خبيرة:

- سنأكل أولًا، وبعدها ننظر إلى الرسمة.

60

ملفات جديدة.
تسلمها "فيكتور" من المراسل في اليوم التالي، وجلس إلى الآلة الكاتبة. كانت شمس الربيع مشرقة، وعلى الرغم من البرد في الخارج، فإن أشعتها الصفراء سقطت بالنور على الترابيزة، وأدفأت المكان. خفف عنه العمل، وذلك الدفء الذي طالما كان يتوق إليه، أعباء الماضي القريب. ومع أن كل ذلك قد انتهى، فإنه لا يزال يمثل الحاضر، ولا يزال يزوده بالعمل الذي يعكف خلاله على تحويل المعلومات والبيانات إلى قطعة أدبية فلسفية، يجد فيها المهرب من مصيبته، وكل ما يذكره بانعدام حيلته.

شعر بانتعاش عقله أثناء إحدى استراحات القهوة، حينما تذكر فجأة أنه سبق أن كتب نعيًا لـ"سافرونوف". كان قد نسي ذلك، ونسي كل ما قرأه عنه. لكنه متيقنٌ من أنه هو نفسه "سافرونوف" الذي حضر هو و"ميشا" دفنه منذ بضعة أيام. بالطبع لا يمكن أن يكون متأكدًا مئة في المئة، لكن فخامة الجنازة هي التي أكدت له صحة تخمينه.

ابتسم وهو يفكر في كونه من كتب نص النعي، ثم من حضر الجنازة، وكأنه يقوم بدور المفتش الذي يتيقن بنفسه من مجريات عملية دفن الفقيد.

كانت "نينا" قد اصطحبت "سونيا" إلى نهر "الدنيبر" للتمشية على ضفافه، حتى يتفرغ هو لعمله. وفي ذلك اليوم، جرى العمل في سلاسة. قرأ ما كتبه، وشعر

بالرضا عنه، قبل أن ينتقل إلى أوراق أشخاص آخرين.

انتهى من كتابة أربعة نصوص نعي، نظر إلى الشمس خارج الشباك، قبل أن ينهض إلى البوتاجاز. وضع البراد، ثم تمشى في الشقة. كان "ميشا" واقفًا عند باب البلكونة، وكأنه يتوقع موجة جليدية جديدة، فجلس "فيكتور" إلى جواره. سأله، وهو يتأمله:

- كيف حالنا؟ جميل.. جميل.

وكأنه كان يجيب بالنيابة عن البِطريق، قبل أن ينهض مجددًا.

لاحظ وجود رسمتين معلقتين على الحائط، فاقترب منهما. واحدة كانت رسمة "ميشا" التي رآها من قبل، والأخرى رسمة لثلاثتهم مع البِطريق. كتبت الصغيرة عليها: أنكل "فيك".. "نينا".. "ميشا"، ولكنه وجد كتابة أخرى بخط "نينا"، وقد صححت كلمة أنكل إلى "بابا".. و"نينا" إلى "ماما".

خط "نينا" أنيق، وكأنها معلمة. وتوقيعها في النهاية كأنه توقيع معلمة على نشاط تلميذة. لم يكن ينقص الورقة سوى الدرجة. ربما تأخذ ثمانية من عشرة.. بعد الغلطتين اللتين صححتهما "نينا".

راوده شعور غريب وهو واقف أمام هذه الرسمة. لم يهتم لتصحيحات "نينا". رغم أن بها نوعًا من التعدي، وهو تعدٍّ على كلمات الصغيرة، وعلى الوضع الحقيقي لحياتهم. وحقيقة أن تكون الرسمة معلقة على هذا الارتفاع الذي لا يسمح لـ"سونيا" بأن تراها إلا إذا وقفت على كرسي، تعني أن "نينا" قد صححت الكلمتين لأجلها هي، وحتى يراها هو.

ها هي "نينا" بدورها تتظاهر أنهم عائلة، وترتاح، مثله، إلى وهم الكيان الواحد. إنه وهم يتحطم كل يوم، في خفة ودون قصد، على يد "سونيا"، التي لا تعرف معنى كلمتي "بابا" و"ماما" في حياتها، ولا تجد فائدة من استخدامهما.

إنها أقرب إلى الواقع، وأصغر من أن تختلق عالمًا معقدًا لنفسها، وأشد صراحة من أن تراودها أفكار ومشاعر الكبيرين اللذين تعيش معهما.

ألا تتمنى أن تنجب طفلًا؟ راوده السؤال الذي ضايقه، وهو يعود بأفكاره إلى "نينا". طفل يناديها ماما؟ لن تجد صعوبة في تحقيق ذلك..

ألا يتمنى هو أن ينجب طفلًا يناديه بابا؟ ليس لديه اعتراض من حيث المبدأ. يمتلك المال، ولديه عمل، وكل شيء. بل لديه فتاة شابة وجذابة، ويمكنها الإنجاب. لا حب في العلاقة بينهما. ولكن الحب ليس الأساس، ولكن ما يصاحب ذلك الحب. ربما أمكنه في يوم ما أن ينتقل إلى الريف، وإلى منزل واسع من طابقين. ربما يطمح إلى ذلك.

ولكنه هز رأسه بقوة، وكأنه يُخلِّص عقله من فكرة حمقاء.

61

دفء مارس.
يشعر به كل صباح، وتلك الشمس التي تُشرق مثل راعٍ حنون في قلب السماء، ليفيض إشراقها على الدنيا.

كان "فيكتور" مشغولًا بالرزمة الجديدة من الملفات، ولا يقوم عنها إلا لإعداد القهوة، وتناولها في البلكون. يلتحق به "ميشا" بين حين وآخر، ويبدو أنه بدوره مستمتع بالشمس.

ما هي إلا خمس دقائق، قبل أن يعود إلى المطبخ من جديد، حيث الآلة الكاتبة.

تماشى مزاجه المشرق مع الأسلوب الشاعري الواجم الذي يكتب به النصوص. لم يتخلص من ذلك الشعور بعد، على الرغم من حضوره مؤخرًا لجنازة ثانية، بصحبة البِطريق، وعلى الرغم من أنه هذه المرة حرص على حضور تلك الجنازة. كانت لفقيدٍ لا يعرفه. كان يشعر خلال الحفل بالاستغراب، ولكن تبيَّن له أن المهمة لم تكن على النحو العسير الذي تصوره. لم ينتبه إليه أي أحد من المعزين، وكان عددهم يتجاوز المئتين. فيما عدا "ليوشا"، الذي جلس إلى جواره. ولكن الرجل سرعان ما أفرط في الشراب حتى سكر، ونحى طبقه بعيدًا ثم وضع رأسه فوق المائدة ونام.

لم تكن هناك كلمات أو خطب. بل جلس الرجال المتأنقين إلى مائدتين طويلتين، وتبادلوا نظرات أسى اعتيادية، وهم يرفعون كؤوس الفودكا تجاه بعضهم البعض، وكأنه طقس جماعي رسمي يجري في صمت، ولم يجد "فيكتور" صعوبة في تقليده، فكان يرفع كأسه هو الآخر، وهو يميل برأسه مثلهم، ناظرًا في حزن حقيقي إلى من يجلسون قبالته. لم يتظاهر بالحزن، ولكنه حزنه الخاص الذي لا علاقة له بالفقيد. تلك أجواء تصيبه دومًا بالاكتئاب، خاصة أن لا أحد حوله سوى رجال – رغم أن "فيكتور" لمح بعض السيدات هنا وهناك، ولكنهن ثلاث أو أربع ليس أكثر، في سن ناضجة رزينة، وكأنهن المصدر الأصيل للحزن والأسى في المكان.

في النهاية، ركب واحدة من السيارات التي كانت تنتظر خارج المطعم، بصحبة ثلاثة رجال آخرين لم يُعرِّفوه بأنفسهم، ولكنهم سألوه وحسب عن محل سكنه، فوصف الطريق للسائق. خدمة توصيل ليلية يقومون بها بكل حماسة. وصل إلى الشقة عند الواحدة، فوجد "ميشا" واقفًا في الردهة. سأله بنبرة شخص سكران:

- لماذا لم تنم؟ عليك أن تنام. ماذا لو كان علينا أن ننطلق إلى قبر آخر في الغد؟

مَرَّ أسبوع الآن على "فيكتور"، المستغرق في عمله، والمستمتع بالربيع والشمس. بدت الحياة سهلة دون هموم، بغض النظر عن اللحظات المؤلمة والوساوس التي تراوده بشأن دوره في هذه الأعمال القذرة. ولكن، هل لكلمة "قذرة" معنى من الأصل في عالم قذر كهذا؟ إنها ليست سوى ذرة من الشرور الطاغية حوله والتي لا يعلم عنها شيئًا، ولكنها لا تمسه شخصيًّا أو تمس عالمه الصغير. كما أن عدم درايته الكاملة بدوره في هذه القذارة ضمانة في حَدِّ ذاتها، حتى لا ينهار عالمه، ويختل اتزانه.

عاد ينظر عبر الشباك، حتى سقطت أشعة الشمس على وجهه.

ربما كان عليه بالفعل أن يشتري منزلًا صغيرًا في الريف، وأن يجلس في الصيف إلى ترابيزة في حديقته؛ ليكتب في الهواء الطلق. بصحبة "سونيا"، التي ستهوى زراعة النباتات والأزهار والخضراوات، ومع "نينا" التي ستسعد بـ...

تذكَّر تلك الإجازة التي أمضياها في منزل "سيرجي" نهاية العام، وتذكر "سيرجي"، والساعات التي جلسا خلالها معًا أمام المدفأة. شعر وكأن أعوامًا

طويلة مرت على تلك الأيام! برغم أنها ليست سوى ثلاثة أشهر!

62

سحابة خفيفة في سماء صباح الأحد.
على أن الشمس مشرقة، وزادت إشراقًا بعد أن تبدَّدت تلك السحابة قرب الظهر، لتكشف عن سماء ربيعية زرقاء.

عقب الإفطار، خرج "فيكتور" بصحبة "نينا" و"سونيا" إلى شارع "كريشاتيك"، وتركوا "ميشا" في البلكون بصحبة وعاء ممتلئ بوجبة الغداء. تركوا الباب مواربًا له إن أراد الدخول.

في البداية، أخذهما إلى كافيه "باساتس"، حيث جلسوا في البلكون. وطلب آيس كريم لأجل "سونيا" و"نينا"، وطلب لنفسه قهوةً.

اختارت "سونيا" أن تجلس قبالة الشمس، ولكن سرعان ما لجأت إلى حماية عينيها من قوة أشعتها براحة يدها، وتسلت بلعب "البيكابو"، بينما تراقبها "نينا" وعلى وجهها ابتسامة.

لمح "فيكتور" بينما يشرب القهوة كشك جرائد، فأخبرهما وهو ينهض عن الترابيزة أنه لن يتأخر.

عاد إليهما وبصحبته نسخة من "كابيتال نيوز"، جلس ومر بعينيه سريعًا على العناوين الرئيسية، وسَعِدَ عندما وجد أنهم لم ينشروا أي نعي، وعندئذ عاد في

هدوء إلى الصفحة الأولى، وأخذ رشفة أخرى من القهوة.

ربط في عقله بين النهار الربيعي الصافي واختفاء الأخبار المزعجة من الصحف. لا تبادل لإطلاق النار، ولا فضائح. بل على العكس، وكأن الصحيفة تُشجِّع القراء على أن يسعدوا بحياتهم، بهذه العناوين التي تفيض ابتهاجًا وأملًا.

"افتتاح سوبرماركت جديد".

"تقدُّم في المحادثات مع روسيا".

"السفر إلى إيطاليا دون تأشيرة".

سأل بنبرة ممازحة:

- أتودين السفر إلى إيطاليا يا "سونيا"؟

هزت رأسها رافضة، وهي تلعق الملعقة البلاستيكية الصغيرة. وقالت:

- لا.. أريد أن أركب الأرجوحة.

مسحت "نينا" الآيس كريم عن فم "سونيا" بمنديل.

وبينما كانوا يتمشون عبر المنتزه فوق نهر "الدنيبر"، وصلوا إلى منطقة الألعاب، فجلست "سونيا" على الأرجوحة، وقاما بأرجحتها إلى ارتفاعات عالية، وسط ضحكات مبهجة. إلى أن صاحت "سونيا" بعد دقائق:

- كفى! كفى!

عادوا للتمشية عبر المنتزه، وأمسكت "سونيا" بيد كلٍّ منهما. قال:

- كنت أفكر يا "نينا" في إمكانية أن نشتري منزلًا في الريف.

ابتسمت في شُكرٍ، وبعد لحظات قالت بعد أن تخيلت شكل المنزل الذي تحلم به:

- سيكون هذا لطيفًا.

عندما حل وقت الغداء، عادوا إلى الشقة لتناول الطعام.

ذهبت "سونيا" إلى "ميشا" في البلكون. بينما جلس "فيكتور" مع "نينا" أمام التليفزيون.

كانا يشاهدان النسخة الأوكرانية من برنامج سياحي شهير. شقراء جميلة ترتدي ملابس سياحة صفراء فسفورية وتقف على متن يخت، وهي تتحدث عن الجزر الخلابة، ثم تظهر في مشهد آخر عند شاطئ جزيرة، وهي تتبادل الابتسامات مع أهل الجزيرة الذين سمَّرت الشمس بشرتهم. وبين دقيقة وأخرى، تظهر بيانات وأرقام تليفونات الشركات السياحية المعنية. سألته في اهتمام مفاجئ:

- لماذا سألت "سونيا" عن إيطاليا؟

- لأنهم ألغوا تأشيرة الدخول إلى هناك.

- أيمكن أن نسافر إليها ذات يوم؟

سألته حالمة، بينما الشقراء الجميلة تظهر من جديد، بعد أن استبدلت سترة زرقاء دكناء فوق جيبة ضيقة بملابسها. كانت تقول للمشاهدين:

"على مدار الأعوام الأخيرة، كان هناك مركز علمي بحثي أوكراني يعمل في القطب الجنوبي. وكنا في حلقة سابقة قد طلبنا المبادرة والإسهام لأجل إرسال طائرة مُحمَّلة بالمُؤَن إلى علمائنا. وقد تجاوب معنا العديد منكم، ولكن لا يزال هناك احتياج إلى المزيد من المساهمات. لذلك أطلب منكم هذا، فبيدكم مساعدة هؤلاء العلماء في استئناف عملهم في القطب. جهزوا ورقة وقلمًا لكتابة بيانات الحساب البنكي الذي نتلقى عليه التبرعات، وهناك رقم تليفون يمكنكم الاتصال به لتعرفوا كيف سيتم إنفاق تبرعاتكم".

أسرع "فيكتور" إلى المطبخ، حيث أحضر قلمًا وورقة، وعاد في الوقت المناسب لكتابة الأرقام التي ظهرت على الشاشة. سألته "نينا" في دهشة:

- لماذا تفعل هذا؟

- فكرت أن بوسعي أن أرسل لهم 20 دولارًا. تحية لروح "بيدبلاي". سبق وأن حدثتكِ عنه، أتذكرين؟ لدي معلومات عن ذلك المركز وأحتفظ بها في مكان ما هنا.

نظرت "نينا" إليه في تعجب، وقالت:

- هذا مَضيعةٌ للمال. سوف يختلسونه. أتذكر وقت أن كانوا يجمعون تبرعات لأجل مستشفى يعالج الأطفال ضحايا تشيرنوبل؟

لم يرد عليها "فيكتور"، وهو يطوي الورقة ويضعها في جيبه.

ما شأنها هي؟! ماله وهو حُرٌّ فيه!

63

أمطار مارس.
وبغياب الشمس، انخفضت روح "فيكتور" المعنوية. جلس إلى الآلة الكاتبة كالمعتاد، لكنه وجد صعوبة في تحقيق أي تقدُّم في عمله، كما أنه يفتقر إلى الإلهام. وعلى الرغم من هذا، لم تتأثر جودة كتابته أو أسلوبه، وكان يشعر بالرضا كلما قرأ ما كتبه. لم تعد احترافيته تتأثر بمزاجه العام.

بقيت "نينا" مع "سونيا" في الشقة أيامًا دون خروج.

أحيانًا، عندما كانت "نينا" تخرج لشراء احتياجات المنزل، تملُّ "سونيا" مجالسة "ميشا"، فتنضم إلى "فيكتور" في المطبخ. يجيب عن أسئلتها بطول بال عجيب، ولكنه يتنفس الصعداء حينما تعود "نينا". عندئذ، تركض "سونيا" نحوها، ويعود هو إلى عمله.

إلا أن روحه المعنوية تدنَّت أكثر حتى وصلت إلى الحضيض، عندما اتصل "ليوشا" ليخبره أن هناك جنازة في الغد. أمضى عشر دقائق وهو يحاول أن يخبره أن الأجواء غير ملائمة، وأنه لا يشعر أنه بأحسن حال، كما أنه قلق على "ميشا" ويخشى أن يمرض. انتظر "ليوشا" حتى أنهى كلامه، قبل أن يخبره بأن حضوره هو ليس بالمهم. الأهم منه هو الحيوان:

- ابقَ أنت في الشقة. سوف آخذ "ميشا" وأعيده لك بعد ذلك. وسوف أحميه بمظلة في المدافن، حتى لا يصاب بالبرد.

رأى "فيكتور"، أنه حل، وأنه انتصار جزئي، وشعر بارتياح لعدم اضطراره لحضور الجنازة.

ومع شعوره بالأسف لأجل "ميشا"، إلا إنه يعلم أنه ليس باليد حيلة. خاصة أن التبعات المحتملة لرفضه السماح له بحضور الجنازة واضحة للغاية.

أثمر عزم "فيكتور". ففي المرة التالية، لم ينتظر "ليوشا" منه أن يحضر.

اتفقا على أن يحضر "ليوشا" ليأخذ "ميشا"، ومن ثم يعيده، ولكن المدهش هو أن تغيير الاتفاق لم يتبعه تغيير في الأتعاب. ففي كل مرة كان يحصل على الألف دولار كما هي، ولكنه صار مكسبًا سهلًا الآن، دون أن يُجبَر على الوقوف في المدافن أو أن يحضر حفل الجنازة. ها هو "ميشا" يكسب المال بالنيابة عنه، وانحصر الموضوع كله في كونه استئجارًا للبطريق.

وبطبيعة الحال، فقد تضايق "فيكتور" من فكرة أن "ميشا" يحصل على كل هذا المبلغ مقابل الظهور الواحد، بينما لا يتجاوز أجره هو عن عمله 300 دولار. وعلى الرغم من أنه يحصل على المبلغين، فإن شعوره بعدم المساواة بقي في نفسه. ليس أمامه سوى أن ينحني للريح القوية. كما أن كل تلك المشاعر المتضاربة لم تؤثر في ارتباطه بـ"ميشا".

تساءل عما إذا كان من المنطقي أن يطلب من رئيس التحرير زيادة مرتبه، ولكنه طرد الفكرة على الفور، وهو يعرف أنها غير مجدية. إنه في النهاية يعمل بارتياح. فلا أحد يترأسه أو يلح عليه حتى ينتهي من عمله. إنه رئيس نفسه. ينتهي من الملف، فيتصل بالمراسل، الذي يأتي ليسلم ويستلم. لديه ما يكفيه من المال، ولا داعي للشكوى.

أموره على ما يرام، ويسأل الرب أن تبقى على هذا النحو. وعندما تنتهي الأمطار، سيكون بمقدوره البدء في البحث عن منزل ريفي مناسب!

اعتدل مزاجه، بينما راح عقله يتخيل منزلًا صغيرًا في حضن حديقة، وشبكة نوم ممتدة بين شجرتين متينتين، بينما يشعل النار حتى يشوي اللحم.

أكد له صوت الخيال أن كل شيء سيكون على ما يرام، وسوف تشرق الشمس، ويعمُّ الجمال. آمن "فيكتور" بذلك.

استمر المطر، واستمرت الكتابة. صارت الجنازات التي يحضرها "ميشا" روتينًا، بغض النظر عن المطر، كما لو أن معدل الوفيات قد ارتفع فجأة بين كل الأصدقاء والأقرباء الذين لا يتخيلون إقامة مراسم جنازة دون وجود البِطريق.

وذات يوم، عقب واحدة من تلك الجنائز، كان "فيكتور" يتصفح رزمة ملفات جديدة، أتته "سونيا" وهي مفزوعة:

- أنكل "فيك".. "ميشا" يعطس!

هرع "فيكتور" إلى غرفة النوم، ولأول مرة على الإطلاق وجد "ميشا" راقدًا على جانبه، فوق البطانية ذات وبر الجمل، وهو يرتجف ويئن.

وقف "فيكتور" وقد شل الخوف حركته، ولا يدري ما عليه أن يفعله. صاح:

- "نينا"!

- إنها عند والدة "سيرجي".

خاطب البِطريق بنبرة كلها رقة، وهو يربت على جسده في حنان:

- تماسك يا "ميشا"، تماسك. سوف نجد لك العلاج.

ذهب إلى غرفة المعيشة، وأخذ يبحث في دليل التليفون عن أرقام الأطباء البيطريين. اندهش عندما وجد أكثر من عشرة أسماء. ولكن، هل لديهم خبرة في التعامل مع البطاريق؟ فهم لا يتعاملون إلا مع الكلاب والقطط.

وعلى الرغم من تلك الشكوك، بادر بالاتصال بأول رقم. سأل السيدة التي ردت على المكالمة:

- "نيكولاي إيفانوفيتش" موجود؟

- لحظة.

سمع صوت الرجل بعد لحظة:

- آلو؟

- معذرة، ولكن لديَّ مشكلة.. البِطريق مريض.

- بِطريق؟! ليس تخصصي، ولكن بوسعي أن أرشدك إلى من تتصل به.

- حقًّا؟ لحظة.. سأحضر قلمًا.

دوَّن "فيكتور" الرقم – رقم "ديفيد يانوفيتش". وبادر بالاتصال به على الفور. أجابه "ديفيد يانوفيتش" بعد أن سمعه:

- حسنًا.. ما دام لديك حيوان من هذا النوع، فلا بد أن معك المال اللازم لعلاجه. عنوانك؟

سألته "سونيا"، بينما كان يعود للجلوس إلى جوار "ميشا" على الأرض:

- هل سيحضر؟

- نعم.

فسألته مجددًا، بنبرة حزينة:

- مثل الدكتور "دوليتل"؟

أومأ برأسه.

حضر "ديفيد يانوفيتش" بعد نصف ساعة، قصير أصلع، ذو ابتسامة باردة، وعينين لطيفتين. سأل، وهو يدخل ويخلع حذاءه:

- أين المريض؟

- هناك. هل تريد شبشبًا لقدميك؟

- كلا، أشكرك.

علَّق معطفه، ودخل وفي يده الحقيبة. خلَّف جوربه آثار رطبة على الأرضية. وقال، وهو يجثو إلى جوار "ميشا":

- لنرَ.

تفحَّص جسد "ميشا"، وألقى نظرة على عينيه، ثم أخرج السماعة، ووضعها على أنحاء من جسده، مثل طبيب بشري يكشف على مريضه. أعاد السماعة إلى الحقيبة، وتأمله لبرهة.

- ما الأخبار؟

حكّ "ديفيد يانوفيتش" مؤخرة عنقه، وقال وهو يتنهد:

- من الصعب تحديد حالته بدقة، ولكنه ليس بخير. أخشى أن الأمر يعتمد على مدى قدرتك المالية. أنا لا أتحدث عن أجري هنا. فليس بيدي الكثير لأفعله. لا بد من نقله إلى عيادة.

- وما تكلفة ذلك؟

أشاح "ديفيد يانوفيتش" بيده في قلة حيلة:

- المؤكد أنها لن تكون رخيصة. ولو كان لي أن أنصحك، فعليك نقله إلى عيادة "ثيوفانيا".. خمسون دولارًا في اليوم، ولكن أضمن لك أنهم سيبذلون قصارى جهودهم. كما أن هناك مستشفى قريبًا من هنا تقوم بتأجير جهاز الأشعة المقطعية، وهم أكثر دقة في التشخيص السليم. كما أن عددًا من أطباء المستشفى يتكسب من العمل الجانبي في العيادة.

- تقصد أطباء بشريين؟

- ولِمَ لا؟ لا أعتقد أنك تتخيل أن الحيوانات تختلف باطنيًّا عن البشر، أليس كذلك؟ ونوعية أمراضهم كذلك. يمكنني أن أتصل بعيادة "ثيوفانيا" من هنا لو أحببت، وأطلب منهم إرسال سيارة.

- تفضل، أرجوك.

هكذا قام "يانوفيتش" بالاتصال، ثم تقاضى عشرين دولارًا عن حضوره، وغادر الشقة. وبعد ساعة، حضر بيطري آخر وتفحص "ميشا" بشكل شامل. وقال:

- حسنًا. سوف ننقله. ولا تقلق، فلن ينصب أحد عليك. التشخيص يتم على ثلاثة أيام، وبعدها نعرف. إذا أمكننا أن نعالجه فسوف نفعل، أما إذا.. فسوف نعيده، حتى لا تخسر مالك. تفضل.. هذه ليست بطاقتي، بل بطاقة "إيليا سيميونوفيتش".. هو مَنْ سيتولى العلاج.

غادر البيطري، بعد أن ترك البطاقة وأخذ "ميشا".

بكت "سونيا". وتزايد هطول المطر. وبرزت ورقة النص الذي لم يكتمل من فوهة الآلة الكاتبة، ولكن "فيكتور" لم يجد في نفسه رغبة في العمل. وقف عند شباك غرفة النوم، وساقاه أمام أنابيب المدفأة الساخنة، بينما يحبس دموعه التي سالت، وكأنها بتأثير من دموع "سونيا"، وشاهد عبر الدموع قطرات

المطر التي تحاول التشبث بالسطح الزجاجي. ولكن الرياح سرعان ما عصفت بها، حتى خارت مقاومتها، واختفت، لتحل محلها قطرات جديدة، دخلت بدورها في صراع عبثي مع الرياح.

64

ليلة بلا نوم.
كان "فيكتور" يسمع بكاء "سونيا" في الصالة. رمق عقربي المنبه الفسفوريين، فوجدهما قريبين من الثانية بعد منتصف الليل. وحدها "نينا" من راحت في نوم عميق ثقيل.

كان من الطبيعي أن تحزن لحال البِطريق عندما عادت من زيارتها لأم "سيرجي". وبذلت جهدًا بلا طائل وهي تحاول أن تطمئن "سونيا"، ولذلك غابت في النوم ما إن أسندت رأسها إلى الوسادة.

راود "فيكتور" شعور غريب بالضيق وهو يراها تنام هكذا بكل بساطة. أحس لحظاتٍ أن "نينا" غريبة تمامًا عنه، وأنها لا تبالي به أو بـ"سونيا"، ووجد أن "سونيا" أقرب إليه، وأنهما أصدق في التعبير عن قلقهما على "ميشا".

تأملها، وهي نائمة وظهرها له، وأدرك أنه لا يشعر بالضيق لكونها تنام في هدوء، بل لسُهاده وعجزه عن أن ينام مثلها.

نهض، وهو يحاذر ألا يوقظها، وارتدى الروب، ثم ذهب إلى الصالة، واقترب من "سونيا". وجدها نائمة، ولكنها لم تكن نائمة بعمق، كما أنها لا تزال تنتحب.

وقف لحظاتٍ ينظر إليها، قبل أن يذهب إلى المطبخ، ويغلق بابه من خلفه، وجلس إلى الترابيزة دون أن ينير المصباح.

تصاعد صوت تكتكة عقرب الثواني في منبه المطبخ القديم الموضوع بجوار الشباك، واكتسب حضورًا أقوى بفعل الظلام والسكون. حتى أن "فيكتور" حدَّق في دهشة خلال الظلام تجاه مصدر ذلك الصوت الذي شعر أنه أعلى من اللازم. رغب في إسكاته. أمسك بالمنبه، وقرَّبه من عينيه. لم يكن مهتمًّا بمعرفة الوقت عبر هذه الدقة الميكانيكية البسيطة الموثوق بها، بل يريد أن يعمَّ المكان صمت تامٌّ. ولكن التكتكة تصاعدت، وخطرت له حقيقة غبية، ألا وهي أن الزمن وحده القادر على إخراس هذه الساعة. حملها "فيكتور" إلى خارج المطبخ، وعبر الردهة، قبل أن يضعها عند باب الشقة، ويعود إلى المطبخ.

أصغى مليًّا، وارتاح عندما وجد أنه لم يعد يسمع تلك التكتكة. لمح امرأة في الشباك الوحيد المضاء في العمارة المقابلة. كانت تجلس إلى ترابيزة ومنشغلة بالقراءة. وعلى الرغم من استحالة أن يتبين وجهها، إلا أنه شعر بمشاعر دافئة ومتعاطفة معها، وكأنها رفيقته في ساعة التعاسة هذه.

راقبها وهي جالسة بلا حراك، وتسند ذقنها إلى يديها، ولا تحرك يمناها إلا حينما تريد أن تقلب صفحة الكتاب.

شعر لحظةً أن السماء منيرة بالخارج. هناك نصف بدر أصفر شاحب في السماء. ولكنه بعد أن تكشف لعيني "فيكتور"، سرعان ما غاب وراء الغمام.

عاد ينظر تجاه الشباك المضاء. صارت المرأة واقفة عند البوتاجاز. أشعلت أحد عيونه، ووضعت البراد عليها، قبل أن تعود إلى ترابيزتها وكتابها.

فكَّر أن توقف المطر أمر جيد، وتذكر قطراته المرتجفة التي كانت تتشبث بزجاج الشباك.

التفت إلى باب المطبخ المغلق، وتذكر عادة "ميشا" في أن يدفعه ويفتحه، ثم يقف عنده، قبل أن يقترب منه ويستند على ركبته. تمنى لو انفتح الباب الآن، وظهر "ميشا".

بقي مكانه نصف ساعة أو أكثر، قبل أن ينهض إلى غرفة النوم، ويدخل السرير، ويستغرق في النوم، ونحيب "سونيا" يرن في أذنيه.

أيقظته "نينا" في الصباح. وقالت له في قلق:

- يبدو أن أحدهم زارنا في الليل مرة أخرى.

سألها بصوت نعسان:

- أحضروا شيئًا جديدًا؟

- كلا. ولكنهم تركوا ساعة منبه عند الباب.

- هذا أنا.

- ولماذا فعلت ذلك؟

- بسبب التكتكة.

نام مجددًا، ولم ينتبه إلى دهشتها ونظراتها المتسائلة.

استيقظ عند الحادية عشرة تقريبًا. وجد الشقة هادئة. بينما أشرقت الشمس.

في المطبخ، وجد إفطاره ومعه رسالة:

"سنعود سريعًا. خرجنا لنتمشى. نينا".

اغتسل، ثم أخذ البطاقة التي تركها البيطري واتصل بالعيادة.

- هل يمكنني التحدث إلى "إيليا سيميونوفيتش"؟

- هذا أنا معك.

- أنا صاحب البِطريق.. "ميشا".

- أهلًا. دعني أشرح لك حالته.. إنها إنفلونزا بمضاعفات كبيرة. سوف نقوم بفحص توموجراف هذا المساء، وبعدها نتعرَّف طبيعة الحالة بكل دقة.

- كيف حاله الآن؟

- أخشى أن حالته لم تتحسن.

- هل يمكنني زيارته؟

- غير ممكن. اصبر. اتصل بي يوميًّا وسوف أعرفك بالتطورات.

عاد إلى المطبخ، وتناول البيضتين المسلوقتين، وشرب الشاي، ورفع الآلة الكاتبة من أسفل الترابيزة إلى سطحها. لا تزال ورقة الأمس تبرز منها. كان يكتب نعيًا عن شخص اسمه "بونداريكو"، مدير شركة "برودواي" الخاصة لخدمات الجنائز. ابتسم عندما أدرك المفارقة الساخرة. يمكنه أن يتخيل الصورة التي ستكون عليها جنازة هذا الرجل، بينما زملاؤه يقفون في ترتيب دقيق إلى جوار تابوته الفخم ذي المقابض المذهبة.

وجد أنه لم يعد يتذكر شيئًا من المعلومات التي قرأها عن هذا الـ"بونداريكو". بحث في الملف، فوجد ثلاث ورقات:

"في عام 1995، في "بيلوجورودوك"، داخل قبرًا عاديًّا بمدافن تلك القرية، دفن "فياتشيسلاف بونداريكو" عددًا من الجثث المجهولة المشوهة. وهناك من الأدلة ما يؤيد فكرة أن من بين تلك الجثث جثة الكابتن "جولوفاتكو"، الضابط في قسم مكافحة الجريمة المنظمة، وجثة الرائد "بروتشينكو"، في أمن الدولة الأوكرانية. ويعتقد أن "بونداريكو" متورط في عدد من العمليات المشابهة في قرى منطقة "كييف" خلال الفترة ما بين 1992 و1994".

نهض "فيكتور" وهو يتحاشى التفكير في هذه المفارقة المريرة، وأعد القهوة، ثم خرج إلى البلكون. كان يرغب في أن يبتعد بأفكاره عن الجنائز ولو خمس دقائق، وتطلع إلى شبابيك العمارة المقابلة، في محاولة لتحديد الشباك الذي كان مضاءً ليلة أمس. ولكنه وجدها جميعًا متشابهة الآن.. تحت ضوء الشمس.

65

عيادة "ثيوفانيا".
بادر بالاتصال بها في الصباح التالي. ولكنه لم يجد "إيليا سيميونوفيتش"، فلم يعثر على كلمات مناسبة يهدئ بها "سونيا" الواقفة إلى جواره. ولكنه وعدها:

- سأتصل مرة أخرى بعد نصف ساعة.

تركته من دون رد، وذهبت إلى باب البلكون. ولكن "نينا" لحقت بها، ومالت عليها، تسألها:

- ما رأيك أن نذهب إلى السيرك هذا المساء؟

هزت "سونيا" رأسها رافضة.

وبينما همَّ "فيكتور" بالذهاب إلى المطبخ ليبدأ عمله، رن جرس التليفون. وقفت "سونيا" و"نينا" دون حراك. رفع السماعة، وهو يتوقع أن تكون العيادة، ولكنه كان رئيس التحرير، وكانت نبرة صوته عالية وغير راضية:

- أنا لا أريد نصوصًا فلسفية. كل ما أريده هو عمل احترافي بسيط، وكن سريعًا في تنفيذ ذلك. لا يمكن أن أنتظر الأسبوع كله لأجل خمسة أو ستة نصوص.

أطرق "فيكتور" رأسه في وجوم، وهو يستمع إليه. بينما أردف الرئيس بنبرة أهدأ، وكأنه تعب من الغضب:

- هل تسمعني؟

- نعم.

أغلق "فيكتور" الخط. كان قد اعتاد تلقي مكالمات تليفونية من رئيس التحرير على هذه الشاكلة. تتحدث فقط في شؤون العمل، ولا تحتاج إلى بدئها بمرحبًا وإنهائها بوداعًا. سألته "نينا" الواقفة عند باب البلكون:

- مَنْ هذا؟

تنهد، وهو يرفع سماعة التليفون إلى أذنه من جديد:

- العمل.

اتصل بالعيادة البيطرية ثانية. وهذه المرة أتاه صوت "إيليا سيميونوفيتش":

- أريد أن ألقاك.

توجس "فيكتور" خيفة من نبرة صوت الرجل:

- هل أحضر إليك في العيادة؟

- لا حاجة إلى ذلك. سوف ألقاك في "كييف" القديمة.. شارع "كريشاتيك".. عند الحادية عشرة.

- وكيف أتعرف إليك؟

- لا أظنُّ أنه سيكون هناك الكثير من المارة. ومع هذا.. فأنا أرتدي معطفًا رماديًّا، وبيريه، وجسدي نحيف، قصير، ولي شارب.

سألته "سونيا" بصبر فارغ:

- ماذا أخبروك؟

كذب عليها:

- حالته تتحسن. سوف أذهب إلى العيادة وأراه بنفسي.

تملكته الهواجس. وإلا، ما ضرورة أن يلتقيه في كافيه في شارع "كريشاتيك"؟

دائمًا ما تأتيه الأخبار السارة عبر سماعة التليفون. ولكن ربما يريد البيطري مالًا. فلم يكن "فيكتور" قد دفع أي شيء حتى الآن، وتكلفة بقاء "ميشا" في العيادة هي خمسون دولارًا في اليوم.

اطمأنَّ بعض الشيء إلى فكرة أن يكون المال هو سبب اللقاء.

كانت الشمس مشرقة. وعند مدخل العمارة، ابتسم لبنتين تتقافزان فوق ترامبولين.

وهناك، في ذلك الكافيه الموجود في بدروم عمارة، كان "إيليا سيميونوفيتش" في انتظاره، واقفًا إلى ترابيزة فوقها فنجان قهوة. لم يكن بالمكان أحد، ولا حتى وراء الكاونتر عند ماكينة القهوة. رحَّب به "إيليا"، قبل أن يتجه إلى الكاونتر، ويخبط على سطحه الرخامي براحة يده. أمر السيدة التي ظهرت من داخل المكان:

- فنجان قهوة.

- ما الأخبار؟

يبدو أنه يعاني عيبًا خِلقيًّا في القلب. ولذلك فإن علاج الإنفلونزا قد يقتله.. ولكن فرص بقائه على قيد الحياة حتى دون أن يُصاب بتلك الإنفلونزا كانت معدومة. إلا إذا...

سكت، وهو ينظر في ترقب إلى "فيكتور".

- هل هي مسألة تكاليف؟

- بالفعل. ولكن بخلاف المال، هناك مسألة مبدأ أيضًا، والأمر لك في النهاية. فلا فكرة لديَّ عن مدى ارتباطك بذلك البِطريق.

صاحت سيدة الكاونتر:

- واحد قهوة!

وعندما استدار ليحضر الفنجان، لم يجدها واقفة. ولكنه لم يفكر في ذلك، وهو يبادر الرجل:

- قل لي كم التكلفة فحسب.

تنهد الرجل، ثم قال:

- حسنًا. سأقولها لك ببساطة. لا أمل لـ"ميشا" إلا في عملية جراحية في القلب.. أو بالأحرى.. زرع قلب جديد.

- ولكن كيف؟ من أين لك بقلب بِطريق آخر؟

- لذلك قلت لك إن هناك مسألة مبدأ. كنت قد استشرت أستاذ القلب في المستشفى.. ووجدنا أننا بحاجة إلى قلب بشري لطفل أو طفلة في سن الثالثة أو الرابعة.

لم يستطع "فيكتور" بلع القهوة في فمه، وانسكب بعضها وهو يعيد الفنجان إلى طبقه. بينما أردف الرجل بنبرة موحية:

- في حال نجاح العملية، فإنه سيعيش بضع سنوات أخرى. وإلا.. ولكن دعنا نركز فيما يهمك، ستكون تكلفة العملية الفعلية 15 ألف دولارًا. وهو مبلغ معقول. أما عن القلب.. فبوسعك أن تبحث بنفسك، أو تُوكِل إلينا نحن هذه المهمة. لا يمكنني في هذه اللحظة أن أعرف تكلفة ذلك القلب. أسعار الأعضاء البشرية ترتفع بطريقة مجنونة هذه الأيام.

سأله "فيكتور" في دهشة:

- أبحث بنفسي؟ ماذا تقصد؟

- أقصد أن هناك مستشفيات أطفال في "كييف"، وفي كل منها وحدة تبرعات. عليك أن تلتقي الأطباء، وعليك ألا تخبرهم أنك تريد القلب لبطريق. كل ما عليك أن تخبرهم به هو أنك بحاجة إلى قلب طفل مُتوفَّى وعمره ثلاث أو أربع سنوات. واعرض عليهم مبلغًا محترمًا. وهم سيتطوعون بإبلاغك.

- لا.

- لِمَ لا؟ حسنًا. أنت بحاجة إلى التفكير في الموضوع بهدوء. ورقمي معك. ولكن رد عليَّ في أقرب وقت. كلما مر الوقت، زادت التكلفة. وسوف أنتظر مكالمتك.

تركه "إيليا" وانصرف، وبقي "فيكتور" وحده. لم يجد في نفسه رغبة في شرب القهوة التي بردت، فغادر المكان بدوره. سار في شارع "كريشاتيك" في اتجاه مكتب البريد الرئيسي.

لم يعد يلحظ أن الشمس مشرقة. ولم يعد ينتبه إلى المارة من حوله. ولم يبالِ عندما ارتطم بكتفه شابٌّ على سُلَّم النفق، بل ارتطم هو نفسه بسيدة غجرية كانت تحاول أن تتسول منه.

فكر وهو يمشي مطرق الرأس أن هذه الحياة بها عيب فادح. أو أن الحياة ذاتها تغيرت، ولم تعد بسيطة ومفهومة إلا لمن ينظر لها من بعيد. أما من يمعن النظر فيها فسيكتشف أنها تعطلت، وأن كل شيء قد صار مُباحًا، وأن اللا معقول يكمن في كل معقول – حتى ولو كان ذلك رغيف خبز أوكرانيًّا أو كابينة تليفون في الشارع. أسفل كل سطح، وداخل كل شجرة، وفي كل شخص. ليس واقع كل كيان إلا إيهام زائف.

خلف المبنى الذي كان في السابق متحف "لينين"، توقف وتلفت حوله في استغراب، وكأنه يبحث بعينيه عن تفاصيل صغيرة في المنظر المألوف للمدينة. تأمَّل النُّصب التذكاري وراء عتبات المنتزه، تذكار الصداقة بين أمتين، ومن ورائه أطلال قاعة الموسيقى، وأعلاهما لافتة إعلانية ضخمة تعرض شامبو فرنسي.. "شعرك.. يحسده الكل!".

اقترب أوتوبيس رقم 62 الممتلئ بالركاب، قبل أن يتوقف في محطته. خرج منه عدة ركاب، قبل أن يستأنف سيره، متجاهلًا مجموعة من المنتظرين الغاضبين في المحطة، وهو ينعطف يمينًا في شارع "فلاديمير".

تأمَّله، قبل أن يسير هو بدوره نحو "بودول"، متجاوزًا المحطة المعلقة، وعابرًا المحطة النهرية الرئيسية. ارتفع به شارع "فلاديمير" قبل أن يتركه ويدخل في شارع "بيتور ساجايدتشني". توقف خارج بار "باكوس"، قبل أن يدخله.

طلب كأس نبيذ أحمر، وجلس إلى ترابيزة. تنهد، وهو يشرب من كأسه. لماذا يجب أن يكون قلب طفل؟ لماذا ليس قلب كلب؟ أو قلب خروف؟

هناك، عند ترابيزة مجاورة، شلة شباب يمزجون البيرة بالفودكا قبل شربها. شرب "فيكتور" كأس نبيذ آخر، وهو يتلذذ بمرارتها. وسرعان ما طرد عقله تلك الأفكار المتوترة.

يبدو أن لدى البِطريق الكثير مما يربطه بالإنسان، مقارنة بالكلاب والخراف، كلاهما يمشي منتصب القامة، وكلاهما يمشي على قدمين، وليس أربعة.. بل إن البِطريق يتميز عن الإنسان في أن أسلاف أسلافه لم يكونوا من ذوات الأربع.

تذكر مخطوطات "بيدبلاي". كانت النصوص الوحيدة التي قرأها عن البطاريق، كما تذكر أنه قرأ أن الأب هو من يتولى تربية الصغار، وأنه يبقى زوجًا مخلصًا لأنثاه على مدار سنوات؛ وأن البِطريق خبير في التحرك بالاعتماد على الشمس؛ وأن الحس الجماعي لديه عالٍ ومتأصل. تذكر شقة "بيدبلاي"، ورائحة الدخان.. وعندئذ عادت أفكاره إلى "ميشا".

انتهى من كأسه، وطلب أخرى. غادرت شلة الشباب بخطوات مترنحة. وهكذا بقي "فيكتور" وحيدًا. رمق ساعته: الثانية عشرة والنصف. تسللت أشعة الشمس إلى البار، فسقط ظل الكأس فوق سطح الترابيزة على هيئة عدة ظلال صغيرة.

يجب أن يجري العملية لـ"ميشا". هكذا حسم أمره، بتأثير النبيذ. يجب أن يكلفهم بالقيام بكل شيء. لا بد أن هناك ما يكفي من المال. وبوسعه أن يأخذ بعض المال من الحقيبة الموضوعة فوق الدولاب. ولا يهمه أن تكون أموال "سونيا".

عاد إلى الشقة، وتجاهل الغداء. أراد أن ينام ولو ساعة. لم تكن "نينا" و"سونيا" في الشقة. وهكذا استيقظ عند الرابعة وهو يشعر بثقل في رأسه، وراح يجهز القهوة، ثم جلس إلى الترابيزة.

عندما صفى عقله بعض الشيء بفضل القهوة، عاد ليفكر في "ميشا". ولكن الثقة التي زرعها النبيذ في نفسه كانت قد تبددت. وضع الآلة الكاتبة فوق الترابيزة، وحاول أن يشغل عقله بالعمل. وتذكَّر مكالمة رئيس التحرير. الرجل معه حق. عليه أن يطوي تلك الصفحة. جلس إلى الآلة الكاتبة، أمام صفحة بيضاء تنتظره. التقط رزمة الملفات. تبقى ملفٌّ واحد. شرع في قراءته.

عادت "نينا" و"سونيا" بعد وقت غير طويل. قالت له "نينا"، وهي تساعد "سونيا" على خلع معطفها:

- كنا عند أم "سيرجي". إنها قلقة؛ لأنه لم يتصل بها منذ أسبوعين..

بينما سألته "سونيا"، وهي تدخل المطبخ قبل حتى أن تخلع جوربها:

- كيف حال "ميشا"؟

ولكن "فيكتور" بادرها في صرامة:

- اذهبي وارتدي الشبشب..

ولكنه سرعان ما أردف ليطمئنها، بعد أن غادرت المطبخ مطيعة:

- وعدني البيطري أنه سيعالجه. ولكن عليه أن يبقى في المستشفى.

- هل يمكن أن نذهب لزيارته؟

- كلا. الزيارة ممنوعة.

66

مرَّ يوم.
لم يتصل "فيكتور" بعيادة "ثيوفانيا" بعد. كان قد انتهى من آخر نص نعي، وصار الآن في انتظار مراسل رئيس التحرير.

خرجت "نينا" مع "سونيا" للتمشية، فاستغل غيابهما وأحصى دولارات "سونيا". وجدها لا تكاد تتعدى أكثر من 40 ألف دولار. أعاد حزم الدولارات بالأستيك، وأرجعها مكانها. ثم أحصى ماله الخاص، والذي كسب "ميشا" أغلبه. قرابة عشرة آلاف. قال لنفسه، في اللحظة نفسها التي رن فيها جرس الباب:

- عليَّ أن أتصل بهم.

كان المراسل قليل الكلام، رجلًا على شفا سن التقاعد يرتدي معطفًا قديمًا، تناول منه الملف، ووضعه في حقيبته، وناوله ملفًا آخر، قبل أن يسارع بنزول السلم.

راقبه "فيكتور" وهو يبتعد، قبل أن يعود إلى داخل الشقة، ويُلقي بالملف فوق ترابيزة المطبخ. ذهب إلى التليفون في غرفة المعيشة، ولكنه تردد. شيء ما يمنعه. حاول أن يتشجع ويقدم على الاتصال، ولكنه بقي متسمِّرًا مكانه، ينظر إلى التليفون كما لو أنه سيرن من تلقاء نفسه، ويتحدث نيابةً عنه.

في النهاية، اتصل بالعيادة. سأل عن "إيليا سيميونوفيتش"، ووجد أنه يشعر بارتياح غريب عندما سمع أنه غير موجود.

لم يعاود الاتصال في ذلك اليوم، وانشغل بالعمل، حتى انتهى من ثلاثة نصوص قبل أن تعود "نينا" و"سونيا". أمامه نصان آخران قبل أن يتصل برئيس التحرير؛ ليريه أنه قادر على العمل بسرعة!

في الصباح التالي، اتصل به "ليوشا":

- جنازة كبيرة في الغد، يا صديقي.

- أخشى أن عليك أن تذهب من دونه. لقد مرض بشدة خلال أخر جنازة، وأنا غير متأكد من كونه سيتعافى من مرضه أم لا.

حكى لـ"ليوشا" الحكاية بالتفصيل، ففزع الأخير:

- اسمع. دعني أُسوي الأمر ما دمتُ المُلام. أين هو؟

أملى عليه "فيكتور" رقم تليفون "إيليا سميونوفتيش".

- جيد. سوف أعاود الاتصال بك. لا تحزن هكذا.

وبالفعل، اتصل به في المساء. وقال له مطمئنًا:

- ستكون الأمور على ما يرام. الرفاق يتولون الجزء المالي وكل ما له صلة بالعملية. صاحبك "إيليا" شخص ودود. سيتصل بك يوميًّا؛ ليخبرك بالمستجدات.. وبالمناسبة.. هل سترافقني في الغد؟ وتحضر الجنازة بعدها؟

- أنا إذًا من سيلعب دور البِطريق.

عاد إلى آلته الكاتبة، بينما ينتابه شعور يجمع بين الأمل والتوجُّس. لقد قرر الرفاق – وبوسعه تمييز نوعية هؤلاء الرفاق – سداد تكاليف العملية، وبالتالي سيقومون بالبحث عن قلب..

وكأنه في أجواء فيلم رعب، وهو يكره أفلام الرعب.

هز رأسه حتى يطرد عنه كل الهواجس، وعادت أفكاره إلى الرفاق. لماذا قرروا تحمُّل هذه المسؤولية؟ هل هم طيبون إلى ذلك الحد؟ محبون للحيوانات؟ مدينون له؟ أم مدينون لـ"ميشا"؟

أتعبته الأسئلة، فأراد أن يفكر في شيء آخر، ولكنه فشل في الخروج بأفكاره من أسر البِطريق المريض.

وفجأة، تذكَّر البرنامج التليفزيوني، والمذيعة التي طالبت المشاهدين بالتبرُّع لتحمل تكاليف طائرة ترسل إلى مركز الأبحاث الأوكراني في القطب.

نظر إلى قُصاصة الصحيفة ووجد رقم الحساب وأرقام التليفون. خطر له خاطِر سعيد. لو عاش "ميشا"، فيجب أن يرسله إلى القطب على متن تلك الطائرة. سوف يعرض "فيكتور" أن يقدم مساهمته بشرط أن ينقلوا بِطريقَه إلى تلك البيئة الجليدية القاحلة.. سيقدم لهم عرضًا لن يمكنهم رفضه.

أسعدته الفكرة، فتعامل مع النصوص المتبقية بكل حماسة، وانتهى منها خلال ساعتين.

في المساء، اتصل به "إيليا".

- أتعرف أن الأمور على ما يرام؟

- نعم.

- الصراحة، إنك تمتلك أصدقاء أوفياء. وحالة "ميشا" مستقرة الآن. ونجهزه للعملية.

- ألديك كل ما تحتاجه؟

- ليس بعد. مسألة يومين أو ثلاثة، في رأيي. سوف أتصل بك غدًا.

سألته "سونيا"، بعد أن تناولت عشاءها، عن حالة "ميشا". فأخبرها بكل ارتياح:

- تتحسن.

67

ما زال مستيقظًا.
لم يجد "فيكتور" في نفسه رغبة في النوم. وبرغم أن "سونيا" و"نينا" نامتا منذ زمن، فقد بقي جالسًا في المطبخ وسط الظلام، يراقب أضواء نوافذ العمارة المقابلة وهي تنطفئ، الواحد يلو الآخر.

لم تكن مسألة أرق. بل هو ببساطة مستمتع بالصمت والسكينة بينما يراقب المدينة وهي تستغرق في النوم. ولم يعد يتضايق من تكتكة الساعة، التي أعادها إلى جوار الشباك. لم يعد متوترًا. كما أن أفكاره - وبتأثير من هذا الهدوء - توقفت عن منافسة بعضها البعض في عقله، ومضت تتدفق في استرسال مُتمهِّل.

وبعد كل تلك الصدمات، والمفاجآت غير السعيدة، والشكوك السوداوية، وبعد لحظات من الأفضل له أن ينساها بدلًا من أن يفهمها ويتقبلها، عادت حياته إلى مسارها الطبيعي. وهذا المسار الطبيعي هو وحده الذي يتيح له تأمل مستقبله. مستقبل لن يتحقق إلا بالمضي قدمًا، من دون توقف لتسليط الضوء على لغز ما أو العمل على إحداث أي تغيير في طبيعة الحياة ذاتها. الحياة طريق، يطول كلما انحرفت عنه. والطريق الطويل حياة طويلة – حيث الترحال أفضل من الوصول، وهذا لأن نهاية الرحلة معروفة مهما تتعدَّد الدروب: الموت.

لقد انحرف عن الطريق، وتحسس دربه عبر أبواب مغلقة، ولكن الطريق احتفظ له بآثاره. لازمته تلك الآثار، في ذاكرته، وفي ماضٍ لم يعد يحمله على عاتقه.

ثلاثة شبابيك فقط هي المضاءة في العمارة المقابلة، وليس من بينها تلك التي تهمه.

إنه غير مهتم بأولئك الثلاثة المستيقظين. رغب في أن يرى السيدة التي راقبها خلال أخر ليلة لم ينم فيها، لكنه لم يسمح لغيابها بالتأثير على سلامه النفسي.

يبدو أنه صار مؤمنًا بسر الحياة الأبدية. وفي طول العمر سلام. والسلام مصدر الثقة بالنفس، والثقة بالنفس تتيح للمرء تطهير حياته من أوجاع لا طائل من ورائها. تسمح له الثقة بالنفس أن يتخذ قرارات تطيل من عمره. الثقة بالنفس هي الطريق إلى المستقبل.

تطلَّع إلى المستقبل فرأى بوضوح، وكأنها أول مرة في حياته، كل ما كان يعوق دربه. وكم كان غريبًا أن يجد كل شيء مرتبطًا بشكل غير مباشر بحبه لـ"ميشا"! وبرغم أن لا علاقة لـ"ميشا" نفسه بذلك، فقد كان من دون قصد سببًا في تعقيد حياة "فيكتور". اجتذبه "ميشا" إلى دائرة كئيبة لأناس يمتلكون درجة عالية من الإحساس بالفناء، و"ميشا" وحده قادر الآن على تحريره من أسرهم. وفي ظل ابتعاد "ميشا" عن الصورة، سيبتعد "ليوشا" ومنظاره أيضًا، وكذلك التوابيت مذهبة المقابض. سيبقى شَرٌّ واحد من بين شرين في حياة "فيكتور".. عمله، لكنه شر تصالح معه منذ زمن لأنه شر غيره، ومنحه "فيكتور" بُعدًا فلسفيًّا، في مقابل ثلاثمائة دولار في الشهر. إنه شر يسهم فيه بصورة غير مباشرة. ليس مسؤولًا عنه.

فرح عندما تخيل صورة "ميشا" وسط القطب الجليدي الشاسع. إنه الحل الوحيد – وفيه مصلحتهما. إنها الحرية. شرط أن تنجح العملية. وحتى إذا تقبَّل الرفاق الذين تحملوا تكاليف العملية فكرة غياب البِطريق، فما الذي بوسعهم أن يفعلوه؟ إنه مشمول وينعم بتلك الحماية الغامضة التي حدثه عنها "ميشا" الإنسان وصديقه اللدود "سيرجي تشيكالين".

ابتسم في رضا، بينما يستغرق في الإيقاع الهادئ المنتظم لحياته المستقبلية.

أظلمَ أخر شباك كان مضاءً في العمارة المقابلة، ولم يعد هناك مِن ضوء.. سوى نور القمر.

68

مرَّت عدة أيام من الربيع.
وفي كل مساء، يرن جرس التليفون، ويحدثه "إيليا" عن حالة "ميشا"، والتي كانت مستقرة - مثل حالة "فيكتور" - وحالة الطقس. تغادر "نينا" الشقة مع "سونيا" كل صباح؛ لرغبة "نينا" في أن ترى "سونيا" الربيع. كانا يدرسانه في اهتمام. وبدت لعبة تستمتعان بها. سعد "فيكتور" بهذا الغياب الذي يتيح له التركيز في العمل. تدفقت النصوص في سرعة وسلاسة، وانتظر مكالمة مديح من رئيس التحرير. لكنه لم يتصل. ولم يتصل به أي شخص آخر، سوى "إيليا سيميونوفيتش". كان ضابط الحي "سيرجي" هو الوحيد الذي كان يتصل به ولا يطلب منه شيئًا، ولكنه الآن بعيد. هل هناك من شخص آخر يتربص بحياته في الظلام؟ "ليوشا"، بودي جارد الجنائز المهمة؟ سوف يتصل به في نهاية المطاف. لا شك في ذلك. ولكنه ليس بهذا السوء. إن "ليوشا" مثله، عثر على مكانته في الحياة، فلزمها. ربما لم يطرأ سوء حتى اليوم. على أن تلك المكانة لا يمكن أن يُحسد عليها، إلا إذا رأى أحدهم أنك في موضع لا تستحقه.. حفظك الله.

اتصل به "إيليا" عند الثالثة.

- أجرينا العملية ليلة أمس. وكل شيء جيد حتى اللحظة. ولم نرصد أي دلائل على رفض الجسد للعضو.

فرح "فيكتور" كثيرًا، وشكره، وسأله عن توقيت اصطحاب "ميشا" إلى المنزل.

- ليس قبل فترة. هناك ستة أشهر لإعادة التأهيل.. ولكنني سأعرفك. فربما تكون الفترة أقصر من ذلك. سوف نرى.

أعدَّ "فيكتور" القهوة، وذهب إلى البلكون، وتأمل الشمس بعينيه. هناك نسيم لطيف رائع. راوده شعور جديد منعش، وهو ينعم بدفء وليد تبعثه الشمس. يا له من إحساس مذهل! الاستمتاع برقة النسيم الخفيف مع سطوع الشمس. ذلك ما يحيي الحياة، ويستدعيها لتعم سطح الأرض.

كانت القهوة غير مركزة، ولكنه لم يكن يريدها قوية. صارت القهوة المركزة ترتبط في ذهنه بالشتاء، والمعاناة مع الخمول، ومحدودية ضوء النهار، وترقب الدفء.

بوسعه الآن أن يتصل باللجنة القطبية. ومن ثمَّ يسعد هو هنا بالدفء، ويسعد "ميشا" هناك بالبرودة.

عاد إلى غرفة المعيشة، وتوقف لحظة أمام رسمة "سونيا" العائلية، بصحبة البِطريق. ابتسم وتنهد في ارتياح، وهو يشعر بالفخر بنفسه وبالحل الذي توصل له، وفكر كيف أن من الأسهل بكثير أن يقرر المرء مصير غيره مقارنة بتقرير مصيره هو. خاصة أن كل محاولات تغيير مصيره لم تؤدِ إلا إلى تبعات منهكة غير محمودة. كان كل تغيير إلى الأسوأ، أيًّا كانت طبيعته.

69

"مكتب الحزب".

كانت تلك هي اللافتة الصغيرة التي بقيت معلقة على الباب المؤدي إلى مقر اللجنة القطبية المكون من قاعتين متلاصقتين في الطابق الثاني من المبنى الإداري عندما كان في الماضي مصنع طائرات.

وصل عند الحادية عشرة، بعد أن كان قد اتصل بهم في وقت سابق. أدركَ أن مِن الحماقة أن يتحدث عن بِطريقه عبر التليفون. ففي تلك الحالة سيتعاملون معه على أنه نَصَّاب أو مَعتوه. لذلك قدم لهم نفسه على أنه متبرع للمشروع.

انتظر عند بوابة المصنع قرابة خمس دقائق، قبل أن يأتيه رجل نحيف في بدلة رمادية، ويصطحبه. "فالينتين إيفانوفيتش"، رئيس اللجنة، وبالطبع كان، مثل أي شخص هدفه جمع التبرعات المالية، مهذبًا وودودًا. قدم له القهوة في البداية، قبل أن يفتح له باب المقر. قال له، وهو يشير إلى صفوف الكراتين وإلى ركن ممتلئ بالمعلبات:

- كما ترى، فإن أغلب ما نتحصل عليه هو المؤن. ونحن نتسلم أي شيء، حتى ولو كانت صلاحيته منتهية. هذا أمر جيد على كل حال. وأحيانًا ما نتلقى أموالًا. فقد تبرع بنك التعمير الجنوبي بثلاثمائة دولار. ومنطقي أننا نُفضِّل تلقي المال. نحن بحاجة إلى ثمن وقود الطائرة. علاوة على أجر الطيارين.

أومأ "فيكتور" برأسه في تعاطف.

عادا إلى المكتب الأول، وأخرج "فالينتين" بعض المستندات التي بها تفاصيل ما تم استلامه من مؤن وأموال. تصفحها "فيكتور"، ولاحظ أن أحد المتبرعين قدم كمية هائلة من الشوربة الصينية المعلبة. بينما أردف "فالينتين":

- ما تراه ليس كل ما جمعناه. نحن نخزن الأجهزة والمعدات والملابس في مكان آخر. كما أن لدينا برميلين من زيت عباد الشمس.

- متى ستكون الرحلة؟

- في التاسع من مايو.. ذكرى يوم النصر. ونظرًا لطبيعة الرحلة، كان علينا أن نحدد موعدها مسبقًا. ولكن اسمح لي، ما طبيعة المساعدة التي ترغب بها؟ مال أم مؤن؟

- مال.. ولكن بشرط واحد.

- تفضل.

- منذ عام، وحينما لم تجد حديقة الحيوان طعامًا لحيواناتها، قمت بتبني بِطريق. وأنا الآن أرغب في إرساله إلى القطب، حيث بيئته الطبيعية.. هذا هو شرطي.

لحظةً، فضحت عينا رئيس اللجنة الزرقاوان سخرية دفينة، ولكن تعبيرات وجهه بقيت جامدة، مثلها مثل تعبيرات وجه "فيكتور". بقيا يحدقُ كلٌّ منهما إلى الآخر، وكأنهما في تحدٍّ، ولكن رئيس اللجنة خفض عينيه في نهاية المطاف، وسأل:

- وكم ستتبرع لأجل هذا الراكب؟

- 2000 دولار.

لم يكن "فيكتور" يرغب في الفصال. الأمور تجري على ما يرام حتى الآن، وتلك النظرة المتسائلة - إما بدافع من السخرية أو عدم الثقة - لم تؤثر في مجريات النقاش.

بقي "فالينتين" يفكر صامتًا دقيقةً أو أكثر. ثم سأله:

- نقدًا؟

أومأ "فيكتور" برأسه بنعم.

- جميل. سوف ننقل راكبك. هل يمكنك دفع المبلغ خلال يومين، وأن تحضر البِطريق في يوم إقلاع الطائرة؟ سيكون موعد الإقلاع عند الظهر.

هيمن على "فيكتور"، وهو يمشي إلى منزله عبر الشارع المشمس، شعور بالقلق. دفعته سهولة تقريره لمصير "ميشا" إلى التفكير في مصيره. في التاسع من مايو سيعود وحيدًا. وبرغم وجود "نينا" و"سونيا"، فإن الطريقة التي تعيشان بها معه لن تنسيه "ميشا".

لم يكن ينتظر من "نينا" و"سونيا" أي مشاعر، فهو بدوره لا يحمل تجاههما تلك المشاعر. أهي مجرد لعبة، وهو يقوم بدوره فيها؟ لعبة العائلة؟ ربما. ولكنه يرى أن "نينا" معجبة باللعبة. وطبعًا، "سونيا" أصغر من أن تفهمها. لقد اعتادت وجود الكبار في حياتها. ولم تعد تتذكر أي شيء عن أبويها. ربما ينبغي له أن يحاول تنمية أي نوع من المشاعر تجاه "نينا" و"سونيا"، وأن يدفعهما إلى التجاوب معه. عندئذ، تتحول اللعبة إلى حياة.. وواقع.

70

أوشك أبريل على الانتهاء.
تجهزت المدينة، التي اخضرَّت بالدفء، بإزهار أشجار الجوز. ولكن إيقاع حياة "فيكتور" تباطأ. في أخر مرة أتاه المراسل، لم يعطه ملفًا جديدًا في مقابل العمل الذي أنجزه. لذلك، اتصل "فيكتور" برئيس التحرير، الذي أخبره أن ليس هناك عمل مطلوب هذه الفترة. فوجئ "فيكتور" بهذه الفجوة في روتينه اليومي، التي لم يحسب لها حسابًا. كان كل شيء يسير حسب الخطة حتى الآن، دفع مبلغ ألفي دولار لـ"فالينتين"، بينما يتصل به "إيليا" يوميًّا ليعرفه بتطورات حالة "ميشا". ولكن ها هو يتوقف عن العمل فجأة.. والآن بالذات.

عادت "نينا" للحديث عن شراء منزل في الريف، وتأتيه بإعلانات لبائعين. كان يقرأ في صبر كل ما تأتيه به. وبدا له أن عليهم أن يبادروا بشراء ذلك المنزل الصغير ذي الحديقة في أقرب وقت ممكن، حتى يكون جاهزًا لثلاثتهم مع حلول الصيف. ولكنه في قرارة نفسه الآن يفتقر إلى أي عزيمة جادة لتنفيذ تلك الرغبة.

طمأن نفسه بأن كل شيء سينتهي في التاسع من مايو، في محاولة للربط بين موقفه الحالي الغريب وعدم وجود عمل وترقب رحيل "ميشا".

ارتاح لتضاؤل اهتمام "سونيا" بـ"ميشا". وصار مقتنعًا بأن اختفاء البِطريق من حياته سيتم بالحد الأدنى من الخسائر. وشعر بالأسى أكثر على نفسه، وهو

يعرف أنه سيفتقد "ميشا"، وأنه سيحزن لذلك.

لكنه حسم قراره، ولم يعد هناك أي شيء بيده، ولا فائدة من هذا الإشفاق على الذات.

اتصل به "ليوشا":

- كل شيء على ما يرام! وفي غضون أسبوعين سنشرب في صحة بِطريقك خلال جنازة أحدهم!

آه، طبعًا.. هكذا فكَّر "فيكتور"، وهو يبتسم لأول مرة منذ فترة.

عادت "نينا" من زيارة لأم "سيرجي"، ومعها إيصال طرد بريدي.

جلسوا لتناول العشاء. كان المساء في بدايته، والساعة لم تصل إلى السادسة بعد. قالت "نينا":

- غريب. يبدو وكأنه من "سيرجي"، ولكن الخط ليس خطه. وسيكون عليَّ أن أدفع ما يعادل 20 دولارًا. وكأنني سوف أتسلَّم طردًا من الخارج.

قال لها "فيكتور" في وجوم، وهو يقطع طعامه بسكين ثلمة:

- بالنسبة له نحن نُعتبر "في الخارج".

اشتكت "سونيا":

- لا أستطيع تقطيع طعامي.

فقال لها "فيكتور":

- سأقطعه لكِ.

بادرته "نينا":

- نحتاج إلى سن السكاكين.

- سأفعل.

سألته "نينا" لاحقًا، وهما يتناولان الشاي:

- هل ستأتي معي عندما أذهب إلى مكتب البريد؟ ربما يكون الطرد ثقيلًا.

- بالطبع.

نامت "سونيا" مجددًا ذلك المساء أمام التليفزيون. أنامها على الكنبة، ووضعا على جسدها بطانية، وخفضا صوت التليفزيون. شاهدا أحدث أفلام "ميل جبسون" حتى نهايته، قبل أن يذهبا إلى غرفة النوم.

في الصباح التالي، وبعد سداد ما يعادل 20 دولارًا، تسلَّما الطرد، صندوقًا ثقيلًا مكتوبًا عليه "قابل للكسر". صاحت "نينا"، وهي تنظر إلى العنوان على الصندوق:

- هذا ليس خطه!

حمل "فيكتور" الطرد، فسمع صوتًا كالرنين في داخله. ألقى نظرة أخرى على شريط التحذير، وهز رأسه في حيرة.

- يبدو أن ما فيه مكسور.

- دفعنا 20 دولارًا مقابل لا شيء إذًا. سنعود به إلى المنزل أولًا، ثم نلقي نظرة. لا معنى لأن نأخذه مباشرة إلى أمه الآن. سوف تحزن لو كان هذا الشيء مكسورًا.

عادا إلى الشقة، وعبَّرا عن إعجابهما بأجدد رسمة لـ"سونيا"، قبل أن يضعا الصندوق فوق ترابيزة المطبخ، وأخرجا منه مزهرية غريبة التصميم، خضراء دكناء ولها أربعة جوانب، وغطاء صغير، وملفوفة بشريط لاصق. تفحصها "فيكتور"، وخمن أنها من نحاس. قالت "نينا":

- إن بداخلها شيء.. وانظر! هناك رسالة.

كانت ورقة مطوية.

راقبها وهي تقرأ الرسالة، بوجه جامد، ويدين ترتجفان. لم تخبره بأي شيء، واكتفت بأن ناولته الورقة.

"عزيزتي والدة "سيرجي"،

طلبت مني الإدارة العسكرية في "كراسنوبريسنينسك" أن أكتب إليكِ هذه الرسالة. ربما لأنني بدوري من "دونتسك" بأوكرانيا، وكذلك لأنني كنت صديقًا لـ"سيرجي". كان شابًّا رائعًا. لا أدري ما علي قوله أكثر من ذلك. لقد تُوفِّيَ أثناء

تأدية الواجب. مات في موسكو، على الرغم من أنه لم يكن يرغب في الذهاب، إلا أن الأوامر هي الأوامر. وضعتنا الإدارة المالية أمام مشكلة: إما أن تدفع تكلفة الدفن ويُدفن هناك بعيدًا عن وطنه، أو أن يُحرق الجثمان ونتسلم رفاته. فضَّلنا الخيار الثاني، حتى يتسنى لرفاته أن تُوارى في تراب الوطن.
خالص عزائي.

"نيكولاي بروخورينكو"

الإدارة العسكرية – كراسنوبريسنينسك".

بعد أن قرأ الرسالة، عاد يتطلع إلى المزهرية التي تحوي الرفات. انزوت "نينا" في الردهة. سمعها تبكي.

حمل المزهرية بين يديه، وهزها. سمع صوت رمل غريبًا بداخلها. أعادها إلى سطح الترابيزة.

هذا هو كل ما تبقى من "سيرجي" إذًا.

سمع صوت خرير الماء في الحمام. وبعد لحظات، عادت إليه "نينا"، بوجه مبتل، وعينين حمراوين.

- لن أخبر أمه. سوف يقضي الخبر عليها. سندفنه بأنفسنا وحسب.

أومأ "فيكتور" برأسه موافقًا.. من دون كلام.

71

ومرَّت أيام.
شعر بوطأة الزمن ثقيلة على نفسه، وهو يمر كالسلحفاة، بينما يفضل البقاء في الشقة، على الرَّغم من الطقس الدافئ المشمس في الخارج. جرب مرتين أن يُخرِج الآلة الكاتبة من أسفل الترابيزة محاولًا الكتابة، ولكن يبدو أن أفكاره وخياله أصابهما بالشلل ما إن ترى الورقة البيضاء.

ربما كان عليه أن يقرأ - وخاصة صفحات الحوادث في الصحف - ليبحث عن مواد وأسماء.

تذكَّر كيف كان يستخرج موضوعات نصوصه الأولى، فتساءل عن مصيرهم.

كانت المزهرية المربعة ذات اللون الأخضر الداكن موضوعة عند الشباك، حيث استقرت بعد أن رفعها عن ترابيزة المطبخ تمهيدًا لتناول الغداء يوم أن أحضرا الطرد. تذكر "سيرجي" كلما نظر إليها، وأيام بداية العام الجديد في منزله، وإجازات نهاية الأسبوع التي أمضاها فوق الجليد بصحبته مع "ميشا". شعر وكأن مصباح بهجة انطفأ في حياته للأبد. تأمل الجرة الغريبة ذات اللون الأخضر الداكن، فلم يصدق أن يكون هذا هو مستقر رفات "سيرجي". بل أحسَّ أنه وافد صامت جديد أتاه من عالم آخر. هو لا يعترض، على الرغم من حيرته، فقد شعر أن تلك الطبقة الخضراء الداكنة تشعُّ حياة، وأن المزهرية نفسها سوف تتحرك، على الرغم من موت محتواها. بل هو لا يصدق أن لهذا الكيان

أمامه أي علاقة بـ"سيرجي"، أو بحياته، أو بموته. كلا. إن كان "سيرجي" قد رحل، فهو قد رحل وحسب. سواء كان في داخل هذه المزهرية أم في أي مكان آخر.

عادت "نينا" و"سونيا" قرب المساء. قالت "سونيا"، وهي تخلع حذاءها و"فيكتور" يطل عليها عند الردهة:

- التقينا برجل سألنا عنك.

- أي رجل؟

- شاب بدين.

نظر في دهشة إلى "نينا"، فقالت:

- صديق لك، وسأل عنك، وعن حياتك الآن.

أردفت "سونيا":

- اشْتَرَى لنا آيس كريم.

تناولوا على العشاء دجاج روستو، طهته "نينا". أخرجت له من حقيبتها قصاصة إعلانية، وهما يتناولان الشاي:

- انظر. يبدو لي مثاليًّا، "كونشا زاسبا"، مساحة معقولة، وليس غالي الثمن.

قرأ:

"منزل ريفي من طابقين.. أربع غرف.. على قيراط من الأرض.. حديقة جديدة.. 12 ألف دولارًا".

- بالفعل. علينا أن نتصل.

في تلك اللحظة، رن جرس التليفون، وكان المتصل هو "إيليا سيميونوفيتش". عندئذ، نسي أمر المنزل. قال له البيطري:

- صار يتحرك، ويمشي في أرجاء العنبر.

- هل يمكن أن أتسلمه؟

- أظنُّ أن علينا أن نبقيه تحت الملاحظة للأيام العشرة المقبلة.

- هل سيكون يوم 7 أو 8 مايو مناسبًا لاستلامه؟

- أظنُّ ذلك.

تنفس "فيكتور" الصعداء وهو يغلق الخط. ورمق البلكون، فوجد أن الجو لم يظلم بعد. أخبرها وهو يرتدي حذاءه الرياضي قبل أن يغادر الشقة:

- سوف أخرج لأتمشَّى عشر دقائق.

72

يوم النصر.
اقتربت ذكراه، فلم يعد متبقيًا سوى يومين.

كان قد اتصل بصاحب إعلان المنزل الريفي في "كونشا زاسبا"، واتفق على أن يتفقد المنزل الأحد القادم. وكانت "نينا" متيقنة من أنه سينال إعجابهما.

ففي طقس مثل هذا، سيكون أي منزل ريفي قطعة من الجنة، هكذا فكَّر وهو واقف في البلكون يستمتع بفنجان القهوة.

تزايدت قوة أشعة الشمس بحلول الظهر. كان هناك نسيم خفيف، لكنه دافئ، وكأن أحدهم يوزع الهواء من مجفف شعر عملاق.

سوف يعاود الاتصال برئيس التحرير بعد التاسع من مايو ويحصل منه على عمل، وإلا قتله الملل.. أو ما المانع في إجازة أسبوعين يقضيها ثلاثتهم في جزيرة "كريميا". ولكن، ماذا عن المنزل الريفي؟ عليهما أن يتفقداه أولًا. ولو تم الشراء، فهل ستكون هناك حاجة إلى "كريميا"؟

عادت "نينا" و"سونيا" عند الخامسة. وسألهما:

- أين كنتما؟

- كنا في "الهايدروبارك". ركبنا مركبًا.

وعقَّبت "سونيا":

- الناس يسبحون هناك.

- التقينا بصديقك مرة أخرى. شخص غريب بعض الشيء.

- أي صديق؟

- ذلك الذي اشترى لنا الآيس كريم وسأل عنك.

- هل يمكنكِ وصف شكله؟

- بدين. في الثلاثينيات. لا شيء مميز. جلس إلى ترابيزتنا في الكافيه خارج محطة المترو.

وقالت "سونيا":

- سألني ما إذا كنت تحبني، فقلت له ليس كثيرًا.

أصاب "فيكتور" قلق يتنامى. لا يعرف أي شخص بهذه المواصفات، حتى بين معارفه القدامى.

- هل سأل عن شيء آخر؟

نظرت "نينا" إلى الأرض، وهي تقول:

- أوه.. سأل عن عملك. وعما إذا كنت تحبه أم لا.. وعمَّا إذا كنت لا تزال تكتب القصص.. قال لي إنك كنت تحب ذلك. وطلب أن أريه شيئًا مما تكتب.. دون أن تعرف أنت.. يقول إن الكُتَّاب لا يحبون أن يقرأ أحد كتاباتهم ما دامت لم تُنشر بعد.

- وماذا.. قلتِ له؟

بادرت "سونيا":

- قالت إنها ستلقي نظرة.

- لم أقل ذلك. أخبرني أن "كييف" صغيرة، وأننا سنلتقي مجددًا. ولم أقل له أي شيء عن نصوصك.

تساءل "فيكتور" عمَّن يكون. وعن سبب كل هذه الأسئلة عنه؟

عندما تعب من الحيرة، ذهب إلى البلكون، واستند إلى سورها، تأمل الساحة أمامه. مساحة مستطيلة من الأسفلت بين العمائر، تنتشر فيها حبال الغسيل، معلقة بين أعمدتها الخرسانية. والأطفال يلعبون في الجوار. وإلى اليسار حاوية قمامة مطلية باللون الأبيض، تستقر إلى جوارها بعض البراميل المعدنية القديمة. ومن وراء كل ذلك، بعيدة عن عينيه من مكانه في البلكون، مساحة الأرض الفارغة ذات أكشاك الحراسة الثلاثة، حيث كان يتمشى في الشتاء بصحبة "ميشا" و"سونيا".

منظر آخر في الربيع غير ذلك المنظر المألوف.

عادت به الأفكار إلى ذلك البدين المتطفل.

ربما هو يراقبهما. هكذا فكر، وهو يمعن النظر في الساحة من جديد. وإلا من أين له أن يعرف أنهما يعيشان معه؟

رأى عجوزين يجلسان قرب المدخل، وهناك آخرون يجلسون عند مدخل العمارة المجاورة. وشباب يمشون إلى جوار العمارة المقابلة، وهم يتصايحون.

لا شيء.. ولا أحد يثير الشك.

اطمأنَّ بعض الشيء، فدخل من البلكون.

73

غلبه النوم في تلك الليلة.
سمع صوت أنفاس "نينا" الهادئة. شعر بدفء جسدها إلى جواره. فكَّر في ذلك المتطفل على حياته، من أين أتى؟ وعن ماذا يبحث؟ وذلك السؤال الغريب عن "سونيا".

صاحب تلك الأفكار إحساس متنامٍ بالتوجُّس، باعَدَ بينه وبين راحة البال والنوم.

إنه يتعقبهما. ولا بد أنه يتعقبه هو أيضًا. لذلك عليه أن يقلل من مرات خروجه.

حاذَرَ أن يوقظ "نينا" وهو ينهض من السرير، ويرتدي الروب، قبل أن يخرج إلى البلكون.

تبعث السماء المرصعة بالنجوم في النفس شعورًا بالانتعاش. لكن الصمت العميق في أرجاء المدينة الخاملة كان كئيبًا. كما أن شبابيك العمارة المقابلة مظلمة جميعها. والساحة في الأسفل هادئة خاوية.

ولكن، إن كان هناك من يتعقبه حقًّا، فسوف يكون داخل سيارة، متوقفة من دون أضواء عند مدخل العمارة المجاورة. هكذا، مال بجسده فوق سور البلكون، وأمعن النظر، وشاهد سيارتين متوقفتين أمام المدخل، فابتسم وهو ينتبه إلى أنه على مشارف الإصابة بالبارانويا.

عاد إلى غرفة النوم، لكنه لم ينم إلا الفجر. وفي الصباح التالي، وبعد أن أيقظته القهوة القوية وأعادت إليه الحالة العقلية التي كان عليها، أخذ حمامًا وحلق ذقنه. وبعد الإفطار، تجهزت "نينا" و"سونيا" للخروج. سأل "نينا":

- إلى أين اليوم؟

- "الهيدروبارك" مرة أخرى. صارت الملاهي تعمل.

ما إن غادرتا الشقة، حتى ذهب ليتفقد الساحة أمام العمارة، من وراء شباك المطبخ المغلق، ثم ألقى نظرة إلى أسفل عند المدخل. وعندما ظهرت "نينا" و"سونيا"، عاد لينظر في أرجاء الساحة مجددًا، ووجد رجلًا قصيرًا متين الجسد نهض عن كرسي خارج العمارة المقابلة، ومشى وراءهما ببطء في اتجاه محطة الأتوبيس. وبعد أن مشى قرابة 20 مترًا، توقف ونظر خلفه. اقتربت منه سيارة "موسكفيتش". ركب بجوار السائق، الذي انطلق بالسيارة.

اندهش مما رآه، وسارع بارتداء حذاءه وغادر الشقة.

كانت محطة الأتوبيس فارغة، بعد أن غادر الأتوبيس. هكذا ركب تاكسي حتى أقرب محطة مترو.

تزايدت حيرته كلما فكر في ذلك الغريب الذي يتعقبه. وذلك الشاب الذي يرتدي قميص كرة قدم واسعًا والسيارة الصغيرة. لا يبدو أن لهذا علاقة بتوجسه وإحساسه بالخطر عندما تحدثت معه "نينا" مرة ثانية عن ذلك الشاب البدين المتطفل.

ولكن، وعلى الرغم من غرابة ذلك، هناك بالتأكيد من يتعقب "نينا" تمهيدًا لأن يتظاهر بأنه التقاها مصادفة في المدينة، وليطرح عليها المزيد من الأسئلة عنه. هناك من يبحث عنه، وهو لن يرتاح إلا حينما يتأكد من أن ليس هناك أي دور لأولئك الذين يرتدون الملابس الرياضية ويتحركون في سيارات صغيرة حديثة. لو صَحَّ ذلك، فلن يكون هناك أي سبب يستدعي خوفه. ولكن اللغز يبقى، ولا بد من أن يسبر أغواره.

خطر له، وهو في المترو، أنه مستمتع بهذه اللعبة، أو على وجه التحديد، تلك الفرصة لكي تتضح جميع الأمور أمام عينيه. عندئذ، عادت له ثقته، وكأنه تذكر أنه لا يزال تحت الحماية، حتى ولو لم يكن يفهم سبب تلك الحماية. وما دام

"ميشا" الإنسان و"سيرجي تشيكالين" قد أكدا له هذه الحقيقة، فلا بد أنه محمي من أمر ما.

هدأ عقله وهو يغادر محطة المترو. توقَّف أمام محل يعرض نظارات شمسية. تجلس إلى جوار المحل - على كرسي قابل للطي - فتاة في العشرين، ترتدي نظارة شمسية.

بادَرَ بتجربة نظارة داكنة ذات تصميم قديم، ثم جرب بعض النظارات التايوانية. وعندما اختار النظارة التي أعجبته، دفع ثمنها وارتداها.

شمَّ رائحة كباب. كانت ساحة السوق في "هيدروبارك" مزدحمة، على الرغم من أنه يوم عمل. كانت أغلب ترابيزات الرصيف مشغولة بالرواد. وعندما عثر على ترابيزة فارغة، جلس وطلب قهوة وكونياك. نظر حوله وهو لا يزال يرتدي نظارة الشمس.

لم يرَ "نينا" و"سونيا"، لكنه لمح وجهًا مألوفًا، لرجل في الأربعين، وسبق أن رآه في عدة جنائز كبيرة. كان يجلس إلى ترابيزة خارج كافيه مجاور مع سيدة طويلة رشيقة في رداء أزرق قصير يميزه حزام عند الخصر، ويتحدثان في هدوء. راقبهما "فيكتور" بضع دقائق، ثم تطلع حوله مجددًا.

أحضرت الجرسونة قهوته ومعها الكونياك، وطلبت منه الثمن. وعندما ذهبت، شرب الكونياك والقهوة، ونسي أمر "نينا" و"سونيا" لقليل من الوقت.

عليه أن يقوم بالترتيب لرحلة "ميشا" في غضون أربعة أيام. وانشغل بالتساؤل حول الطريقة التي أحضروا بها القلب الذي زرعوه في صدر البِطريق.

جلس نصف ساعة، قبل أن ينهض ويتمشى حتى مرسى القوارب، ثم عاد إلى المترو واجتاز المحطة إلى الساحة الثانية من "الهيدروبارك"، حيث مجموعة أخرى من الكافيهات الصيفية. لكنها مشغولة بعدد أقل من الرواد. مشى حتى الجسر فوق جدول النهر، والذي لا شيء من خلفه سوى الشواطئ والملاعب الرياضية، ثم عاد. وجلس في كافيه على مسافة من محطة المترو، وطلب بيبسي، وانشغل بالفرجة على ما هو حوله.

فكَّر في أنهما في مكان ما هنا. بحث بين الوجوه، وتأمل أشكال وهيئات جميع رواد المكان.

لفتت انتباهه فتاة صغيرة تلهو فوق العشب إلى جوار ممشى تنتشر على جانبيه مقاعد خشبية على مسافات محددة من بعضها البعض، على امتداد مئة وخمسين مترًا في الغالب. يجلس شخصان على المقعد الأقرب إليها، ولكنه لم يرَ سوى مؤخرة رأسيهما.

ترك البيبسي، ومشى على الشريط العشبي بين الممشيين. وصار متيقنًا مما يراه وهو على بعد عشرين أو ثلاثين مترًا من الفتاة الصغيرة، إنها "سونيا"، وهي إما تبحث عن شيء ما في العشب، أو تتأمله.

توقف، وعاد إلى الكافيه عبر ممشى يقود إلى دورات المياه، حيث يمكنه من هناك أن يتعرَّف هُويَّة الجالسين على المقعد.

توقف خارج دورات المياه، ونظر وهو يخلع نظارته الشمسية حتى يرى بوضوح.

كانت "نينا" تجلس في هدوء، بينما تدردش مع الشاب الذي يرتدي قميص كرة القدم الواسع. كان يتحدث، بينما تسمعه، وهي تومئ برأسها بين حين وآخر.

حتى لا تنتبه الأنظار إليه، دخل دورة المياه، وعندما خرج، عاد مباشرة إلى الكافيه. استرق نظرات في اتجاههما وهو في طريقه. هي الآن من تتحدث، بينما يستمع الشاب.

شعر فجأة أنه أحمق. وأن تسلسل الأحداث منذ البداية مبتذل سخيف. فمن الواضح أن الشاب معجب بها، ويحاول التقرب إليها. ولكن لأنه يراها دومًا بصحبة بنت صغيرة، فقد ظن أنها متزوجة، وها هو يحاول مصارحتها بكل شيء ويجرب حظه معها. وبالتالي، فإنه وجد أن التظاهر بأنه صديق قديم لزوجها تكتيكًا ناجحًا.

هكذا، أسرع نحو محطة المترو غير مبالٍ بكل شيء. حظًّا سعيدًا، أيها البدين!

عاد إلى الشقة قبل عودة "نينا" و"سونيا" بوقت كافٍ. سألها:

- نزهة جيدة؟

قالت "نينا"، وهي تضع البراد على النار:

- جميلة! الجو جميل! وأنت تفضل البقاء في الشقة!

- لا تنسي أننا سنذهب بعد غد إلى الريف. وهناك سأحصل على كم كافٍ من الهواء الطلق.

- بعد غد؟

- لنرى المنزل.

- بالطبع! لقد نسيت. شاي؟

- بالتأكيد. هل التقيتِ بصديق قديم لي اليوم أيضًا؟

أجابته بصوت عادي:

- الرجل نفسه ثانيةً. اسمه "كوليا". ظل يتحدث عن نفسه، كم كان يحلم بأن يكون كاتبًا منذ أيام الطفولة، ولكنه انخرط في الصحافة.. وكيف أن تجربته مع الزواج كانت فاشلة.

- ولم يسأل عني؟

- كلا، ولكنه كان مُصِرًّا على أن أعطيه صورة لك. حتى يتعرف على هيئتك بعد كل هذه السنين. ووعد بأن يهدينا آيس كريم إيطاليًّا في المقابل.

تمتم بصوت خافت، بالكاد سمعته "نينا":

- هل هو مجنون؟ ولماذا يحتاج إلى صورة؟

هزت كتفيها من دون تعليق. سألها وعيناه على عينيها:

- هل رتبتِ للقائه؟

- كلا، ولكنني سبق وقلت له إنني ربما أذهب إلى "هيدروبارك" في الغد.

- أوكيه.. سأعطيكِ صورة.

نظرت "نينا" إليه في دهشة. وسألته بنبرة امرأة أهينت للتو:

- ما بك؟ هل يفترض بي أن أتجنب التحدث مع أصدقائك القدامى؟

خرج من المطبخ دون أن يرد عليها، ومَرَّ على "سونيا" وهي تلهو بمنزل دميتها باربي في غرفة المعيشة. أغلق باب غرفة النوم خلفه، وأخرج ألبوم صور قديم من الكومودينو، وألقى بحفنة من الصور على الأرض.

أخذ يفرزها، ونحَّى جانبًا صورة له مع "نيكا"، صديقته القديمة. أعاد بقية الصور إلى الألبوم، ثم قص "نيكا" من الصورة التي تجمعها به. وقف أمام المرآة، وقارن نفسه بالصورة. شيء ما تغير فيه، ولكنه لم يتمكن من التعرف إلى ذلك الشيء. عمر هذه الصورة أربعة أعوام، التقطها لهما مصور متجول في شارع "كريشاتيك".

- تفضلي.

ناولها الصورة الناقصة، فنظرت إليه في تساؤل. فأردف، وهو يحاول أن يضفي بعض الود على نبرة صوته:

- خذيها. في حال سألكِ المرة القادمة. وأبلغيه تحياتي.

أمعنت "نينا" النظر في الصورة، ثم ذهبت إلى الردهة، ووضعت الصورة في حقيبة يدها المعلقة على الشماعة هناك.

74

حقيبة التسوق السوداء.
أنزلها "فيكتور" من فوق الدولاب في الصباح التالي، ما إن تأكد من خروج "نينا" و"سونيا". أخرج منها المسدس الآلي الذي لا يزال داخل علبته. أحسَّ بملمس السلاح المعدني الثقيل البارد. أحكم قبضته على مقبض المسدس، وصوَّب نحو مرآة الدولاب.

تذكَّر فجأة كيف كان "ميشا" يقف أحيانًا أمام هذه المرآة الكبيرة؛ ليحدق في صورته من دون حراك. لماذا؟ أذلك بسبب الوحدة؟ استحالة أن يجد لنفسه رفيقًا من جنسه؟

خفض ذراعه، وهو يشعر بإحساس يضايقه في راحة يده، وكأن هذا هو نتاج التفاعل الكيميائي بين عنصرين غير متوافقين. ألقى المسدس إلى السجادة على الأرض، وتفحَّص يده. وجد راحة يده بيضاء إلى حد مدهش، وكأن الدم هرب منها بسبب برودة وثقل المسدس.

تنهد، ثم التقط المسدس من جديد، ودسه في جيب الجينز. ألقى نظرة في المرآة على الانتفاخ الذي صار في أسفل ظهره بسبب المسدس.

فتح الدولاب، ووجد سويت شيرت قديمًا من الفرو وله غطاء رأس، فارتداه قبل أن ينظر لنفسه ثانيةً في المرآة. لا بأس! عدا أن أشعة الشمس الساقطة

على السجادة ذكّرته أن هذا الرداء غير مناسب لذلك الدفء الصيفي. ولكنه تجاهل ذلك، وغادر الشقة.

وجد "الهيدروبارك" مزدحمة مجددًا. وتذكَّر، وهو يجلس إلى ترابيزة في كافيه على الرصيف، أن اليوم يوم سبت.

تلفت حوله، واستراح عندما وجد أن هناك من يرتدي ملابس ثقيلة مثله. هل يعقل أن يكونوا جميعًا مثله؟! يرتدون سويت شيرت ثقيل لإخفاء مسدسات؟! رأى رجلًا يرتدي ما يُشبِه معطفًا من النايلون مُبطَّنًا بالفرو. صحيح أنه يبدو أكبر سنًّا من "فيكتور"، ولذلك ربما يكون للسن عُذره. طلب من الجرسونة التي اقتربت ووقفت إلى جواره في أدب:

- قهوة وكونياك.

وفجأة، غطت سحابة الساحة الصغيرة الممتلئة بالأكشاك والترابيزات خارج محطة المترو. وفرح "فيكتور" لذلك. ها هو الطقس يتواءم مع ما يرتديه.

انشغل في التطلع حوله، في انتظار القهوة والكونياك. لا أثر لـ"نينا" و"سونيا"، ولكن القلق لم يساوره، فهو يعرف أنهما في مكان ما.

عقب ربع ساعة، تمشَّى بين ملاعب التنس، حتى وصل إلى أطلال مطعم "أوخوتنيك"، ثم عاد. وبعد ذلك تمشى أسفل الجسر إلى الجانب الآخر من "الهيدروبارك"، ومر على المقاعد التي كانت "نينا" و"كوليا" المتطفل يجلسان إلى واحدة منها بالأمس. ما الذي يقلقه؟ سرعان ما سيعرف سبب اهتمام "كوليا" به وبصورته.

ومع انتهاء الممشى، عاد "فيكتور" واجتاز الجسر قاصدًا الضفة الأخرى من القناة. ولكنه توقَّف في منتصف الجسر، وألقى نظرة من عند سوره. وجد عند ضفة القناة إلى يمينه مطعم "ملين". رواده يجلسون إلى ترابيزات في بلكونه الواسع، ولكنه لم يجدهما بينهم. ولكنه رأى سيارة "لينكولن" فضية متوقفة قرب المطعم. تشبه تمامًا سيارة "ميشا" الإنسان.

عاودت الشمس ظهورها بعد احتجاب مؤقت، وعادت الألوان معها إلى المشهد. تراقصت صفحة المياه، وترقرقت متوهجة مثل حبات الزمرد. وجد ملمس السور الخرساني الأبيض، الذي صار أصفر الآن، خشنًا ودافئًا، وكأنه بداخله طاقة حرارية.

عاد إلى منطقة المقاهي، ولكنه توقف في طريقه عندما لمح "نينا" و"سونيا".

كانتا تجلسان وحدهما. أمام "سونيا" كوب آيس كريم طويل يحتوي على ثلاثة ألوان. أما "نينا" فكانت تشرب القهوة.

تساءل عن وجود الشاب البدين المتطفل.

اختار ترابيزة على مسافة منهما، وطلب قهوة.

كانتا تدردشان، وبين حين وآخر تلتفت "نينا" لتنظر في اتجاه مخرج محطة المترو.

مرت ربع ساعة. وانتهى "فيكتور" من قهوته، وبقي في مكانه، مستغرقًا في ذكريات خطرت له على غير موعد.

عندما عاد ينظر تجاههما ثانيةً، وجدهم ثلاثة. لقد حضر البدين، وكانت الجرسونة تأتيه بالقهوة.

راقبهم "فيكتور". كانت "سونيا" صامتة، بينما تتحدث "نينا" إلى البدين. كان يبتسم ابتسامة عريضة، حتى صار وجهه أكثر استدارة. ومن جيب السويت شيرت الصيفي، أخرج قطعة شوكولاتة، وقدمها إلى "نينا". فتحت غلافها. رأى "فيكتور" أن القطعة كانت قد ساحت، والتصقت بغلافها الداخلي الفضي. لعقت "نينا" بعض الشوكولاتة، قبل أن تناول البدين الغلاف الفضي. أشاح "فيكتور" بوجهه مشمئزًا من المنظر، وهو يشعر بطعنة ألم في عنقه التي تصلبت على الوضع نفسه وقتًا طويلًا. دلكها قليلًا، قبل أن يعود إلى المراقبة.

يبدو أن البدين يدعوهما للذهاب إلى مكان ما. فقد نهض وكان يقف عند الترابيزة البلاستيكية، وهو يتحدث مع إيماءات لطيفة. نهضت "نينا" و"سونيا" بدورهما، وسار الثلاثة في اتجاه "فيكتور".

توترت أعصابه، وهو لا يدري ماذا يفعل، بينما بقيَ في مكانه إلى الترابيزة، وظهره إلى الرصيف الذي يوشكون على المرور فوقه. أزاح كرسيه إلى الوراء فجأة، وانحنى وهو يتظاهر بإحكام رباط حذائه. سمع صوته يأتيه من خلفه:

- هل تحبين السيرك؟

أجابته "سونيا"، بينما بقي "فيكتور" على وضعه:

- بالطبع.

وعلقت "نينا" في خفوت:

- ذهبنا إلى هناك مرتين. في الأولى شاهدنا النمور، وفي الثانية...

تمهل نصف دقيقة، قبل أن ينظر في الاتجاه الذي ذهبوا إليه، ثم اعتدل جالسًا. كانوا متجهين إلى الجسر فوق القناة، ولكنهم انعطفوا يمينًا قبله مباشرة. أسرع "فيكتور" الخطى وراءهم، ووصل إلى الجسر لحظة أن كانوا يدخلون مطعم "ملين".

مشي فوق الجسر، وهذه المرة توقف لينظر في الاتجاه المقابل نحو "فلاديمير هيل". وبعد عشر دقائق، استدار ينظر تجاه المطعم، ووجدهم جالسين في بلكونه، والبدين يتحدث إلى الجرسون، ثم إلى "سونيا" و"نينا".

لم يَرَها وهي تناوله الصورة، ولكن زجاجة الشامبانيا التي وُضعت فوق الترابيزة أغاظته أكثر من مشاركتها له الشوكولاتة الذائبة. ولم يكن لغضبه أن يشتد أكثر مما هو عليه، حتى ولو كان رآها وهي تعطي البدين صورته. فهذا أمر كان يتوقعه، وليس مثل الشامبانيا والشوكولاتة.

استمرت الشمس قوية، فشعر "فيكتور" بالحرارة وهو يرتدي السويت شيرت الثقيل، مما أغاظه أكثر. كان يستند إلى سور الجسر، يراقب "سونيا" مجددًا. كانت تأكل الآيس كريم، بينما تقوم "نينا" والبدين بالأمر نفسه، بين رشفة شامبانيا وأخرى.

وعندما خرجوا بعد ساعة، تعقبهم "فيكتور"، على مسافة مناسبة. توقفوا عند مدخل محطة المترو أسفل الجسر، وتوقف هو بدوره.

كان البدين يودعهما، وطبع قبلة على خد "نينا". شاهد "فيكتور" ما يجري واعتبره مشهدًا ساخرًا مبتذلًا، إلى أن توارى البدين داخل محطة المترو، وعادت "نينا" و"سونيا" إلى الناحية الأخرى من "الهيدروبارك".

أسرع "فيكتور" الخطى وراء البدين، ووجده على رصيف المحطة، فبادر بالاختباء وراء أحد الأعمدة. ركبا القطار نفسه، ودخلا العربة نفسها، وصار بمقدوره الآن أن يتفحص البدين عن قُربٍ، فهو يقف على مقربة منه منشغلًا بقراءة واحد من عشرات الإعلانات الملتصقة بالشبابيك.

هذه هي أول مرة يراه فيها عن قرب. يرتدي بنطلون قماش رمادي اللون، وسويت شيرت صيفيًّا أبيض فوق قميص كرة قدم برتقالي أدكن.

لا يعكس مظهره أي شيء عن شخصيته، ممكن أن يكون أي شخص أو هو بعينه الشخص المنشود، فلا توجد أي سمة يمكنه أن يستشف منها معلومات عن شخصه أو عمله.

نزل الرجل في المحطة الرئيسية. وكذلك فعل "فيكتور"، الذي وجد نفسه وراء البدين، فتراجع خطوات حتى وصل الرجل إلى السُّلم المتحرك، وبعد أن صار بينهما بعض الركاب، صعد "فيكتور" السُّلم، وعيناه على الرجل.

عبرا صالة المحطة، ومنها عبر نفق إلى شارع "أوريتسكي". ظل "فيكتور" إلى جوار البدين الذي وقف ينتظر الترام، وركبه لمحطتين، قبل أن يغادره، ومن ورائه "فيكتور".

لم ينظر البدين ناحيته إلا مرة واحدة فحسب. فإما أنه لم يتعرف إلى "فيكتور"، وإما أنه لم ينتبه له من الأصل.

كان الشارع خاويًا تقريبًا. تأخَّر "فيكتور" قليلًا عند محطة الترام. راقب البدين وهو يعبر ممشًى إلى جوار جراج نحو مبنى متعدد الطوابق بعيد عن الطريق.

تعقَّبه "فيكتور" على مهل عبر الممشى نفسه، ورأى البدين متجهًا إلى مدخل المبنى، فتوقف وانتظر حتى دخل.

وفي لمح البصر، كان في المدخل، يقف عند الباب المفتوح، يسترق السمع، ويراقب بطرف عينه السيارة "الموسكفيتش" الزرقاء التي رآها من قبل، والتي كانت متوقفة بالخارج.

وجد مدخل المبنى فارغًا وساكنًا ما عدا صوت حركة الأسانسير. كان باب أسانسير الخدمات مفتوحًا، ولكن الأسانسير العادي يصعد في طريقه إلى الأعلى بإيقاع رتيب. وفي النهاية، توقف عند الطابق الثالث عشر. هكذا ركب "فيكتور" أسانسير الخدمات، وضغط زر الطابق الثالث عشر.

كان أمامه، وهو يصعد، جدار ممتلئ برسوم الجرافيتي والكثير من الكراتين الفارغة في كل طابق. وعندما خرج في الطابق الثالث عشر، وجد نفسه في ممر طويل مظلم رائحته أشبه برائحة الكلاب.

مَرَّ على الأبواب وهو يرهف السمع. سمع من وراء أحد الأبواب نباح مروع لكلب مسعور. وكان هناك شباك عند نهاية الممر الطويل، ولا يكاد ينير الضوء المتسلل منها الطريق إلى المخرج على اليسار.

وعند الطرف المظلم من الممر، توقف وأرهف السمع من جديد. أمام أحد الأبواب دراجة أطفال. وأمام الباب المقابل إطار سيارة مسلسل ومربوط إلى ماسورة مياه أو غاز رئيسية. سار ووقف بالقرب من الباب. سمع أصواتًا خافتة، وصوت باب ينفتح، ومن بعده صوت السيفون.

اعتادت عيناه العتمة، ورأى أن الباب مُبطَّن بطبقة بُنيَّة من الجلد، وإلى جواره زر جرس الباب الأسود. مسح قدميه في الممسحة أمام الباب، ولكنه تردَّد، وتساءل عما إذا كان الأمر يستحق المجازفة للتعرف إلى سبب اهتمام البدين به. وماذا لو رفض أن يتحدث معه؟

تحسس مسدسه، الذي يشعر به ثقيلًا عند فخذه، وتأكد أنه لا يزال في مكانه. فكَّر أن من حق الإنسان أن يشبع فضوله، ولذلك حان دوره ليشبع ذلك الفضول.

وبحسم، ضغط الجرس، ووجد أن نغمته على إيقاع أغنية ليالي موسكو الشهيرة. سمع صوت خطوات تقترب. تساءل رجل يتنفس بصعوبة:

- مَن بالخارج؟

- جار لك.

انفتح القفل، ثم الباب، بعض الشيء، وظهر أمامه رجل واهن في الخمسين من عمره، يرتدي بنطلون بيجاما وفانلة حمالات.

وقف "فيكتور" للحظات يحدق في وجه الرجل المستدير غير الحليق، الذي سأله:

- ماذا تريد؟

تحرك "فيكتور"، ودفع الرجل جانبًا، فوجد نفسه في الردهة. نظر في أرجاء المكان، وهو يتجاهل رَبَّ المنزل المندهش، وهناك، لمح البدين وهو يطل برأسه من باب الحمام المفتوح. كرر الرجل سؤاله:

- ماذا تريد؟

- أريده هو!

- "كوليا"؟

كانت دهشة "كوليا" حقيقية بالفعل. وسأله ببطء:

- مَنْ أنت؟

اندهش "فيكتور" بدوره:

- يا له مِن سؤال!

أشار إلى البدين أن يتقدمه إلى المطبخ. أطاعه الرجل، وتبعه "فيكتور". سأله الرجل وظهره للشباك:

- ما الذي تريده؟

- أريد أن أعرف سبب اهتمامك بصورتي وحياتي ككل.

عندئذ بدا على وجه البدين أنه قد فهم كل شيء. حدق إلى الرجل الذي اقتحم عليه الشقة، ويده تمتد ببطء إلى الجيب الداخلي للسويت شيرت الصيفي الأبيض، وأخرج الصورة، ونظر فيها، قبل أن ينظر إلى "فيكتور" ثانيةً.

تجرأ "فيكتور" حينما لاحظ خيبة أمله الواضحة، وقال للرجل بنبرة تهديد:

- تكلم!

ولكن البدين لم يتكلم. وعندئذ، فتح "فيكتور" السويت شيرت، وأخرج المسدس، بطريقةٍ جعلته لا يحتاج إلى أي تهديد لفظي آخر. بلَّل البدين شفتيه بلسانه. قال بصوت مرتجف:

- لا يمكنني أن أخبرك.

ومع صوت خطوات تقترب في تردد، التفت "فيكتور"، ووجد أمامه وجهًا خائفًا آخر، فصوَّب مسدسه نحوه، وهو يصيح في الرجل الآخر:

- ابتعد عن هنا.

تراجَعَ صاحب بنطلون البيجاما إلى الردهة في سرعة. وعاد "فيكتور" ليحدج البدين بنظراته، وقد أوشك صبره على أن ينفد:

- والآن؟

- وعدوني بعمل.. وكانت هذه هي مهمتي الأولى.

- عمل من أي نوع؟

- مع جريدة.. أكتب موضوعات عن أشخاص .. ولكنني عملت في قسم مختلف.. ولكن أجره أفضل.

موضوعات عن أشخاص؟ ما الذي كان يكتبه طوال كل تلك الشهور؟ هل كان البدين بديله؟

شعر بغصة مع هذا الحدس الذي خطر لعقله، وأطلَّ الخوف المكبوت برأسه، ليسعَ جاهدًا للهيمنة على أفكاره ومشاعره. سأله "فيكتور" بصوت بارد:

- وما حاجتك إلى الصورة؟

- لم تكن ضرورية. الأمر هو أنني بعد أن عرفت الكثير عنك، رغبت في أن أتعرف إلى صورتك.

- صورتي.. وما علاقة صورتي بك؟ عندما كنت أكتب تلك الموضوعات، لم أكن أهتم بوجوه من أكتب عنهم. أريد أن أرى ما كتبت!

لكن البدين لم يتحرك.

- لا أستطيع. فلو أنهم عرفوا..

- لن يعرفوا!

تقدَّم البدين عبر الردهة إلى غرفة نوم بها مكتب أمام شباك، وعلى سطحه آلة كاتبة. على يمينها ويسارها رزم منظمة من الورق – الغرفة نفسها في غاية الترتيب والنظام، لكن هواءها خانق، وكأنما لم يدخلها هواء نظيف منذ أشهر.

اتَّجه البدين إلى المكتب، وتبعه "فيكتور". كانت يداه ترتجفان. واستدار ليواجه زائره. استحثه "فيكتور" قائلًا:

- أرني!

تنهد البدين بعمق، وهو يخرج ورقة من ملف أخضر. ناول "فيكتور" إياها، الذي قرأها في لهفة:

"إن حياة "فيكتور زولوتاريوف" القصيرة والحافلة تصلح لأن يكتب عنها المرء ثلاثية أدبية، وأفترض أن هذا سيتحقق عاجلًا أم آجلًا. ولكنني للأسف أكتب الآن نعيه، ولعله يكون تمهيدًا لتلك الرواية الأدبية.

لو كان قد تمسك بالكتابة الأدبية أو الصحفية، لكان قد عُدَّ كاتبًا فاشلًا. ومع وضوح افتقاره إلى الموهبة الأدبية الفذة، فقد أبدى موهبة طاغية في اختلاق الموضوعات ورسم الحبكة ببراعة. ولم يكن طريقه مثل كبار الكتاب غير الأفذاذ، أي حياة سياسية هادئة تنتهي بهم إلى مقعد في البرلمان. وعندما أظهر اهتمامًا حقيقيًّا بالسياسة، تبين له أنه يمتلك مواهب من نوع خاص.

يبقى الشطر الأكبر من حياته لغزًا. بما في ذلك لحظة ارتباطه بجماعة أمن الدولة (أ). ولكن في أعقاب ذلك الارتباط، صار "فيكتور" مهووسًا بفكرة ضرورة تطهير المجتمع. وبوسعنا بالفعل أن نضع أيدينا على نتائج ذلك النشاط الذي امتزجت فيه السياسة بالأدب: 118 حالة وفاة في ظروف غامضة، لأشخاص كانوا جميعًا من كبار المجتمع؛ نواب برلمان... وزراء... مدراء مصانع... وهم أشخاص كانوا موضع شبهات، ويبدو أن الجماعة (أ) قد فتحت ملفاتهم. ومع استحالة تقديم هؤلاء إلى العدالة - إما بسبب حصانتهم أو لفساد المنظومة القضائية نفسها - كان من الطبيعي أن يعمد وكلاء الجماعة إلى الاستعانة بخدمات "فيكتور زولوتاريوف". وهكذا أضحت نصوص النعي التي يكتبها عن أشخاص لا يزالون على قيد الحياة، وبطريقة مذهلة، صك وفاة هؤلاء. فلكل حالة وفاة سببها الوجيه. وكان تعيينه، من قبل المحرر الأدبي، ليكون مراسلًا مستقلًا للصحيفة هو الغطاء المثالي.

لا يزال هناك الكثير مما لم يكشف عنه الحجاب بعد، ولكن بوسعنا القول إنه لم يكتفِ بأن جعل من التحديد المسبق للأشخاص الذين ستقبض أرواحهم أساسًا للعدالة الاجتماعية، بل كان كذلك يحدد تاريخ الوفاة وطريقتها، والتي كانت في بعض الأحيان بالغة الوحشية. ولقد رجح الفحص الفني لمقذوف المسدس من طراز "ستيتشكين" الذي انتحر به أنه قد شارك بصفته الشخصية في عمليات التطهير تلك، أو بالتأكيد في واحدة منها، وهي تلك التي لقي فيها النائب "ياكورنيتسكي" مصرعه بعد أن أصيب بطلقة من المسدس نفسه، وهوى جسده من الطابق السادس.

كما كانت حياة "فيكتور" الشخصية اختلاقًا أدبيًّا أكثر منها حقيقة، فقد كان المخلوق الوحيد الذي أبدى تجاهه اهتمامًا حقيقيًّا هو طائر البِطريق. فهو يحب بطريقه للغاية، حتى أنه عندما سقط مصابًا بمرض خطير، رتب لزرع قلب

طفل صغير في جسد البِطريق، واشترى ذلك القلب، بالمعنى الحرفي للكلمة، من أبوي طفل مات في حادث سيارة، بغض النظر عن المسائل الأخلاقية والمعنوية كافة.

ومن الأسرار الأخرى صلته بزعماء عالم الجريمة، وكان يعرف بينهم باسم البِطريق. ولكن أغرب ما يلفت نظرنا هو حرصه على حضور جنائز الأشخاص الذين أسهم وساعد في قتلهم، وكأنه يستكمل بذلك الدائرة: بدءًا من تسلمه ملف الفقيد المنتظر، وحتى المشاركة في جنازته، مع أصدقاء وأقارب الفقيد.

والآن، وبعد أن عرف العامة تفاصيل عملية التطهير الاجتماعي التي خطط لها ونفذها، فإن هناك أملًا في أن نعرف التفاصيل الكاملة. كما شرعت لجنة من النواب بالفعل في التحقيق. وأُعفيَ رئيسُ الجماعة (أ) من واجبات منصبه، وعلى الرغم من الإبقاء على اسمه، واسم من خلفه، سرًّا، فإن هناك من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن شيئًا مماثلًا لن يتكرر، فلم يعد في سلطة جهاز أمن الدولة مستقبلًا أن يبتَّ بنفسه و دون إجراءات قضائية في مصير أي شخص، بما في ذلك المجرمين الخارجين عن القانون.

تبقى مساهمة "فيكتور" في أدب دولتنا الفتية مجرد صفر كبير، لا شيء، ولكن مساهمته في تاريخ أوكرانيا السياسي ستصبح موضوعًا للبحث، ليس فقط من قبل لجنة النواب، ولكن من قبل زملائه الكتاب أيضًا. ومن يدري، فربما تحظى رواية يكتبها أحدهم حول هذا الموضوع بحياة أطول وأكثر نجاحًا من تلك التي حظي بها فيكتور زولوتاريوف".

نظر إلى البدين، فوجده ينظر إليه، وكأنه ينتظر رأيه فيما كتب.

وضع "فيكتور" الورقة فوق سطح المكتب في صمت، وهو يشعر أنه تحت وطأة حمل ثقيل.

تذكَّر كلمات رئيس التحرير.. "اللحظة التي تعرف فيها الهدف من عملك هي نفسها لحظة موتك"..

ذكَّره الثقل الذي في يمينه أنه لا يزال يحمل المسدس، وأدرك أنه بالفعل من طراز "ستيتشكين".

كان البدين يراقبه في قلق، وعلامات الرعب تختفي تدريجيًّا من وجهه، وشفتاه تتحركان وكأنه يصيغ أفكاره لنفسه. ولما وجد "فيكتور" قد هدأ، سأله:

- حسنًا؟

- ماذا؟

- ما كتبته كـ...

- ما كتبته جاف بلا روح.. وبدايته فقيرة.. أسلوبك صحفي عادي.. خذ!

كان يمد يده بالمسدس إلى البدين المذهول..

- هذا تذكار مني لك.

لم يرفع البدين عينيه عن "فيكتور"، وهو يتناول المسدس منه بكلتا يديه.

وكأن "فيكتور" قد تخلَّص من مرض كابوسي عندما أعطىالبدين المسدس. فقد عاد يشعر بيده طبيعية من جديد، وهو يغادر الشقة في خطوات سريعة.

75

قاعة الانتظار في المحطة المركزية.
حيث جلس "فيكتور" حتى منتصف الليل، بين مئات الركاب، يسمع أصداء النداءات عبر مكبرات الصوت للقطارات القادمة والمغادرة. جلس جامدًا بالسويت شيرت الثقيل، وبلا حراك.

لم يعد يشعر بالخوف. ليس لأنه استقال أو أنه استسلم لمصيره. فبعد صدمة قراءة نعيه، يبدو أن ضجيج المحطة المزدحمة أنعشه. حسنًا، نهايته وشيكة وواضحة، الأشخاص أنفسهم الذين صاغوه في هيئته التي هو عليها الآن، ها هم حددوا بالفعل ما يجب أن تكون عليه نهايته - الانتحار - بل حددوا متى سيكون ذلك. وما دام لا يعرف من يكونون، فقد كان من المنطقي أن يصيبه خوف مميت من أي شخص يجلس أو يمر قربه. لكنه لم يجد لذلك معنى. الخوف يكون لأولئك الذين ما زال لديهم فرصة للبقاء على قيد الحياة. وهو لا يرى مثل هذه الفرصة أمامه، على الرغم من أنه يود لو تطول حياته، ليوم أو يومين.

والغريب أنه شعر في تلك اللحظة بالإهانة لأنهم أوكلوا كتابة نعيه إلى شخص عديم الموهبة. لو كان مكانه، لكتب نصًّا أفضل بكثير. وسرعان ما طرد عن عقله هذا الخاطر العبثي الجنوني.

لماذا لم يأتِ على ذِكْر "نينا" و"سونيا" في النعي؟ لماذا ذكر "ميشا" وحده؟ لا بد أن هناك من يعرف شخصيته بأفضل مما يعرفها هو نفسه. كما أن من الواضح

أن مَن قاموا على جمع المعلومات عنه يمتلكون الكثير والكثير منها. حتى أنهم عرفوا مصدر القلب المتبرع به، على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن يعرف.

"القطار القادم على الرصيف 9 هو المتجه من "إلفوف" إلى موسكو.".

هكذا أعلن الصوت الأنثوي الرتيب، وعندئذ نهضت السيدات اللاتي كن يجلسن على مقربة منه، وهن يحملن حقائب ثقيلة وأكياس تسوق كبيرة.

شعر بالضيق؛ لكونه كان في طريقهن، وكذلك لأنه وجد نفسه وحيدًا بعد انصرافهن. وهكذا نهض، واتجه إلى مخرج المحطة. وصل إلى الشقة في الواحدة بعد منتصف الليل. أغلق الباب بهدوء من خلفه، وخلع حذاءه. وجد "نينا" و"سونيا" نائمتين.

جلس في الظلام إلى ترابيزة المطبخ، وتطلع عبر الشباك إلى العمارة المقابلة. شباك واحد مضاء هناك، في الطابق الأول، فوق المدخل، حيث تعيش السيدة صاحبة العمارة.

لمح عند ركن حافة الشباك برطمان مايونيز فارغًا به شمعة. أثار المنظر ذكرى في نفسه. فأحضر علبة الكبريت من عند البوتاجاز، ووضع البرطمان فوق الترابيزة، وأشعل الشمعة.

صنع لهب الشمعة المتراقص ظلالًا تتراقص على حوائط المطبخ. تأملها منبهرًا برهةً من الوقت، قبل أن يتناول قلمًا وورقة، ويكتب:

"عزيزتي "نينا"،

نقود "سونيا" في حقيبة فوق الدولاب.

ضعي الصغيرة في عينيكِ. عليَّ أن أبتعد بعض الوقت.

سأعود عندما تستقر الأمور.".

وجد نفسه يكتب الجملة الأخيرة لا إراديًّا، حتى أنه كاد يضع تحتها خطًّا، ولكنه توقف واكتفى بقراءة ما كتب عدة مرات. كلام موجز وفي الصميم.

وقَّع على الرسالة. نحى الورقة بعيدًا عنه. ظل يتأمل لهب الشمعة.

لا تزال المزهرية الخضراء التي تحوي الرفات في مكانها عند الشباك. كان سطحها يعكس وهج الشمعة في رقة.

الأسلوب.. تلك كلمة يعشقها "ليوشا" الملتحي. ربما يجب على "فيكتور" أن يبتكر أسلوبًا خاصًّا به. أن يقوم بشيء جديد قبل أن ينتحر. أن يذهب إلى حيث لم يذهب من قبل، أو إلى مكان لا يخطر على بال من يبحثون عنه!

سقط ضوء الشمعة على ابتسامة أسى.

نهض في هدوء إلى غرفة النوم، وفتح الدولاب. ومن جيب معطفه أخرج نقوده التي كسبها بالتعاون مع "ميشا". ثم عاد إلى المطبخ، وألقى نظرة جديدة عبر الشباك. الجو بارد في الخارج. عائدًا إلى غرفة النوم من جديد، عاد ومعه سويتر. ارتدى السويتر أسفل ذلك الذي كان يرتديه بالفعل. دس النقود في جيبه.. وغادر الشقة.

النهاية

كازينو "جوني".
أوصله إلى هناك سائق تاكسي مقابل عشرة دولارات، ولكن بودي جارد عملاق في بدلة سوداء منعه من الدخول. ضحك "فيكتور"، ربما بسبب ضخامة الرجل وأسلوبه العدائي غير المبرر. أخرج النقود وسحب منها ورقة، ودسها في جيب بدلة البودي جارد، الذي سارع بالتنحي جانبًا.

وجد أمامه فتاة في بلوزة بيضاء ناصعة ووشاح سماوي حول عنقها، تجلس وراء واجهة الاستقبال وهي تحاول عدم الاستسلام للنوم. كانت الأجواء هادئة، وتلفت "فيكتور" حوله بعد أن كان يتوقع مشهدًا مغايرًا تمامًا.

نقر على الزجاج، فاستيقظت الفتاة، ونظرت في دهشة إلى ملابسه الثقيلة.
ناولها مئة دولار، فناولته في المقابل عدة فيشات لعب بألوان مختلفة.
وسألته، وهي ترى نظرات الشك في عينيه:

- أهذه هي المرة الأولى هنا؟ هذه بدلًا من النقود. لتستخدمها في البار، أو في اللَّعب.

نظر حوله، وهو لا يعرف إلى أين يمضي. فتطوعت الفتاة بالإشارة إلى ناحية ستارة خضراء ثقيلة:

- مِن هنا.

وجد نفسه في عالم آخر لم يتصوره. عالمٌ هادئٌ جدًّا. قدَّر أن ليس في المكان سوى سبعة أشخاص. كان هناك رجل يلعب وحده أمام القائم على ترابيزة الروليت، وهناك عند ترابيزة أخرى ثلاثة يلعبون، واثنان يلعبان البوكر، على خلفية من أجواء موسيقية هادئة. ولمح في الردهة لافتة نيون تشير إلى البار، بينما تقترب فتاة وهي تحمل كأس نبيذ.

ذهب "فيكتور" إلى ترابيزة يجلس إليها رجل واحد. ربما يكون يابانيًّا أو كوريًّا، وكان يضع رهانه في حنق ممتزج بالاستسلام.

جلس "فيكتور" إلى جواره، يراقبه، قبل أن يضع أول رهان.

انطلقت الكرة الصغيرة في مدارها، ثم توقفت، ووجد القائم يناوله بعض الفيشات.

لقد ربح!

إنه لم يرَ الروليت من قبل إلا في أفلام السينما، وشعر كأنه في فيلم لم يَره من قبل. راودته نزوة غريبة، فوضع كل ما معه من فيشات على الأحمر، وربح من جديد، بينما يراقبه الرجل الياباني - الكوري في تشكك واضح.

وضع الفيشات على الرقم الزوجي، فربح مجددًا.

شعر بالملل. دسَّ الفيشات في جيب السويتر وذهب إلى البار، وطلب كأس كونياك كبيرة، وفي مقابل الفيشة التي قدَّمها تلقى الباقي على هيئة فيشات أخرى بألوان مختلفة.

نقود لعبة، وأسعار لعبة، وأناس لعبة.. إنه بالتأكيد في عالم أطفال.

عاد والكأس في يده إلى حيث الترابيزات، وجلس إلى الترابيزة نفسها، واضعًا حفنة من الفيشات للرهان، وربح أيضًا.

قال لنفسه إن هذا حظ المبتدئين.

انسحب الياباني - الكوري، فاستمر "فيكتور" في اللعب وحده. وتثاقلت الفيشات البلاستيكية في جيوبه.

قال لموظف الكازينو، شاب أنيق يرتدي قميصًا أبيض وبيبون:

- اسمع. ما الذي عليَّ أن أفعله بكل هذه الفيشات؟

- تغيرها إلى دولارات.

أومأ "فيكتور" برأسه، واستمر في الربح.

عاد إلى البار، ثم ذهب إلى المطعم. اصطحب امرأة وهو غير متيقن من عمرها أو هيئتها. ووجد نفسه في غرفة في الفندق نفسه.. بينما لا يذكر أي شيء عن تلك المرأة سوى أنها كانت قوية الذراعين.

في الصباح التالي، استيقظ "فيكتور"، ووجد نفسه وحده، برأس يعاني الصداع. نهض، وألقى نظرة من الشباك على الساحة المألوفة وسوقها الصغيرة.

إنه لن يذهب إلى أي مكان. لا يزال معه المال الذي لن يحتاج إليه.. انتابه الشكّ فجأة، فأسرع إلى حيث السويتر الملقى فوق الكرسي، وتحسس جيوبه. اندهش حينما وجد كل شيء في مكانه، الدولارات، والعدد الهائل من الفيشات.

اغتسل وارتدى ملابسه، وهبط إلى المطعم، ومقابل بعض الفيشات، تناول وجبة ممتازة والمزيد من الشراب. عاد إلى غرفته، ونام حتى الحادية عشرة، ثم هبط مجددًا، ولكن إلى الكازينو.

كانت ليلته الثانية أسعد حظًّا من الأولى. استمر في الربح، وهو غير مبالٍ بما قد يحدث له. يدرك في لا وعيه أن الاستمرار في الربح أمر سيىء. ولكنه وجد غرابة في ذلك، ما دام أن أساس اللعبة هو الرغبة في الربح.

بعد أن قضى وقتًا طيبًا في الكازينو، ذهب إلى مكتب الاستقبال. لم يجد أحدًا هناك، ولكن شاب أنيق أسرع نحوه، عندما انتبه إلى وجوده.

بدأ "فيكتور" يخرج الفيشات من جيوبه فوق الكاونتر أمام الواجهة الزجاجية. ولكنه توقف، عندما لاحظ التوتر في عيني الشاب، الذي كان يهز رأسه في رفض. قال له الشاب هامسًا:

- عليك ألا تحول جميع الفيشات إلى نقود، وإلا لن يتركوك تخرج من هنا.

- ماذا عليَّ أن أفعل إذًا؟

- العب حتى الصباح، ثم اتصل بأصدقائك لينتظروك عند المدخل.

- أهذه هي القاعدة هنا؟ هاه؟

اندهش عقله الثمل من كل ما يجري.

- كلا، سيدي. نحن نلعب بنزاهة، ولسنا مثل غيرنا.

أومأ تجاه الستارة الخضراء التي كان "فيكتور" قد دخل عبرها في الليلة السابقة.

ترك الفيشات فوق الكاونتر، وذهب ليلقي نظرة فيما وراء الستار. كان هناك أربعة بلطجية واقفين في بهو الفندق، على مسافة أقل من خمسة أمتار. غمز أحدهم له.

هكذا، عاد وجمع الفيشات، واستمرَّ في اللعب، وعند الفجر، استغرق في النوم فوق كنبة جلدية سوداء مريحة في الكازينو.

أيقظه أحدهم قرب التاسعة، وأخرج مفتاح غرفته من جيبه، قبل أن يصطحبه إليها.

شعر أن قواهِ تخونه خلال ليلته الثالثة عند ترابيزات القمار. على عينيه غشاوة، وبصعوبةٍ تمكَّن من رؤية الفيشات. ولكنه لا يزال يربح، وفي النهاية أصابه التوتر، تحت نظرات باردة من القائمين على الترابيزات، وكذلك حراس المكان.

اقترب منه أحدهم بعد الفجر، وسأله بوجه جامد:

- أتودُّ منا أن نوصلك إلى منزلك؟

استغرب "فيكتور" الكلمة:

- منزلي؟

- لا تقلق، فسوف نوصلك في ليموزين مع مرافق، لو أحببت. بوسعك تغيير الفيشات إلى نقود، أو أن تتركها وتعود إليها.

سألهم فجأة:

- ما تاريخ اليوم؟

- التاسع من مايو.

- والساعة؟

- السابعة والنصف.

حاول "فيكتور" أن يُصفِّي عقله. التاسع من مايو. إنه ليس يوم ذكرى النصر فحسب، بل وكذلك يوم رحلة "ميشا".. ولكن هذا لم يحدث بعد. لا يزال "ميشا" في عيادة "ثيوفانيا"، وهم بالتأكيد ينتظرون حضوره إلى العيادة، حتى يكتبوا السطر الأخير في حياته.. منتحرًا بمسدس من طراز "ستيتشكين".

سأله بعد لحظة تردد:

- هل بوسعك، في غضون ساعة، أن توصلني إلى مصنع الطائرات؟

نظر له الرجل في دهشة، قبل أن يقول:

- بالتأكيد.. مع مرافق؟

أومأ "فيكتور" برأسه بنعم.

عندئذ، انسحب الرجل.

كانت الليموزين طويلة للغاية. حتى أنه لم يرَ شيئًا مثلها من قبل. وكأنه جالس داخل غرفة.

قدَّم له المرافق زجاجة "جين" و"تونيك" من الثلاجة الصغيرة.

انطلقت به الليموزين عبر ساحة "فيكتوري"، ورأى "فيكتور" عبر زجاجها المعتم الناس وهم يتوقفون ليتأملوا الليموزين في انبهار.

ابتسم في رضا، وهو يشرب شرابه. هو لا يزال سكران. قبض على حفنة من الفيشات، وأعطى المرافق إياها، الذي تقبَّلها منه شاكرًا. توقفت الليموزين عند بوابة المصنع، وسأله المرافق:

- إلى أين الآن؟

- اطلب حضور "فالينتين إيفانوفيتش" من اللجنة القطبية إلى هنا.

خرج المرافق من السيارة، وراقبه "فيكتور" وهو يعبر نقطة البوابة بهدوء، ثم يتوارى داخل المبنى. لاحظ أن أحدًا لم يستوقفه. عاد المرافق بعد خمس دقائق. قال وهو يشير إلى نقطة الدخول:

- إنه بانتظارك.

قال له "فيكتور" وهو يترجل من الليموزين:

- يمكنك أن ترحل.

نظر "فالينتين" نحو الليموزين في توجُّس، ولكن أعصابه سرعان ما استرخت حينما رأى "فيكتور".

- واو! لم أتوقع أن تكون أنت. أين البِطريق؟

نظر "فيكتور" في عينيه، قبل أن يقول بنبرة قاطعة:

- أنا.. البِطريق.

تأمَّله "فالينتين إيفانوفيتش" لحظاتٍ، قبل أن يومئ برأسه متفهمًا.

- حسنًا.. هيا بنا.. نحن نوشك على الإقلاع.